فريق
متميزون



E-BOOK

رواية

أرسين لوبين يواجه شرلوك هولمز

ترجمة
خميلة الجندي

موريس لوبلان

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

-

أرسين لوبين يواجه شرلوك هولمز

موريس لوبلان

ترجمة: خميلة الجندي

نبذة عن الرواية..

ماذا يحدث إذا تواجه اللص الظريف أرسين لوبين، المشهور بطرقه وخططه العبقرية في السرقة وسخريته اللاذعة ومقالبه الطريفة مع رجال الشرطة، مع أشهر محقق في العالم وأكثرهم عبقرية، بالطبع نقصد السيد شرلوك هولمز!

ماذا إذا أعيت الحيلة الشرطة الفرنسية وأُسقط في أيديهم، فتم اللجوء إلى شرلوك هولمز ذاته ليتصدى لأرسين لوبين ويوقفه عند حدّه، ويفسد عليه خططه الجهنمية؟ بين يديك الآن الترجمة الكاملة والأمينة للكتاب الثاني من مغامرات أرسين لوبين، والذي صدر في فرنسا لأول مرة عام 1908، والكتاب يحوي مواجهتين اثنتين بين أرسين لوبين والمحقق الإنجليزي العبقري شرلوك هولمز، فترى لمن يكون النصر؟

☆ ☆ ☆

إهداء المترجمة..

إلى أمي التي صنعت لي قاموسًا مصورًا وأنا في الثالثة.

☆ ☆ ☆

مقدمة

بعد مرور ١١٧ عامًا اليوم على ابتكار شخصية أرسين لوبين، الملقب باللص الظريف، عاد «لوبين» حاليًّا ليحدث ضجة عالمية ويستحوذ على أنظار الأجيال الجديدة بعد أن تم تحويل بعض مغامراته القصصية إلى مسلسل أذيع على أحد منصات البث الإعلامي العالمية، وبالتزامن مع بزوغ نجم هذا البطل من جديد، اقتنصت المترجمة خَميلة الجندي الفرصة لتقدم لنا أرسين لوبين في ثوب جديد، وتفسح لنا المجال للتعرف عليه عن قرب، ولإعادة اكتشافه مرة أخرى.

أرسين لوبين هو شخصية أسطورية تمخضت من رحم خيال موريس لوبلان في عام ١٩٠٥. وفي واقع الأمر لم يكن موريس لوبلان يخطط قط لأن يبتكر هذه الشخصية، ولا لأن تصبح هذه الشخصية علامة فارقة في مسيرته الأدبية، فقد اقتفى لوبلان في بداية مسيرته الأدبية أثر الروائيين الفرنسيين: زولا، وموبسان، وفلوبير، وسار على نهجهم؛ حيث ولع بهم وبلمساتهم الواقعية ولعًا شديدًا، ولم يكن الأدب البوليسي يمثل بالنسبة له آنذاك سوى نوع من أنواع الأدب الثانوي، ولم يُخيَّل له قط أنه سيصبح أحد أعلام الأدب البوليسي الفرنسي.

فقد ألف لوبلان عددًا من الروايات التي انتمت لتيار الأدب الواقعي، قبل أن يخوض غمار الأدب البوليسي، وبدأت رحلته مع القص البوليسي عندما طلب منه «بيير لافيت»، مؤسس مجلة «أنا أعلم كل شيء- Je sais tout»، أن يبتكر شخصية تضاهي في تفرُّدها وفي حذاقتها وبراعتها، شخصية شرلوك هولمز التي كان قد ابتكرها الإنجليزي كونان دويل، ولما وقعت عينا لوبلان على اسم مستشار بلدية باريس في ذلك الوقت -أرسين لوبان- تلألأت الفكرة في رأسه، وما إن غيَّر اسم «لوبان- Lopin» إلى «لوبين- Lupin»، حتى تبلورت شخصية أرسين لوبين في ذهنه، وانسالت تفاصيلها على الورق.

وقد حصدت قصص لوبين التي كانت تُنشَر في مجلة «أنا أعلم كل شيء» الشهرية في هذا الوقت نجاحًا مدويًا بين جموع القراء، وهو ما جعل بيير لافيت يطلب من لوبلان أن ينسج المزيد من مغامرات هذا اللص؛ بيد أن المعضلة التي واجهها حينها لوبلان هو أنه -لسوء حظه- كان قد اختتم آخر قصة لأرسين لوبين بقيام الشرطة بإلقاء القبض عليه وبدخوله السجن، فكيف له أن يتابع تأليف السلسة والبطل حبيس بين قضبان السجون الفرنسية؟ غير أن الناشر انتشله من هذه المعضلة، فاقترح عليه أن يختلق قصة حول فرار لوبين من السجن، ومنذ هذه اللحظة توالت مغامرات اللص النبيل.

وفي هذه الفترة الزمنية التي ظهر فيها لوبين؛ أي بداية القرن العشرين، كانت ظاهرة السطو ظاهرة اجتماعية جديدة تزامن ظهورها مع الحقبة الذهبية (La belle époque)، ومع بزوغ الطبقة البرجوازية، وانتشار البذخ والرفاهية. وانعكس

ذلك على الأدب الفرنسي؛ حيث ولّى عهد العصابات التقليدية، وتنحى قاطعو الطرق التقليديون جانبًا تاركين المجال لـ «اللصوص النبلاء». وهذا التعبير نفذ إلى اللغة الفرنسية على يد موريس لوبلان نفسه؛ حيث صاغه على غرار تعبير «الفلاح النبيلـ Gentleman farmer»، وهو التعبير الذي كان يشير في إنجلترا إلى الفلاح الذي يزرع ويباشر أعمال الفلاحة للاستمتاع فقط، وليس بهدف الربح.

ومع ابتكار شخصية لوبين ـاللص الظريفـ تغيرت الصورة النمطية السائدة المرتبطة باللصوص، والتي كانت تتمثل قديمًا في قيام اللص باعتراض الناس لسرقتهم ونهبهم؛ فأصبح «اللص النبيل» أكثر حذاقة وأكثر رقيًّا، وصار يلجأ لكل ما في جعبته من معارف فيزيائية وكيميائية، ولكل الحيل المبتكرة؛ لإتمام مهمته، وبذلك اكتسبت شخصية اللص منذ ذلك الحين صفات جديدة؛ كالابتكار، والخداع، والعجرفة، والتميز، والتفرد.

وادعى البعض أن لوبلان استلهم شخصية لوبين من أحد اللصوص الأناركيين الذين ذاع صيتهم في هذه الفترة ـماريوس جاكوب (١٨٧٩ـ ١٩٥٤)ـ والذي لُقِّب حينها بـ«روبين هود» العصر الحديث، إلا أن بعض النقاد نفوا هذا الادعاء، وفي أحد اللقاءات الإذاعية التي أُجرِيت مع حفيدة موريس لوبلان، أفصحت هذه الحفيدة أن شخصية جدها كانت في حقيقة الأمر أبعد ما تكون عن شخصية أرسين لوبين، فقد كان جدها شخص هادئ الطباع، يكره الضوضاء، يميل للهدوء والعزلة، كما أنه قضى آخر أيامه منزلقًا في هوة القلق والتوتر، وتعقيبًا على مدى تأثير شخصية أرسين لوبين على جدها، أوضحت أن «روح شخصية أرسين لوبين سكنت جدها وسيطرت عليه تمامًا»؛ وفقًا لما ورد في لقائها الإذاعي مع راديو RTL.

إن سلسلة أرسين لوبين تحتوي بين طياتها على ١٧ رواية، و٣٩ قصة قصيرة، و٥ مسرحيات، كُتِبت كلها بين عامَي ١٩٠٥ و١٩٤١، وهي أعمال تميزت كلها بأسلوب واضح، وشفاف، وبإيقاع سريع. وعبقرية لوبلان تكمن في أنه تمكن من إقناع القارئ أن شخصية أرسين لوبين وُجِدت وعاشت حقًّا على أرض الواقع، فتطورت ونضجت وتغيرت وتأثرت بالحرب العالمية الأولى، وبالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي سادت هذه الفترة الزمنية، وهو ما يفسر النجاح المستدام الذي حصدته هذه السلسلة.

والرواية التي بين أيدينا الآن «أرسين لوبين يواجه شرلوك هولمز» كانت قد تُرجِمت من قبل بشكل مقتضب في قصتين مختصرتين ومنفصلتين عن بعضهما البعض، أما النسخة التي بين يدَي القارئ العربي الآن، فتهدي لنا المُترجِمة فيها ترجمة يتم من خلالها إعادة تقديم القصتين للقارئ العربي في مجموعة واحدة، عوضًا عن النسختين المنفصلتين اللتين قد صدرتا سابقًا، وتجمع هاتان القصتان (السيدة الشقراءـ الشمعدان اليهودي) أحد أشهر اللصوص في مواجهة مع أحد أشهر وأمهر محققي العدالة: لوبين أمام شرلوك هولمز.

وقد اقتضت ترجمة هذا العمل من المترجمة خَميلة الجندي جهدًا مضنيًا من الناحية اللغوية والأسلوبية والتركيبية؛ حيث تطلب الأمر منها الالتزام بصياغة سلسة لا تؤثر على إيقاع الرواية البوليسي السريع، وإضفاء روح عصرية على أسلوب السرد لتنقل عمل كُتِب منذ أكثر من قرن، كما اهتمت باحترام خصائص لغة المصدر ونقل إيقاع الكر والفر الذي يكتنف مغامرات هذا اللص النبيل، عوضًا عن اهتمامها بتعريب الأسماء الفرنسية تعريبًا صحيحًا يقترب من نطقها في اللغة الفرنسية.

باسنت عصام سيد

مدرس مساعد بقسم اللغة الفرنسية

كلية الألسن، جامعة عين شمس

☆ ☆ ☆

الباب الأول
السيدة الشقراء
الفصل الأول
رقم ٥١٤ - السلسلة ٢٣

في الثامن من ديسمبر أواخر العام الماضي، عثر السيد جربو، أستاذ الرياضيات في مدرسة فيرساي، على مكتب نادر من خشب الماهوجني بين أغراض تاجر الخردة، وأكثر ما حظى بإعجابه هو تصميمه الفريد الشبيه بالمكاتب الملكية، همس لنفسه:

- هذا المكتب هدية مناسبة ليوم ميلاد سوزان.

وكما اعتاد أن يبذل ما في وسعه لإسعاد ابنته بما يتلاءم مع مقدرته المالية، أخذ السيد جربو يساوم ليصل إلى سعر مناسب لشراء المكتب، حتى استقر مع البائع على سعر ٦٥ فرنك. بمجرد أن أعطى السيد جربو عنوانه للبائع ليرسل إليه المكتب، اقترب شاب أنيق من قطعة الأثاث بعدما فحص المكان جيدًا من حوله، وتساءل:

- كم سعرها؟

أجابه البائع:

- لقد بيعت بالفعل يا سيدي.

أشار الشاب إلى السيد جربو، وأردف:

- آه! لهذا السيد، أليس كذلك؟

حياه السيد جربو ورحل منتشيًا باقتناء القطعة التي أرادها من بين أقرانها. لم يقطع جربو سوى خطوات قليلة إلى الشارع ليُفاجأ بالشاب الأنيق يدنو منه ويخلع له قبعته محييًا، وقال بلباقة مثالية:

- أستميحك عذرًا سيدي، أود أن أطرح عليك سؤالًا متطفلًا.. أكان هناك سبب خاص دفعك لاقتناء هذا المكتب دون أقرانه؟

أجاب جربو مقتضبًا:

- لا، كنت أبحث عن تحقيق التوازن بين السعر ومواصفات المكتب.

- بالتالي أنت غير متشبث بهذا المكتب تحديدًا.

- على العكس، متمسك وبشدة.

- ربما لأنه عتيق؟

- لا، لأنه عملي.

أومأ الشاب متفهمًا، وأضاف:

- ما رأيك إذن في مبادلته بمكتب عملي، وربما في حالة أفضل؟

- هذا أيضًا في حالة جيدة، المبادلة لا تبدو ذات نفع.

- ولكن...

كان جربو رجل حاد الطباع نزق، من السهل إثارة غضبه، فقاطع حديث الشاب، وأجابه بحزم:

- سيدي، لديَّ ما أفعله الآن، لا تُلِّح أكثر.

شعر الغريب بإحراج شديد، ولكنه أصر:

- لن أدفع لك السعر الذي دفعته لقاء المكتب، سأضاعف سعره.

- لا.

- ثلاثة أضعاف؟ ما رأيك؟

أردف جربو بنفاد صبر:

- أرِح نفسك، هذا المكتب ملكي ولن أبيعه.

حدق الشاب بوجه جربو للحظات بنظرة لن ينساها الرجل أبدًا، ثم غادر دون أن ينبس ببنت شفة.

☆ ☆ ☆

في غضون ساعة عاد السيد جربو وقطعته الجديدة إلى منزله الصغير الكائن في شارع فيروفلي، واستدعى الرجل ابنته سعيدًا بما أحضر لها:

- سوزان، أحضرت هذا المكتب لكِ، أظنه مناسب لاحتياجاتك.

سوزان مخلوقة خلابة، مرهفة الحس ومتفائلة على الدوام، قابلت هدية والدها بعناق طويل متعلقة بعنقه كالطفلة الوديعة، ممتنة له على هذه الهدية الملكية. وضعت سوزان في الليلة ذاتها المكتب في غرفتها، وشرعت في تنظيفه بمساعدة أورتنس مدبرة المنزل الهادئة، عُنِيت سوزان بتنظيف الأدراج، وترتيب الأوراق بعناية، كما وضعت حافظة الرسائل، ومجموعاتها المنتقاة من الكروت البريدية، وعدة هدايا خفية من قريبها فيليب، حرصت على الحفاظ عليهم.

في السابعة من صباح اليوم التالي، ذهب السيد جربو كعادته إلى المدرسة،

وفي تمام العاشرة، انتظرته سوزان كعادتها اليومية على الرصيف المقابل للبوابة، كان من عظيم سروره أن يرى طيفها الرشيق كل يوم ينتظره بابتسامة صبية. في أثناء عودتهما معًا سألها:

- ما رأيك في المكتب الجديد؟

- خلاب! لقد اعتنيت أنا وأورتنس بإطاراته النحاسية حتى بدت كالذهب.

- أسعيدة أنتِ؟

- بلا شك! عليَّ الاعتراف أنني لا أستطيع المضي قدمًا في حياتي دونك.

وبينما يعبرا الحديقة القريبة من المنزل اقترح السيد جربو أن تصطحبه لرؤية المكتب قبل تناوُل طعام الغذاء، فوافقت سوزان مرحبة، وسبقته بعدة خطوات نحو المنزل، ثم صعودًا إلى غرفتها، لتهرب منها صرخة ارتياع جَزِعة، تمتم السيد جربو صاعدًا إلى الغرفة.

- ماذا يحدث!

ولعظيم دهشته لقد اختفى المكتب، أما ما أدهش قاضي التحقيق السهولة التي جرت بها عملية السرقة في غياب سوزان، بينما كانت الجميلة في نزهتها، رأى بعض الجيران شخصًا يتخفى في زيه الطويل وقرع جرس المنزل مرتين بعدما ترجل من عربة الحنطور. لم يشتبه به أحد من الجيران الذين غفلوا حقيقة أن سوزان خارج المنزل، هكذا أجرى السارق عمله في هدوء تام.

كما لاحظ القاضي عدة أمور، منها: أن الخزانة لم تُكسَر، وساعة الحائط النفيسة لم تُسرَق، حتى حافظة النقود التي تركتها سوزان على سطح المكتب وضعها السارق على طاولة مجاورة بما تحتويه من قطع ذهبية. أصبح من العسير على القاضي فهم دوافع السرقة، ماذا يدفع سارقًا إلى المخاطرة ليحصل على غنيمة بسيطة كهذه؟

الخيط الوحيد الذي كان من الممكن طرحه هو الواقعة بين السيد جربو وهذا الشاب الغامض في اليوم السابق:

- فور ما رفضت تمامًا محاولات الشاب، ذهب وهو يحدجني بنظرة أقرب إلى التهديد.

لكن هذا لم يدل القاضي على شيء، فلجأ إلى التاجر الذي أكد أنه لا يتذكر الشاب أو السيد، أما عن المكتب فقد اشتراه من مدينة (Chevreuse) في صفقة أجراها من فترة طويلة، واضطر لبيعها بذات السعر؛ لأنها لم تلقَ اهتمام أي مشترٍ. لم يُسفِر استجواب التاجر عن دليلٍ آخر، فحُفِظ التحقيق، وتُرِك السيد جربو في حزنه على ما تكبده من خسارة، ذهب ظن جربو إلى أن ثروة قد خُبِّئت في أحد الأدراج السرية للمكتب، هذا ما دفع الشاب ـالذي يعلم بالتأكيد بهذه الخبيئةـ إلى اتخاذ قرار السرقة.

سألته سوزان:

- والدي العزيز، ماذا كنا لنفعل بهذه الثروة؟!

- ما هذه الحماقة؟! لكنا حينها نملك ثروة تتيح لنا الاقتران بالطبقات العُليا من المجتمع.

رثت سوزان لحال والدها الذي أصابها بمرارة، وأخفت هذه الادعاءات عن قريبها فيليب، واستمرت الحياة في بيت فيرساي أقل بهجة وسلاسة، وكدَّر الندم والظنون صفو حياة الرجل وابنته.

مر شهران على هذه الحال ليُفجَع جربو بخبر جديد، خبر أشد قسوة، أضاف للأحداث تتمة مثيرة وكارثية!

إنه الأول من فبراير، الخامسة ونصف، عاد السيد جربو من عمله حاملًا جريدة المساء، جلس بعد برهة ووضع عويناته ليشرع في قراءة الجريدة. لا تستهويه السياسة، فطوى صفحتها، ليجد مقالًا جذب انتباهه، عنوانه:

«الجولة الثالثة من مسابقة اليانصيب الصادرة عن مؤسسة الصحافة».

«الفائز بمليون فرنك هو رقم ٥١٤ـ السلسلة ٢٣».

انزلقت الجريدة من بين أصابعه، ماجت الأرض تحت قدميه، وكاد قلبه يتوقف عن النبض. الرقم ٥١٤ـ سلسلة ٢٣. هذا رقمه! لقد ابتاع الورقة بالصدفة البحتة ليسدي صنيعًا لأحد أصدقائه، لكنه قلَّما آمن بالقدر والحظوظ. هاهو الآن فائزًا! سريعًا فتح مفكرته ليتأكد من الرقم، إنه ٥١٤ السلسلة ٢٣ بلا شك، ولكن أين ورقة اليانصيب؟

هبَّ مسرعًا إلى حجرة مكتبه ليبحث عنها في صندوق المظاريف التي وضع فيها الورقة الغالية، ولكن قشعريرة ذعر اعترته حين دلف ولم يجد صندوق المظاريف. يا لرعبه وهو يفكر أين ذهب! حاول أن يستعيد رباطة جأشه، ولكنه تذكر أنه لم يرَه في مكانه منذ أسابيع! اعتاد أن يلمح الصندوق بين الفينة والأخرى في أثناء مراجعة واجبات تلاميذه، أين اختفى؟

صرخ جربو مناديًا ابنته التي صعدت الدرجات على عجلة، سألها متلعثمًا بصوت يختنق:

- سوزان، الصندوق.. صندوق المظاريف!

- أي صندوق؟

- الذي ابتعناه من اللوفر.. أحضرته يوم الخميس، وكنت أضعه على هذه الطاولة.

- ألا تتذكر يا أبي؟ لقد غيّرنا مكانه..

- متى؟

- ذات عشية.

- لا تثيرين حنقي! أين وضعناه؟

- أين؟! في المكتب.

حل الصمت للحظات بينهما، وأردف جربو:

- المكتب الذي سُرِق؟

- بلى.

كرر جربو في جزع:

- وضعناه في المكتب الذي سُرِق؟!

أخذ يفرك يديه من فرط الضيق، وقال:

- هذا الصندوق بداخله مليون فرنك يا بنيتي.

همست سوزان في سذاجة:

- آه! لِم لَم تخبرني يا أبي؟!

- مليون فرنك! المبلغ الذي فازت به ورقة اليانصيب.

صعقتهما المصيبة، فالتزما الصمت لمدة طويلة، فلم يملك أحدهما الشجاعة ليبدأ الكلام، حتى نبست سوزان في النهاية:

- ولكن، لِمَ لا يمكننا الحصول عليه يا أبي!

- لِمَ؟ لأننا لا نملك دليلًا!

- أنحتاج إلى دليل؟

- أتسألين؟ بالطبع!

- وأنت لا تملك دليلًا؟

ضغط جربو على أسنانه، وأجابها:

- بلى، لا أملك دليلًا.

- كيف؟

- لأنني وضعته في الصندوق.

- الصندوق المفقود!

- أجل، والذي سرقه هذا الغريب.

- هذا أمر بغيض! يمكنك أن تعترض يا أبي أليس كذلك؟

- على ماذا! ماذا أقول! هذا الغريب يعلم الغيب! يملك قوى خارقة مكّنته من معرفة الورقة الفائزة وسرقة المكتب!

عمَّ الصمت لحظات، لينهض بعدها جربو متغلبًا على ارتجافة قدميه، قائلًا:

- حسنًا، لن أسمح له بهذه الفرصة. لا يمكنه أن يسرقها مني. هو حذق ولكنه بالتأكيد سيتقدم بالورقة ليفوز بالجائزة، حينها يمكننا القبض عليه!

- ألديك خطة يا أبي؟

- سأدافع عن حقي حتى النهاية، ماذا سيحدث؟! سننجح بالتأكيد، وستؤول لي المليون فرنك في النهاية!

بعد دقائق كتب برقية إلى البنك المركزي الفرنسي موقعة باسمه:

«مالك الورقة رقم ٥١٤ـ سلسلة ٢٣ يعارض بكل الطرق القانونية أي محاولة من غريب الحصول على الجائزة».

في الآن ذاته وصل هذا التلغراف إلى البنك المركزي الفرنسي:

«الرقم ٥١٤ـ سلسلة ٢٣ في حوزتي

أرسين لوبين».

☆ ☆ ☆

في كل مرة أشرع في قص مغامرات أرسين لوبين التي لا حصر لها، أجد صعوبة حقيقية؛ لأنني أشعر أن أكثر هذه المغامرات أصبحت معروفة لمَن يقرأ، في الحقيقة لا توجد سرقة من سرقات «اللص الوطني» ـكما يطلق الناس على أرسينـ إلا ولوحظت بطريقة أو بأخرى، ولكن لم يحاول أحد استغلال هذه الملاحظات، أو يشرع في اقتفاء أثر صاحب تلك الأفعال البطولية!

على سبيل المثال، مَن لا يعرف قصة «السيدة الشقراء» الغريبة، وفصولها المثيرة للفضول التي تناولتها المقالات الصحفية معنونة بالبنط العريض: الرقم ٥١٤ـ سلسلة ٢٣، أو جريمة شارع هنري مارتن، أو الماسة الزرقاء، مَن لا يعرف الجلبة التي حدثت بعد تدخُّل المحقق الإنجليزي الشهير شرلوك هولمز! ويا له من حماس انتشر بين الناس بعدما قص شرلوك إحدى مغامراته في مواجهة أشهر الفنانين! لقد ضجت الشوارع بالصيحات بعدما أعلن الناس: «اعتقال أرسين لوبين!».

ولكني أملك ما لا يملكه أحد، أنا أملك مفتاح الحل، أبدد الغموض الدائر حول تلك المغامرات، أقرأ المقالات وأعيد قراءتها، وأنسخ اللقاءات القديمة لأحقق غاياتي. كل شيء قد خططت له، كل حدث يخضع لخطتي الدقيقة. معاوني هو أرسين لوبين الذي لا تنضب مساعدته لي، وبالطبع هناك المحترم واطسون، صديق هولمز المقرب!

لقد تفجرت الضحكات عقب الكشف عن الطردين، اسم أرسين لوبين أثار الدهشة، وأكد للناس أنهم أمام جريمة سرقة مثيرة ومسلية. أما الخطة فجاءت بناءً على أبحاث موسعة أكدت أن الرقم ٥١٤ـ سلسلة ٢٣ وصل عن طريق وسيط من مصرف كريدي ليون إلى مكتبه الفرعي في فريساي، والفائز هو السيد بساي قائد المدفعية؛ إلا أن السيد بساي تُوفِّي إثر سقوطه عن حصانه، كل ما عرفه أصدقاؤه أنه تنازل قبل وفاته عن ورقة اليانصيب لصديقٍ له. هذا الصديق هو:

- أنا!

قالها السيد جربو مؤكدًا في التحقيقات، بينما اعترض محافظ البنك المركزي:

- أثبِت ادعاءك يا سيد جربو!

- أثبته؟ حسنًا، هذا يسير، هناك على الأقل عشرين شخصًا سيؤكدون أنني أملك علاقة وطيدة بالسيد بساي، وأننا كنا نلتقي في مقهى بلاس آرم. هناك أخبرني محرجًا ذات يوم أنه يود أن يبيعني ورقة اليانصيب مقابل ٢٠ فرنك؛ لأنه يمر بضائقة مالية.

علَّق محافظ البنك:

- هل لديك شهود على تلك الواقعة؟

- لا.

- في هذه الحالة، على أي أساس نصدق ادعاءك؟

- هناك رسالة كتبها لي عن هذا الشأن.

- أي رسالة؟

- رسالة احتفظت بها رفقة الورقة.

- أحضِرْها إذن!

- ولكنها في ذات المكتب الذي سُرِق!

- إذن أصبح من الضروري أن تجد سارقه.

أما أرسين لوبين فأوضح عبر صحيفة «إيكو دي فرانس» ـالتي يُشاع أنه من المساهمين الرئيسين فيهاـ أن مستشاره القانوني السيد ديتنان يملك رسالة كتبها القائد بساي يتنازل فيها عن ورقة اليانصيب. لقد انفجر الناس سعداء باحترام أرسين للقانون! أرسين لوبين يحضر محاميًا للدفاع عنه؟ إنه يحترم قواعد وقوانين القضاء!

تهافتت الصحافة على منزل المحامي ديتنان، هو رجل نزيه، يشك في كل شيء، ويناقض نفسه وقتما تقتضي الحاجة. لم يقابل ديتنان موكله أرسين

لوبين من قبل ـويأسف لذلكـ ولكنه يتلقى منه التعليمات لكل قضية، وينفذها بحذافيرها، فهو مدافعٌ مغوارٌ عن حق موكله؛ لذا يوم المحاكمة أفصح عن معلومات جديدة دون تردُّد عرض منها رسالة من القائد بساي تؤكد نقل ملكية الورقة، ولكن دون ذكر المنقول له. الرسالة تبدأ بصديقي العزيز.. مَن الصديق؟ لم تفصح الرسالة. لكن السيد أرسين لوبين أضاف ملحوظة: «أنا المقصود بهذه الرسالة.. وخير دليل أنني مالكها الآن».

سقطت وقائع المحاكمة كالصاعقة على رأس السيد جربو، الذي حاول الدفاع عن حقه قائلًا:

- «صديقي العزيز!» المقصود الوحيد هو أنا! لقد سرق أرسين لوبين هذه الرسالة حينما سرق ورقة اليانصيب.

جاء رد لوبين إلى الصحافيين:

- مَن الذي يملك الإثبات!

فصرح السيد جربو للصحافيين عينهم:

- بما أنه يملك ورقة اليانصيب والرسالة، فهو سارق المكتب!

ليستمر لوبين على موقفه:

- مَن يملك الدليل؟

أصبحت مناظرتهما الصحافية عرضًا مبهرًا لمتابعي القضية، الجميع ينتظر تصريحات أرسين لوبين الباردة كالثلج، ورد فعل جربو الناري. امتلأت الصحف بحكايات التناحر بينهما وحاول السيد جربو دعم حقه، وجذب التعاطف إلى مصيبته ببراءته المؤثرة.

- قارنوا أيها السادة، هذا المبلغ هو إرث سوزان، سلبه هذا الوضيع! إذا كان الأمر بشأني، فأنا لا أحتاج لهذا المال، ولكنه مال سوزان! تفكروا فيما أقصه عليكم! إنه ١٠ أضعاف المائة ألف. هناك كنزٌ مدفون في هذا المكتب!

الثغرة الوحيدة في ادعاء جربو أنه يجزم أن السارق هو مالك ورقة اليانصيب الحالي ـأرسينـ ولكن كيف يعرف السارق أن الورقة في هذا المكتب! والأهم كيف يعرف أن الورقة ستفوز باليانصيب؟ حاول جربو الدفاع عن ادعائه:

- حسنًا إذن، هو يعلم! وإلا لماذا كلف نفسه عناء سرقة هذه القطعة البالية؟

- لأسباب مجهولة، ولكن هذا السبب! ليستولي على ورقة بالية لا تزيد قيمتها على ٢٠ فرنك!

- ورقة ستفوز بمليون فرنك! لقد كان على دراية بالأمر.. لقد علم الأمر كله. أنتم تجهلونه! هذا المجرم خبير في كل شيء!

☆ ☆ ☆

في اليوم التالي تلقى السيد جربو رسالة من أرسين لوبين خطّ على مظروفها «سري للغاية»، شرع السيد جربو يقرأ بقلقٍ متزايدٍ:

«سيدي، إن الفائز الوحيد بهذا الصراع هو الصحافة. ألم يحن الوقت للتصرف بمسئولية؟ من جانبي أنا ملتزم بها التزامًا راسخًا. الموقف واضح: أنا أملك ورقة اليانصيب، دون الحق في صرفها، وأنت تملك هذا الحق، ولكن لا تملكها؛ لذلك لا يمكننا الاستغناء عن أحدنا الآخر. أنت لا تقبل التنازل عن حقك، وأنا لن أقبل التنازل عن ورقتي. ما الحل إذن! أنا لديَّ الحل: لنتشاطر المبلغ. ستحظى بنصف مليون، وسأحظى بالنصف الآخر، ألا يبدو هذا عادلًا؟ وسيسعد قاضي المحكمة أن العدالة المطلوبة تحققت لكلانا.

في رأيي هو حل عادل، ولكنه حل فوري. أنت لا تملك رفاهية المساومة، سأمنحك ثلاثة أيام لتمعن التفكير في عرضي. صباح الجمعة أحب أن أفكر وأنا أقرأ؛ لذا سأنتظر منك في صفحة الإعلانات المبوبة في جريدة إيكو فرانس، ملحوظة مشفرة إلى السيد آرس. لوب. تخبرني قبولك لهذه الصفقة التي أهديها لك. في المقابل ستحصل على الورقة فورًا، وتقترب من المليون، وأخبرك لاحقًا بالطريقة التي تسلمني بها نصف المليون الآخر.

في حالة رفضك، سأتخذ كافة الخطوات التي تتيح لي النتيجة المثلى لصالحي. وعلاوة على ذلك تتكبد عناء تعنتك. ستلتزم أمام المحكمة بدفع ٢٥ ألف مصاريف إضافية للدعوى.

وتفضل بقبول فائق الاحترام.

أرسين لوبين».

ثار السيد جربو فور قراءته للرسالة، واستخرج عدة نسخ منها ليعرضها على الصحافة مستنكرًا كل ما فيها من سخافات؛ حيث صرح أمام الصحافيين:

- هو لا يملك شيئًا!

علَّق أحد الصحفيين:

- مع ذلك، نصف مليون خيرٌ من لا شيء!

- هذا القول يجدي إذا لم أكن صاحب حق! سأطالب بحقي أمام المحاكم.

- ستقاضي أرسين لوبين؟ هذا شيء غريب.

- لا، سأقاضي البنك المركزي. عليهم تسليم الجائزة.

- مقابل ماذا؟ لا تملك دليلًا أنك صاحب الورقة.

- الدليل أصبح واضحًا. بما أن أرسين لوبين اعترف بأنه لا يملك حق صرفها.

- أيكفي أقاويل أرسين لوبين أمام المحكمة؟

- لا يهم. سأدافع عمَّا هو ملكي.

كل سكان باريس أصبحوا مشتركين في هذا العرض، جانب يقلل من شأن السيد جربو، والجانب الآخر يدعم تهديداته لأرسين. ساد بينهم التشاؤم، فالطرفان المتناحران لا يتساويان في القوى، أحدهما شرس قاسٍ في هجومه كالوحش في مطاردة، والآخر أشبه بحمل وديع.

صباح الجمعة، نفدت نسخ إيكو فرانس ونبش الجميع بلهفة عن الصفحة الخامسة، قسم الإعلانات المبوبة. لم تُوجَّه رسالة إلى السيد آرس. لوب. كان الصمت هو رد جربو على أرسين لوبين، في مساء الجمعة اختُطِفت السيدة سوزان.

دور الشرطة هو الباعث على الكوميديا في قصص أرسين لوبين. يحدث كل شيء تحت أنظار الشرطة، يتحدث ويصرح ويهدد، ولكن في النهاية لا يعرقل أحد ما يفعله لوبين.

وعلى الرغم من مهارة الشرطة؛ فإن الصغير والكبير يفشل في مواجهة دهاء أرسين لوبين، إنه عدو ماهر، حذق، يراوغ الجميع، ويهين قدراتهم، مَن قادر على مواجهته؟! لا أحد.

وفقًا للشهود، غادرت سوزان المنزل في العاشرة إلا ثُلث، في العاشرة وخمس دقائق لم يرَها والدها على الرصيف المقابل للمدرسة تنتظره كعادتها؛ لذا من المرجح أن عملية الاختطاف قد تمت إما في أثناء نزهتها القصيرة قبل الذهاب إلى المدرسة، أو في طريقها إلى المدرسة. اثنان من الجيران أكدوا أنهما شاهدوا سيدة تتطابق أوصافها مع سوزان تسير مبتعدة عن منزلها، وبعد ذلك؟ لا يملك أحد دليلًا على وجهتها التالية.

لقد تم استجواب الجميع، والتحقيق مع كافة موظفي محطات القطارات، لم يلاحظ أحد أي شيء يتعلق باختفاء فتاة شابة. ولكن في مدينة أفراي، أدلى بقال بأقوال مثيرة للاهتمام، لقد باع الزيت لإحدى السيارات قادمة من باريس، على المقود يجلس السائق وفي الخلف فتاة شقراء، أكد البقال أنها شقراء بصورة ملحوظة. بعد ساعة عادت العربة إلى فيرساي، وقد تمكن البقال ـبسبب سرعتها البطيئةـ من رصد سيدة موشحة بحجاب إلى جوار الشقراء. لا شك أنها كانت سوزان جربو!

إذن من المرجح أن عملية الاختطاف تمت في وضح النهار، في أحد الشوارع الحية في وسط المدينة! كيف؟! لم يسمع أحد صرخة استغاثة، أو حركة مثيرة للشك تستدعي القلق.

منح البقال للشرطة أوصاف السيارة، ليموزين ٢٤، زرقاء داكنة. عرفت الشرطة أن السيدة بوب والتر، مديرة مرأب جراند جراج ومتخصصة في حالات الاختطاف بالسيارة، أجَّرت سيارة ليموزين لها ذات الأوصاف لمدة يوم واحد، وهو صباح الجمعة، المُستأجِر هو سيدة شقراء، لم ترَها على الإطلاق! تساءل المحقق:

- والسائق؟

- يُدعَى إرنست، يملك عدة شهادات كفاءة.

- هو هنا؟

- لا، لقد أحضر السيارة وذهب.

- أيمكننا تتبُّعه؟

- بلا شك، يمكنني أن أرشح لك أشخاصًا تتقفى أثره.

منحت السيدة بوب والتر الأسماء للمحقق، ولكن لم يتمكن أحد من التعرف إلى رجل يُدعَى إرنست بهذه الأوصاف، وعليه أصبحت كل ومضة قد تنير الظلمة تؤدي إلى ظلمة أشد عتمة، وكل خيط قد يحل اللغز، يزيده تعقيدًا.

لقد فقد السيد جربو كل أسلحته في هذه المعركة، وتحولت حياته إلى كارثة كبرى، أمسى معذبًا بتأنيب الضمير بعد اختطاف ابنته، يلوم نفسه على ما حل بهما. لقد ظهر إعلان صغير في صحيفة إيكو فرانس يعلن استسلامه دون أي نية مبطنة. إنه انتصار أرسين لوبين، لقد انتهت الحرب.

وصل السيد جربو بعد يومين إلى مقر البنك المركزي، ومثُل أمام محافظ البنك ليقدم له ورقة اليانصيب التي أرسلها أرسين. قال الرجل ساخرًا:

- آه! أتملك الورقة؟ هل أعادها لك أرسين؟

- لقد كانت ضائعة، تفضل هاهي.

- أنت تكذب.. لقد طرحت عليك سؤالًا!

- كل ما فعلته خدع وأكاذيب.

- حسنًا، تحتاج لأكثر من ورقة اليانصيب لتحصل على جائزتك.

- رسالة القائد بساي؟

- بالطبع.

أخرج جربو الرسالة من معطفه ومد يده للرجل قائلًا:

- تفضل، هاهي.

- ممتاز، ستترك لنا تلك الأوراق لنتأكد منها. في خلال ١٥ يومًا سأتواصل معك لأخبرك أن تحضر إلى الخزانة وتستلم نقودك.

ساد الصمت لحظات، ثم أردف محافظ المصرف:

- من الآن فصاعدًا يا سيدي، أعتقد أنك تحتاج للتحلي بالقليل من الصبر، وتلتزم الصمت التام أمام الصحافة.

- هذا ما عزمت على فعله.

هناك سر لم يُكشَف عنه النقاب حينها، أن أرسين لوبين كان بالجرأة الكافية ليرسل الورقة والرسالة للسيد جربو، ربما تبدو فعلته درب من الحماقة، ولكنه عَلم أن جربو الفائز في النهاية أمام القضاء. كان تحرُّك ذكي من لوبين أن يستغل جربو نفسه كورقة لعب على طاولته، ويساوم على الجائزة الكبرى. قبل جربو ظنًّا منه أن ورقة اليانصيب تعيد التوازن إلى اللعبة، سوزان رهينة لدى أرسين والجائزة رهينة لدى جربو حتى يتم التبادل.

كثفت الشرطة جهودها بعدما شعرت بريبة في تحرُّك جربو الغريب، ربما هي مصيدة ليُجرَّد جربو المسكين من ابنته وجائزته. أكدت تحريات الشرطة أن أرسين فاز بالجولة الأولى، ولكن الأصعب لم يحن بعد، سيطلق سراح سوزان مقابل نصف مليون فرنك. أين وكيف سيتم هذا التبادل؟ عليه أن يظهر لتتم العملية، وبلا شك سيمنع السيد جربو من تحذير الشرطة، وإلّا سيُحرَم من لقاء ابنته مرة أخرى.

أجرت الشرطة تحقيقًا لحث جربو على الكلام، لقد بدا في حالة قانطة، التزم فيها الصمت، لم تنبس منه سوى كلمات قليلة:

- لا أملك ما أقوله، أنا أنتظر.

- والآنسة سوزان!

- التحريات مستمرة.

- ألم يراسلك أرسين لوبين؟

- لا.

- أمتأكد أنتَ؟

اضطرب جربو قليلًا، وأردف:

- لا.

- إذن لقد تواصل معك. ما التعليمات التي أرشدك إليها؟

- لن أتحدث.

عندما حاولت الشرطة تضييق الخناق على المحامي ديتنان جاء رده أكثر تلاعبًا:

- السيد لوبين موكلي، أنت تعلم خطورة الإفصاح عن أي معلومات بين محامٍ وموكله، يجب الحفاظ على سرية علاقتنا.

هناك خطة تُحاك في الخفاء، هذا أكيد الآن، ولكن ما هي؟ لقد حاك أرسين لوبين خطته كمَن ينسج شبكة العنكبوت، بينما الشرطة فرضت رقابة مشددة

ليلًا ونهارًا على جربو، كان أرسين يخطط ما لا تستطيع الشرطة كشفه.

في يوم الثلاثاء الثاني عشر من مارس تلقى السيد جربو مظروفًا كُتِب عليه «البنك المركزي»، وفي يوم الخميس في الساعة الواحدة، استقل السيد جربو القطار إلى باريس، في غضون ساعتين حصل جربو على جائزته، مليون فرنك.

بينما أخذ جربو يعد الأوراق مرتجفًا ويفكر أنها فدية سوزان، كان هناك رجلان يتبادلان الحديث في سيارة تقف على مقربة من بوابة المصرف الرئيسة. أحدهما بدأ الشعر الأبيض يغزو شعره رغم حيويته ونشاطه، هو المحقق جانيمار، العجوز جانيمار، العدو الأزلي لأرسين لوبين، قال جانيمار للنقيب فولانفان:

- لن يطول هذا، بعد خمس دقائق سيظهر جربو، الجميع مستعد؟

- بالتأكيد.

- كم عددنا؟

- ثمانية، واثنان على دراجة.

- حين يظهر سأعد حتى ثلاثة، لا يمكن أن نترك جربو يفلت من بين أيدينا مقابل أي ثمن، وإلا سيذهب للقاء أرسين لوبين، ويُبادِل ابنته مقابل النصف مليون.

- ولكن لِمَ لا يتعاون الرجل معنا؟ هذا أسهل كثيرًا! سيفوز معنا بابنته والمليون فرنك.

- يخاف على ابنته، نحن نضعها في خطر مقابل القبض على هذا.

- مَن هذا؟!

بصعوبة نطقها جانيمار كأنما يخشى لفظ اسمه:

- لوبين.

- إنه لص ظريف على أي حال.

تنهد جانيمار، وأردف:

- أمام لوبين تنقلب موازين الكون.

مرت دقيقة أخرى، وهتف جانيمار:

- انتبهوا، كُلٌّ في موقعه.

غادر جربو المصرف وانعطف نحو شارع «كابسين»، ثم انعطف مرة أخرى ناحية اليسار، وسار الشارع الطويل، يسير بمحاذاة المحال ويرقب زجاج العرض،

علّق جانيمار:

- يسير بهدوء. لا يمكن أن يسير رجل في حافظته مليون فرنك بهذا الهدوء.

- ماذا يمكنه أن يفعل!

- لا شيء. إنه تأثير لوبين.

في اللحظة ذاتها اقترب جربو من كشك لبيع الجرائد، اختار عدة جرائد وأخرج نقودًا من جيبه، وبتروٍّ رفع الجرائد وشرع في قراءتها. لم تمر دقيقة ثانية حتى قفز جربو فجأة في إحدى السيارات الواقفة على الجهة الأخرى من الرصيف، كان المحرك دائرًا؛ لذا لم يجد القائد صعوبة في الانطلاق بسرعة مبتعدًا عن المحقق الذي صرخ:

- اللعنة!

لحقت الشرطة بالسيارة التي ولحسن الحظ أصابها عطب ما وتوقفت، لكن جربو غادر قبل وصولهم، هتف جانيمار في مساعده:

- أسرِعْ فولانفانت.. تحقق من السائق.. ربما هو المدعو إرنست.

انشغل فولانفانت في التحقيق مع السائق ولكنه ليس إرنست، هو جاستون أحد السائقين لدى مؤسسة فياكر للسيارات، جاء إليه رجل منذ ١٠ دقائق وأجبره على الانتظار بالقرب من الكشك، منتظرًا رجلًا آخر سيقفز إلى سيارته، وكل ما عليه أن ينطلق مسرعًا بعدها. سأله فولانفانت:

- مَن هذا الرجل؟ هل أعطاك أي عنوان لتوصل الآخر؟

- لا، فقط أسماء بعض الشوارع، إليك جميعهم.

في الآن نفسه لم يضِع جربو الوقت، لقد صعد إلى أول سيارة أجرة وطلب من السائق إيصاله إلى محطة قطار أنفاق «كونكورد»، غادر جربو إلى محطة بالاس رويال، واستقل سيارة أخرى حتى ميدان لا بورص، رحلة أخرى بقطار الأنفاق حتى فيارس، ثم سيارة أجرة ثالثة:

- تحرك نحو ٢٥ شارع كالبيرون.

٢٥ شارع كالبيرون هو عقار قائم على ناصية شارعين، صعد إلى العقار ودق الجرس ليفتح له سيد في منتصف العمر:

- هذا مقر المحامي ديتنان؟

- أنا ديتنان، سيد جربو؟

- بلى.

- كنت في انتظارك، تفضل.

بمجرد أن دلف جربو إلى منزل ديتنان دقت ساعة الحائط معلنة الثالثة بعد الظهيرة، امتعض جربو قائلًا:

- لقد وصلت في موعدي المحدد، ألم يأتِ بعد؟

- ليس بعد.

ردد جربو بتوتر:

- سيأتي؟

- أنت تستجوبني يا سيد جربو في أكثر أمر أنا ذاتي أشعر بفضول شديد حياله. لم أشعر أبدًا بنفاد صبر كما أشعر الآن.

صمت لبرهة، ثم أكمل حديثه:

- على أي حال، إذا جاء سيخاطر مخاطرة كبيرة، هذا المنزل مُراقَب منذ أسبوعين.. إنه يثق بي، ولكن الشرطة وضعتني تحت المرصاد.

- أنت محق، رغم محاولتي لتضليلهما، ربما لم يفقد المحققان أثري واستطاعا اللحاق بي إلى هنا.

- ولكنك.

قاطع جربو حديث المحامي، وقال بحدة:

- هذا لن يكون خطأي، كما أنه لم ينفذ جانبه من الاتفاق. ماذا فعلت أنا؟ لقد أطعت أوامره، أحضرت المال في الساعة التي حددها، وجئت إليك بالطريقة التي خطط لها. لقد تحملت مسئولية التعاسة التي سببتها لابنتي، وقدمت كل فروض الولاء والطاعة، الآن أنتظر دوره.

صمت جربو برهة، ثم أردف بقلق:

- سيحضر ابنتي، أليس كذلك؟

- هذا ما أرجوه.

- ألم ترَها؟

- أنا؟ إطلاقًا، لقد راسلني طالبًا أن أستقبلك في منزلي في تمام الثالثة، وألا أسمح لأحد أن يدلف بعدك حتى يأتي ويرحل هو. أنا أسعد دائمًا بخدمة أرسين لوبين، وأوافق دون تفكير على كل ما يطلب.

- لنرى إذن كيف سينتهي الأمر.

أخرج جربو من الحقيبة نصف مليون فرنك، ووضعها على الطاولة وهو يفحص بعينيه الشقة، لم يأتِ أحد بعد، الجرس لا يدق، أين هو؟ نهض جربو مستشيطًا من هدوء المحامي:

- ألن يأتي؟ كيف يمكنه هذا! هذا جنون. لقد التزمت بما قاله، إنها لخيانة ألّا يأتي، لقد وضعني في خطر داهم.

قبض جربو بكلتا يديه على النقود، وأخذ يهذي:

- ليأتي فقط.. سأمنحه كل المليون لأجل سلامة سوزان.

الباب يُفتَح، وصوت يهمس في رزانة:

- النصف.. النصف يكفي يا سيد جربو.

وطئ غريب عتبة الباب، شاب يرتدي ذات الثياب التي ارتداها هذا الشاب عند متجر الخُردة في فرساي، الشاب الذي ساوم على المكتب ورفض جربو بشدة بيعه له، اقترب جربو قائلًا:

- أين سوزان؟ أين ابنتي؟

أغلق أرسين لوبين الباب بعناية شديدة، وقال وهو يخلع قفازه ويرسم ابتسامة هادئة على وجهه:

- عزيزي سيد ديتنان، لا أعلم كيف أشكرك على حسن معاملتك لي، وحرصك الشديد على الدفاع عن حقوقي، لن أنسى لك هذا الفضل أبدًا.

تمتم ديتنان في عدم فهم:

- لم يُقرَع الجرس.. لم أسمع الباب يدق..

- الأجراس والأبواب أشياء يستخدمها من يحتاج إليها، أنا لست بحاجة لها يا سيد ديتنان.

- ابنتي. أين ابنتي يا لوبين؟ ماذا فعلت بها؟

- يا إلهي! لم هذه الجلبة يا سيد جربو؟! استرخِ قليلًا، لحظات وتحتضن ابنتك الشابة بين ذراعيك.

أخذ لوبين يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا كما السيد المشرف على عماله ورعاياه ويوزع عليهم العطايا والهبات، ثم أردف:

- سيد جربو، أهنئك على حسن تصرفك في الوقت المناسب بالرغم من تعطل السيارة، مع هذا لو لم تتعطل لكنا التقينا في فندق إيتوال حسب الخطة الأولى ولم نلجأ لإزعاج السيد ديتنان بخطتنا البديلة.. على أي حال.. إنه القدر.

مد لوبين يده إلى رزم النقدية المرصوصة على الطاولة، وقال:

- ممتاز.. المليون بأكملها هنا، لن نضيع الوقت، أتسمحون لي؟

تدخل ديتنان معترضًا:

- ولكن، الآنسة جربو لم تصل بعد.

- و؟

- وجودها لا غنى عنه، أليس كذلك؟

أومأ لوبين رأسه عدة مرات يلوك الأفكار في ذهنه وتصنَّع الهدوء قائلًا:

- فهمتك.. أرسين لوبين لا ينشد سوى ثقتكم. أنت تظن أنني سأحصل على المبلغ ولا أسلم الرهينة. عزيزي ديتنان، أنا مغفل كبير لأنشد ثقتك بي. إن أفعالي كلها تصدر عن فطرة طيبة، ولكن الناس تشك في نواياي!

صمت لوبين لحظة، وأردف بنبرة آسفة:

- أنا مثال الكياسة وحسن الخلق! على أي حال، إذا كنت لا تثق بي سيد ديتنان، يمكنك أن تفتح نافذتك وتصرخ، ستجد على الأقل دزينة من المحققين يطوفون جنبات الطريق.

- أتظن أن هذا الحل المناسب؟

اتجه لوبين نحو النافذة، وأسدل الستار ليلقي نظرة طويلة إلى الأفق:

- أظن أن السيد جربو عجز عن تضليل جانيمار.. ماذا أقول؟ لقد فعل الرجل ما في وسعه.

تجهم جربو، وأردف شاردًا:

- أهذا ممكن! أقسم لك أنني...

- أنك لم تخذلني؟ لا أشك في هذا يا سيد جربو، ولكنهم رجال مهرة، يعرفون ما يفعلون. أعرفهم جميعًا، فولانفانت، جريمو، ديزي... إنهم رفاقي المميزين.

حدجه ديتنان بنظرة متفاجئة، يا له من هادئ! يبتسم سعيدًا كأنه لا يقول شيئًا يثير الدهشة! ولا يشعر بالتهديد رغم الدزينة المتربصة لهم، لقد رأى المحققين بأم عينيه وما زال مستهترًا بالخطر، اغتنم أرسين لوبين الصمت، وقسَّم الرزم المالية ليحظى بنصيبه، ثم استقطع منهم خمسين ألفًا، وقدَّمها لديتنان قائلًا:

- هذا المبلغ لقاء أتعابك من السيد جربو، ومن أرسين لوبين. كلانا مدين لك بالكثير.

- كلاكما غير مدين لي بشيء يا سيد لوبين.

- كيف؟ وهذه الجلبة التي سببتها لك؟

- لا تُذكَر أمام السعادة التي غمرتني في خضم تلك المغامرة!

- إذن لن تقبل ما يقدمه أرسين لوبين؟

- لطالما وددت أن أحظى بسمعة سيئة، ولقد وهبتني هذه الأمنية.

أخذ لوبين المال وقدمه إلى جربو قائلًا:

- سيد جربو، تخليدًا لذكرى تعارفنا المميز، اسمح لي أن أقدم لك هذا المبلغ هدية زواج الآنسة جربو.

قبل السيد جربو الهدية بسعادة، ولكنه علَّق معترضًا:

- ابنتي غير متزوجة.

- هذا مرهون بموافقتك، لكنها تتوق للزواج.

- كيف تعرف هذا؟

- أعرف أن الفتيات لهم أحلام تكسر قيود آبائهم. لحسن الحظ أن هناك عباقرة أمثال أرسين لوبين، يمكنهم اكتشاف هذه الأرواح الساحرة.

تدخل ديتنان وغيَّر دفة الحديث بسؤالٍ فضولي:

- ألا يمكنك اكتشاف أمور أخرى؟ عليَّ القول إنني أشعر بفضول كبير لأعرف لماذا اخترت سرقة هذه القطعة بالتحديد؟!

- أسبابي تاريخية يا سيدي العزيز! على عكس ظن السيد جربو أن المكتب لم يحو داخله كنزًا سوى ورقة اليانصيب (التي لم أعرف عنها شيء)؛ فأنا أبحث عن هذا المكتب منذ مدة طويلة. لقد صُنِع من خشب الماهوجني والطقسوس، وزُيِّن بنقش فريد منمق، وُجِد أول مرة في منزل ماري والوسكا ([1]) السري في بولونيا وعلى أحد أدراجه نُقِش:

«مُهدًى إلى نابليون الأول، إمبراطور فرنسا، من خادمته الوفية، مانيكون».

استمر لوبين يقص على مسامعهما قصة المكتب الأثري، وقد نُحِت تحت هذا النقش جملة أخرى هي: «إليكِ، ماري»، فيما بعد صنع نابليون نسخة من هذا المكتب للإمبراطورة جوزفين، أكثر كمالًا من تلك التي ملكتها ماري والوسكا.

- لهذا شئت أن أضمه إلى مجموعات مقتنياتي الفريدة.

قال جربو في تململ:

- إذن أنت مَن رأيته عند التاجر، حاولت بكل الطرق جعلي أرضخ لرغبتك!

قال لوبين مبتسمًا:

- لو فعلت، لاحتفظت لنفسك بورقة اليانصيب، وكفيت نفسك شر هذا العناء كله.

- لو لم تخطف ابنتي لما رضخت لك.

- أي اختطاف! سيدي العزيز، أنت مخطئ، لم أخطف الآنسة جربو.

- ابنتي لم تُخطَف؟!

- على الإطلاق! خُطِفت تعني عنف. لقد جاءت الآنسة معي بمحض إرادتها.

كرر جربو قول لوبين غير مصدقًا:

- بمحض إرادتها؟!

- بالطبع بمحض إرادتها! كيف لا؟ إنها فتاة ذكية، مفعمة بالحياة، تعشق من قلبها.. ما كانت لتسمح لك بسرقة مهرها، إنها تعرف الطريقة الوحيدة لقهر تعنتك يا سيد جربو.

راق لديتنان هذه الحرب الباردة فتدخل ليشعل النقاش:

- أعتقد أن الجزء الأصعب كان محاولتك التفاهم معها، ما كانت لتتنازل بسهولة.

- أنا! لا لم أنل شرف التعرف إليها. إحدى صديقاتي الماهرات في المفاوضات فعلت.

أضاف ديتنان:

- حتمًا السيدة الشقراء التي رأيتها في السيارة؟!

- أجل، منذ التقيتا للمرة الأولى بالقرب من المدرسة اتفقتا على كل شيء. مذَّاك سافرت الآنسة جربو وصديقتها الجديدة، الآن هن يزوان بلجيكا وهولندا، ستكتشف الآنسة جربو أشياء رائعة في تلك الأسفار. البقية سأتركها لسوزان.

سُمِع الباب يدق، ثلاث دقات متتالية، برهة، دقة واحدة، برهة، دقة أخيرة.

- هذه الآنسة جربو، إذا سمحت عزيزي ديتنان.

أسرع ديتنان لفتح الباب لتدلف شابتان، أحدهما سوزان، اندفعت إلى ذراعَي والدها، والأخرى اقتربت من لوبين. كلتا الفتاتان لهما أجساد متشابهة، قد متناسق، وجه شاحب، شعر أشقر لامع مموج، الثانية وضعت قبعة على رأسها وارتدت عقدًا من الكهرمان، كانت بسيطة المظهر ولكنها أنيقة. همس أرسين لوبين لها ببضع كلمات، ثم حيَّا الآنسة جربو قائلًا:

- أعتذر منك آنستي على هذه المتاعب، ولكني آمل أنك لم تشعري بتعاسة مطلقة في هذه الأثناء.

- أي تعاسة؟! كنت في غاية سعادتي.. ما كنت لأعود لولا خوفي على والدي العزيز.

- حسنًا، يمكننا أن نعُد ما حدث هو الأفضل لنا جميعًا. لنتقبل ما جنيناه بصدر رحب، أعتقد أيضًا أن الوقت مناسب لتخبري والدك عن قريبك.

- قريبي؟ لا أفهمك.

- بلى، تفهمين يا آنستي.. قريبك فيليب. هذا الشاب الذي تحتفظين برسائله

بعناية شديدة.

اشتعلت وجنتا سوزان خجلًا، واضطرب مظهرها، ولكن في النهاية أذعنت لنصيحة لوبين، وألقت بما في صدرها بين ذراعَي والدها. تطلّع لوبين لها بعين الفخر، لقد وضعت اللمسة الأخيرة على هذا العرض الساحر. أب سعيد، ابنةَ سعيدة، يا لها من قطعة فنية أنجزتها يا لوبين! سيُبارك الرب فعلك.. سيُذكَر اسمك في قصص الوعظ التي تحكيها هذه العائلة لأحفادها وأحفادهم.

توقف لوبين عن التفكير في المستقبل لينظر نحو النافذة يرقب الحاضر:

- يا له من مسكين جانيمار! أسيظل هنا طوال الوقت؟ إنه يسعد كثيرًا بصحبة هؤلاء الأصدقاء..

كاد جربو أن يُقدِم على فعل شيء، الآن وقد استعاد ابنته، استعاد رغبته في الانتقام، اعتقال غريمه سيعادل نصف مليون. ولكن غريزته ولسبب غير مفهوم منعته من هذا، شعر أنها تدفعه إلى جانب لوبين.

- فيمَ شرودك سيد جربو؟ تريد أن تدافع عني أمامهم! لن يفلح ذلك أبدًا. في الواقع ماذا يعرفون؟ إنك هنا! وربما أن الآنسة جربو أيضًا جاءت لأنهم رأوها تدلف مع امرأة مجهولة.

صمت لوبين، ثم استطردت:

- ولكن ماذا يعرفون عني؟ لا يمكن أن يشكوا حتى في وجودي هنا. كيف يساورهم الشك وقد دلفت إلى منزل أحاطوه من القبو إلى العلية! يا لهم من مساكين! إلا إذا خمنوا أنني من أرسلت السيدة المجهولة، وهي التي أجرت التبادل؛ في هذه الحالة ربما يعتقلونها هي حين تغادر.

دق الباب بعنف، ساد التوتر بين الجميع عدا لوبين، كاد جربو أن يتحرك، فأوقفه لوبين:

- قف مكانك سيدي، فكِّرْ في ابنتك.. كن عقلانيًّا.

ثم نظر إلى ديتنان، وقال:

- سيد ديتنان، لقد عاهدتني.

لم يتحرك الرجلان، واعتمر لوبين قبعته بسرعة ما زالت تتسم بالهدوء، لطَّخ نفسه بحفنة من التراب، وأردف:

- عزيزي ديتنان، سأحتاج لك دائمًا. أطيب تمنياتي لكِ آنسة سوزان. ومحبتي لكِ وللسيد فيليب.

ثم أخرج من جيبه ساعة ذهبية قيّمة:

- سيد جربو، الساعة الآن الثالثة واثنان وأربعون دقيقة، في الثالثة وست وأربعين دقيقة أسمح لك أن تغادر هذا المنزل. لا يمكنك أن تغادر دقيقة مبكرًا..

لم يستطع ديتنان أن يمنع نفسه من التعليق:

- ولكنهم سيقتحمون المنزل.

- وأين القانون يا سيدي؟! مستحيل أن يقتحم جانيمار منزل مواطن فرنسي دون إذن من السلطات. اعذروني، عليَّ أن أغادر الآن.

ارتدى لوبين معطفه واتجه نحو باب الحجرة، ثم هتف في السيدة الشقراء:

- أمستعدة يا صديقتي العزيزة؟

لحقت به السيدة وألقت بتحية أخيرة مهذبة على الآنسة جربو، ثم غادرا. مرت لحظات وسمع الثلاثة صوت مرتفع في بهو العقار:

- صباح الخير جانيمار! كيف حالك؟ ذكِّرني أن أحضر هدية السيدة جانيمار.. سوف أدعوها إلى الغداء قريبًا.. وداعًا جانيمار!

دقة مضطربة مفاجئة مرة أخرة، ثم دقات متتالية على الباب، جلبة واضحة تأتي من مدخل العقار.

همس جربو:

- الساعة الثالثة وخمس وأربعون دقيقة.

بعد ثوانٍ معدودة غادر جربو وابنته المنزل إلى بهو العقار. لا أثر للوبين أو السيدة الشقراء.

تساءلت سوزان:

- أبي، أليس من الأفضل أن ننتظر؟

- ننتظر! أنتِ حمقاء؟ كيف لكِ أن تتوافقي مع هذه السيدة؟!

ظهر جانيمار من العدم، وتساءل في حنق:

- هذه السيدة.. أين هي؟ أين لوبين؟

- كانت هنا..

استدرك جربو ما قاله:

- هي هنا.. داخل المنزل.

هتف جانيمار منتشيًا:

- لقد نلت منه، العقار كله محاصر.

تدخَّل ديتنان:

- ربما يهربان عبر سلم الخدم؟

- لا تقلق، سلم الخدم يُفضي إلى بهو العقار وهناك سيجد عشرة من رجالنا أمام الباب.

- ولكنه لم يدلف من باب العقار.. ولن يهرب منه.

اعترض جانيمار في ضيق:

- من أين دلف إذن؟ جاء عبر الأثير؟

أعرض جانيمار عن كلام ديتنان واتجه إلى ستار يفصل الغرفة عن رواق طويل يقود إلى المطبخ، سار جانيمار إلى نهاية الممر ليتأكد من غلق باب سلم الخدم، ثم عاد إلى النافذة ونادى أحد المحققين.

- لم يظهر أحد؟

- ليس بعد.

- حسنًا، إذن لا يزالا في الشقة.. ربما يختبئان في إحدى الغرف! مستحيل أنهما قد فرا! لقد نلت مني طويلًا يا لوبين الصغير، الآن سأحظى بثأري.

ولكن جانيمار فتش الغرف كلها، حتى المدفأة تأكد من خلوها، ولم يجد دليلًا. حينما لم يتلقَّ مدير الأمن السيد ديدو أي أخبار جديدة من شارع كالبيرون، جاء في السابعة مساءً إلى منزل المحامي، ليجد أحد أمهر محققيه متسخًا ببقايا الفحم. شرع ديدو في التحقيق مع المحققين ذاتهم الذين أحاطوا العقار، ثم صعد إلى ديتنان ودلف إلى الغرفة التي جاء إليها لوبين، وبصوت مختنق وبَّخ جانيمار على مظهره المزري ووجهه المُتفحم، ثم وبابتسامة باردة قال:

- أحسنت صنعًا يا جانيمار، هل تعمل في مناجم الفحم؟

- كان لا بد أن أبحث عنه في كل مكان يا سيدي..

- مَن؟

- أرسين لوبين.. وصديقته.

- آه! أخُيِّلَ لك أنه سيهرب عبر مواسير المدفأة؟

- ولم لا يا سيدي؟ كان من الأفضل التأكد من كل الأماكن، في النهاية أرسين مثلي ومثلك رجل له شحم ولحم. لا يمكن أن يتبخر في الهواء.

- معك حق. ولكنه يجيد الهرب.

- كيف؟ من أي جهة؟ المنزل كله محاط برجالنا.

- المنزل المجاور؟

- لا يمكن أن يصل إليه إلا عبر الشارع.

- شقق الجيران في الطوابق الأخرى؟

- أعرفهم جميعًا.. لم يرَه أحد، ولم تُسمَع أي جلبة.

حك الرجل رأسه، وتساءل بسخرية:

- حقًّا؟

- بلى يا سيدي، لقد ساعدني حارس العقار، وأرسلت أيضًا رجلًا يراقب كل شقة كإجراء احتياطي.

- على أي حال، يجب أن نقبض عليه.

- هذا هدفي يا سيدي. سأبقى هنا لن أنام حتى ألقي القبض عليه، حتمًا سيظهر. اطمئِن يا سيدي، لن يحتاج الأمر لأكثر من ليلة وضحاها.

مرت ثلاث ليالٍ، لم يظهر لوبين.. ولم يستطع الرجال الوصول إلى طريقة هروبه المستحيلة، أو أي خيط يقود إليها! كيف فر لوبين وصديقته؟! لقد كان هنا! ولم يُرَ وهو يغادر. ربما استغل هفوة من أحد المحققين؟ هذا أكثر التفسيرات إقناعًا، ولكن لن يعترف أحد بذلك. الأمر لا يُصدَّق، كيف يتلاشى رجل وامرأة بالغان كما في حكايا الأطفال الخيالية. دون أن يفقد الرجال حماسهم، استمر التحقيق، واستمرت مراقبة المنزل آملين أن يصلوا إلى لوبين، إلى تفسير لاختفائه الغامض كمَن تلاشى مع ذرات الهواء!

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني
الجوهرة الزرقاء

في مساء السابع عشر من مارس، في الفندق الصغير رقم ١٣٤ شارع هنري مارتن، استلقى الجنرال العجوز بارون دوترك والسفير السابق للإمبراطورية في برلين على مقعده الوثير، بينما مرافقته الشابة تقرأ لها، والأخت أوجست تعتني بترتيب المضجع وإضاءة المصباح الليلي.

في الحادية عشرة، حذرت الراهبة، التي ولغريب المصادفة ستضطر للعودة إلى الدير لقضاء الليلة بجوار رئيسة الراهبات، الآنسة المرافقة للبارون قائلة:

- آنسة أنطوانيت، لقد انتهى عملي ويجب أن أغادر؛ كوني حذرة.

- حسنًا أيتها الأخت.

- لا تنسي أن الطباخ في عطلة، وأنتِ وحيدة في الفندق مع رئيس الخدم.

- لا تخشي شيئًا أيتها الأخت، سأنام في الغرفة المجاورة وسأترك الباب مفتوحًا لأتمكن من سماع ندائه إذا احتاج إليَّ.

فورما غادرت الأخت جاء شارل رئيس الخدم ليتلقى الأوامر كما اعتاد، أخبره البارون الذي ظل مستيقظًا لهذا الوقت المتأخر.

- الأوامر ذاتها يا شارل، تأكد من سلامة الجرس الآلي في غرفتك، إذا سمعته انزل من غرفتك واركض لإحضار الطبيب.

- لا تقلق أيها الجنرال.

- حسنًا، أنا أثق بك. هلم آنسة أنطوانيت، أين توقفنا في قراءتنا؟

أجابت الآنسة بنبرة حانية:

- لماذا لا يذهب البارون إلى النوم؟

- لا، لا أرغب. أنا أنام مبكرًا جدًّا، أحتاج لمزيد من السهر، ارحلي.. لست في حاجة إليكِ.

رفضت أنطوانيت الرحيل واستمرت في القراءة، وما كانت سوى ٢٠ دقيقة أخرى تمر حين غط العجوز في نومٍ عميق، وسارت أنطوانيت على أطراف أصابعها خارج الغرفة إلى الغرفة المجاورة لتحظى بقسط من النوم. في الآن نفسه تأكد شارل من إغلاق كافة مداخل الفندق كعادته، من الطابق الأرضي وحتى العلية التي ينام فيها. أغلق باب المطبخ المفضي إلى الحديقة، وباب البهو المفضي إلى الشارع، كما تأكد من غلق مزلاج النوافذ، وسلسلة الأمان. في الطابق الثالث حيث العلية عاد شارل أخيرًا لينام.

مرت ساعة على الأرجح، حين سمع شارل صوت الجرس يدق ربما لسبع أو ثماني ثوانٍ؛ فقفز كالذئب من مضجعه، ارتدى ملابسه مسرعًا، وهبط راكضًا نحو غرفة البارون. هناك وقف أمام الباب وكما اعتاد دقه برفق؛ لا إجابة، دلف بحذر وهمس:

- هل من أحد هنا؟

غشى الغرفة ظلامٌ عميق حجب عن شارل الرؤية؛ فهمس مجددًا في صوتٍ خفيضٍ:

- آنسة أنطوانيت!

رددت الحوائط الصدى.

- أنتِ هنا آنسة أنطوانيت؟ مَن هنا؟ سيدي البارون أنت مريض؟

ما زال الصمت يغشى المكان، صمت ثقيل يثير الدهشة. حاول شارل التقدم ولكن ساقه ارتطمت بأحد الكراسي، تحسس شارل الكرسي فوجده مقلوبًا، ثم أدرك أن جواره أشياء أخرى ملقاة على الأرض. الطاولة المستديرة التي تتوسط الغرفة والبارفان. نبش القلق براثنه في قلب شارل الذي ذهب باحثًا عن زر الإضاءة وأداره.

في منتصف الغرفة، بين الطاولة والخزانة، البارون دوترك مسجي جثة هادمة.

تلعثم شارل من فرط الصدمة، وهمس غير مصدق:

- مستحيل! ما هذا؟!

لم يدرِ ماذا يفعل، أخذت عيناه تتسع في دهشة دون أن يقدر على التحرك قيد أنملة، توحي الغرفة المبعثرة التي اتضحت معالمها أكثر تحت الضوء، بوقوع مشاجرة حادة، لقد تفتت مشعل الكريستال إلى قطع صغيرة، وساعة الحائط، والمرآة.

على مقربة من الجثة نصل يقطر الدماء، ومنديل ملطخ بالدماء. جثى شارل إلى جوار الجثة، هناك جرح غائر في الرقبة ما زال ينزف، مُلطِّخًا السجادة ببقع الدم الداكنة، وجه البارون عليه أعتى علامات الجنون المرعب. تمتم شارل في هذيان:

- لقد قُتِل! لقد قُتِل البارون!

فكرة جديدة داهمت الخادم المسكين، ربما جريمة قتل أخرى حدثت. ألم تمكث الآنسة أنطوانيت في الغرفة المجاورة؟ ربما قاتل البارون ارتكب جريمة أخرى؟!

دفع شارل باب غرفة أنطوانيت كالمجنون، الغرفة فارغة. ربما اختُطِفت أنطوانيت؟ أو أنها رحلت قبل الجريمة..

عاد شارل إلى غرفة البارون، لا يلوي على شيء، حينها لمح المكتب الأثري الذي يملكه البارون، القطعة الوحيدة التي لم يصِبها أذى. دنا شارل من المكتب وأخذ يفحص الأشياء المتروكة عليه: سلسلة المفاتيح وحافظة الأوراق التي اعتاد البارون تركهما كل ليلة. أفرغ شارل حافظة الأوراق، لتسقط شيكات مصرفية. ١٣ شيكًا بقيمة مئة فرنك. الإغراء كان أكبر من سريرة شارل الصادقة، وضع الشيكات في جيبه، أغلق حافظة الأوراق، غادر الغرفة والفندق وهرب إلى الحديقة.

تردد شارل بعد أن غادر بوابة الحديقة، لطمه الهواء الطلق، فأعاد له رشده، أدرك بشاعة الفعل الذي ارتكبه، توقف وقد انتابه رعب حقيقي. في الآن ذاته مرت عربة، صرخ شارل مناديًا:

- يا رجل، اذهب سريعًا إلى مركز الشرطة وأحضِر المفوض.. هناك رجل مقتول.

لجم الرجل حصانه ليسير بأسرع ما يمكن، حين قرر شارل العودة فوجئ أن البوابة مغلقة، لقد أغلقها وهو يغادر. لا يمكنه أن يفتحها من الخارج، ولا فائدة من قرع الجرس، فلا أحد في الداخل ليأتي ويفتح له. أخذ شارل يتجول في الحديقة الخارجية للفندق، ينظر بفخر إلى الشجيرات الساحرة التي تحف سور الفندق، إلى أن جاء المفوض وبدأ شارل يقص عليه ملابسات الحادث، ثم وضع بين يديه الشيكات التي أخذها سابقًا من حافظة الأوراق.

في الآن نفسه استُدعِي صانع الأقفال، وبعد معاناة تمكن من فتح باب الحديقة، ومزلاج الفندق، صعد المفوض وشارل إلى الغرفة، ولعجب الصدمة كانت الغرفة مرتبة، وقطع الأثاث في أماكنها.

- أيها السيد، ألم تخبرنا أن فوضى كبيرة تعم الغرفة؟

تسمَّر شارل في مكانه عند عتبة الباب، لقد عاد كل شيء إلى مكانه، الطاولة المستديرة أُعيد وضعها بين النافذتين، الكراسي أُعيدت إلى مواضعها، والساعة وُضِعت مجددًا فوق المدفأة، أما المشعل الكريستالي فاختفى فتاته، قال شارل بحذر شديد:

- الجثة.. البارون.

- في الواقع، أريد أن أسألك: أين الضحية يا سيد شارل؟

دنا المفوض من المضجع، تحت الملاءة رقد الجنرال البارون دوترك مغطًّى بمعطفه الحربي المُزيَّن بوسام الشرف، وجهه هادئ كطفل نائم مغلق العينين!

تمتم شارل:

- لقد جاء أحدهم.

- كيف؟

- لا أعرف، ولكن جاء أحدهم في أثناء غيابي.. لقد تركت جثة الجنرال هنا مسجاة على الأرض، وإلى جوارها نصل فولاذي حاد، وعلى الطاولة منديل ملطخ بالدماء.. أين هذه الأغراض؟ لقد اختفت، حتمًا سرقها أحدهم.. هو ذاته الذي أعاد النظام للغرفة.

- حسنًا، مَن إذن؟

- القاتل بالطبع!

- ولكننا وجدنا الأبواب كلها مغلقة!

- ربما القاتل ما زال في الفندق.

- وغادر بعدما دلفنا؟ كيف؟ أنت تقول إنك لم تغادر الرصيف المقابل!

أطرق شارل يفكر، ثم أردف بتؤدة:

- في الواقع.. لم أذهب بعيدًا عن البوابة، ولكن...

قاطع المحقق الحديث، وسأل في اهتمام:

- أستميحك عذرًا، مَن آخر مَن رأيته بجوار البارون؟

- الآنسة أنطوانيت، التي تُعنَى به.

- أين هي؟

- لقد ذهبت إلى غرفتها فور اكتشفت الجثة، مضجعها خاوٍ، ربما استغلت غياب الأخت أوجست وغادرت هي الأخرى، لا يفاجئني فعلها على أي حال، هي جميلة.. وشابة.

- ولكن كيف غادرت؟

- عبر الباب!

- أنت تقول إنك أغلقت الأبواب كلها قبل أن تصعد إلى النوم.

- ربما غادرت قبل أن أغلق الأبواب!

- أتعتقد أن الجريمة حدثت بعد مغادرتها؟

- بالطبع.

لقد فتشت الشرطة الفندق رأسًا على عقب، العلية، والأدوار، والبهو، لا يوجد أي أثر للقاتل. كيف؟ وبأي طريقة؟ لا يمكن التكهن. ألم يخشَ أن يعود لموقع الجريمة فيصبح محل اشتباه؟ أسئلة طرحها الجمع ولم يجد لها إجابة!

حضر الطبيب الشرعي ليباشر عملية التشريح في السابعة مساءً، وبعد ساعة لحق به مدير الأمن السيد ديدو الذي أجرى جولة تفقدية رفقة النائب

العام، وقاضي التحقيق، بالطبع مقتل بارون ليس بالأمر الهين. ماج موقع الحادث بالمحققين والمفوضين ورجال الشرطة، كما حضر ابن أخ البارون وأفراد أسرته.

حين وصلت الأخت أوجست تم التحقيق معها، لم تكشف الجديد، لكنها استنكرت اختفاء أنطوانيت بارت، إنها تعرف الفتاة منذ اثني عشر يومًا، فتاة ذات شهادات رفيعة، ترفض أن تصدق أنها تركت مريضها دون عناية لتحظى بإجازة لمدة ليلة!

قال قاضي التحقيق:

- في هذه الحالة، بالتأكيد ستعود الآنسة أنطوانيت. ولكن لنعود إلى نفس النقطة، ماذا حدث لها؟

تدخَّل شارل معلقًا:

- أعتقد أن القاتل اختطف الآنسة أنطوانيت.

كانت نظرية شارل مقنعة، ومتسقة مع المعطيات، ولكن مدير الأمن السيد ديدو عارضها:

- اختُطِفت؟! في رأيي هذا أمر مستبعد.

- ليس فقط غير مستبعد، إنه يتعارض مع الحقائق والمعطيات، ونتائج التحقيقات، باختصار، إنه يتعارض مع الحقيقة كليًّا.

كان الصوت المتحدث حادًّا، فظًّا، متحديًا، التفت إليه السيد ديدو هاتفًا:

- جانيمار! هذا أنتَ، لم أرَك، متى جئت؟

- أنا هنا منذ ساعتين.

- أوصلت لحل قضية ورقة اليانصيب؟ السيدة الشقراء وأرسين لوبين؟

بخزي قال المحقق العجوز:

- لا يمكن الجزم أن لوبين له دخل بهذا الأمر، ولكن لنترك هذا الأمر، قضية ورقة اليانصيب هي جزء من الماضي الآن، نحن أمام قضية أكبر.

لم يكن جانيمار من المحققين البارزين في التاريخ أمثال شرلوك هولمز، ولكنه يملك جودة متوسطة، قدرة على الملاحظة لا بأس بها، ومثابرة للوصول إلى الحل، كان جدير بعمله، ويسعى جاهدًا للحفاظ على منصبه؛ لذا لم يكن محط انتباه أرسين لوبين، الذي يفضل أن يمارس ألاعيبه على محققين أكثر ألمعية.

- في البدء، أود أن أسأل السيد تشار أن يؤكد لنا هذه النقطة: كل الأشياء التي رأيتها الآن، أُعيدت إلى ذات موضعها المعتاد؟

- أجل.

- لذلك من الجلي أن الشخص الذي أعادهم إلى موضعهم المعتاد على دراية جيدة بالمكان.

دُهِش الحضور باستنتاج جانيمار، الذي أردف:

- سؤال آخر: سيد شارل، لقد استيقظت بسبب صوت الجرس؛ برأيك مَن القارع؟

- البارون بلا شك!

- حسنًا، ولكن متى قُرِع الجرس؟

- بعد العراك.. في لحظة الموت.

- مستحيل؛ لأنك وجدته مُلقًى دون حراك في موقع يبعد عن الجرس بأكثر من أربعة أمتار، لا يمكن أن يترنح كل هذه المسافة.

- حسنًا، ربما قرعه في أثناء العراك.

- هذا أيضًا مستحيل؛ لأنك قد ذكرت أن رنين الجرس استمر دون توقُّف لمدة سبع أو ثماني ثوانٍ. أتظن أن المعتدي سيمنحه رفاهية الوقت ليقرع الجرس كل هذه المدة؟

- قبل؟ في اللحظة التي هُجِم فيها؟

- مستحيل! لقد أخبرتنا أن الوقت بين سماعك للجرس واقتحامك للغرفة لم يتعدَّ ثلاث دقائق، لو قرع البارون الجرس قبل الهجوم ما وجد القاتل الوقت ليقتل ويفر في غضون ثلاث دقائق، هذا محض خيال.

تدخَّل قاضي التحقيقات قائلًا:

- ولكن هذه الفرضيات لا تنفي أن الجرس قد قُرِع، إذا لم يكن البارون، مَن قرعه؟

- القاتل.

- وما دافعه؟

- لا يهمني الدافع، ولكن ما يهم أن القارع يعرف جيدًا أن هذا الجرس يدق في غرفة رئيس الخدم، وإلا مَن يعرف هذه المعلومة غير شخص يقطن في المنزل ذاته؟

أسئلة جانيمار الرشيقة، الموجهة، الدقيقة، أخذت تزيل الستار عن الحقيقة المحتملة، ولكن الهمهمات الخافتة أبت أن تفصح عنها، حتى تساءل قاضي التحقيق:

- إذن، تود أن ترجح أن أنطوانيت مشتبه بها.

- لا أشتبه في أنطوانيت، إنني أتهمها.

- تتهمها بالتواطؤ في قتل البارون؟

- أتهمها بقتل الجنرال البارون دوترك.

- وما دليلك؟

- خصلة الشعر هذه، لقد وجدتها في يد الضحية، وعلى جسده علامات لخدش أظافر نسائية.

أظهر جانيمار الخصلة إلى القاضي، كانت خصلة شعر شقراء، لامعة كرقائق الذهب، تمتم شارل:

- هذه بالتأكيد خصلة شعر من الآنسة أنطوانيت. لا يمكنني أن أخطأ.

صمت لوهلة، ثم أردف متذكرًا:

- هناك أمر آخر. إذن السكين الذي رأيته هنا.. والذي اختفى حين دلفنا للمرة الثانية. سكين كانت تستخدمه في الفصل بين صفحات الكتب الملتصقة.

ساد صمت ثقيل، كان من العسير أن يصدق أحد أن القاتل امرأة. قال القاضي كاسرًا حاجز الصمت:

- نحتاج لمزيد من التفاصيل لنثبت أن أنطوانيت قتلت البارون. كما نحتاج لتوضيح، كيف غادرت قبل الجريمة، ثم عادت وغادرت قبل وصول المفوض. ألديك تفسير لهذا الخلط يا سيد جانيمار؟

- لا.

- إذن لا يمكن الجزم بشيء.

شعر جانيمار بالحرج، فأردف:

- كل ما أود قوله إنني أجد تشابهًا بين هذه القضية، وقضية ورقة اليانصيب، ذات الظاهرة تتكرر: الاختفاء دون وسيلة ممكنة. أنطوانيت، ظهرت واختفت من الفندق بذات الطريقة الغامضة التي ظهر واختفى بها أرسين لوبين في بيت السيد ديتنان رفقة السيدة الشقراء.

- وهذا يوضح...

- لا يمكنني التفكير في مصادفة تتكرر مرتين لاختفاء أو هرب دون وسيلة مقنعة. لقد بدأت أنطوانيت عملها منذ ١٢ يومًا؛ أي بعد يوم من اختفاء السيدة الشقراء. وهناك أيضًا هذه الخصلة الشقراء، من العسير أن تجد نفس درجة اللون الصارخ هذا.

- أتريد القول إن أنطوانيت هي...

- لا أحد غير السيدة الشقراء.

- وبالتالي، لوبين هو المخطط للعمليتين؟

- أعتقد هذا.

قطعت ضحكة مدير الأمن المستهزئة الحديث، وقال:

- لوبين مرة أخرى؟ كل شيء عن لوبين! كل شيء بسبب لوبين!

تحرك ديدو في أرجاء الغرفة يفحصها بعناية:

- هناك أمر غامض في هذه الغرفة. على سبيل المثال، هذا المكتب لم يُمَس، وكذلك حافظة الأوراق لم تُسرَق. هذا الخاتم الذهبي كيف للقاتل أن يتركه؟

- معك حق، ولكن ماذا عن الماسة الشهيرة؟

- أي ماسة؟

- الماسة الزرقاء! الماسة الشهيرة التي رصعت التاج الملكي الفرنسي، والتي أهداها الدوق ـالذي تعرف مَنـ إلى الكوميديان لونيد، وبعد موت ليونيد اشتراها البارون دوترك ليحتفظ بذكرى الكوميديان الذي أحبه بشدة. إنها من الذكريات الحية، لا ينساها الباريسيون قط.

قال قاضي التحقيق:

- لو اكتشفنا سرقة الماسة سنعرف دافع القتل، ولكن أين نبحث عنها؟

تدخَّل شارل قائلًا:

- الماسة لم تغادر يد البارون اليسرى.

اقترب جانيمار من الجثة وأردف:

- لقد تحققت من هذه اليد، ويمكنني أن أؤكد لكم مرة أخرى أن خاتمًا ذهبيًّا هو كل ما يزينها.

قال شارل:

- أرجوك تأكد مرة أخرى!

بسط جانيمار أصابع البارون المتقلصة، كانت الماسة الزرقاء تتوسط كفه. تمتم جانيمار:

- شيء عجيب! لا أفهم شيئًا مما يحدث!

قال ديدو متهكمًا:

- أتمنى أنك تخليت عن شكك في المسكين لوبين؟

استغرق جانيمار وهلة يفكر، ثم قال بحذر:

- بالتأكيد آن الوقت لكي لا أشتبه في أرسين لوبين.

كانت التصريحات الأولى للمحققين في اليوم التالي مخيبة للآمال، تصريحات غامضة، غير متسقة، تتسم بالشك وعدم اليقين. مجيء ورحيل أنطوانيت أصبح غامضًا ولا تفسير له، تمامًا مثل السيدة الشقراء في منزل ديتنان. لا شك أن الغموض الأكبر غشى خصلة الشعر الذهبية التي استقرت بين أصابع البارون، وصاحبتها المجهولة التي تركت خصلة شعرها ولم تسرق ماسة التاج الفرنسي البهية.

كل هذا الغموض أثار فضول الرأي العام، وأصبحت الجريمة شغله الشاغل.

استفاد ورثة البارون من هذه الحالة العامة، ونظموا في فندق شارع هنري مارتن معرضًا لممتلكات البارون، أثاث عصري، وآخر من الدرجة الثانية، أغراض غير ذات قيمة فنية. ولكن في صدر المعرض وعلى مقعد مخملي كانت الماسة الزرقاء، تحرسها كرة زجاجية وحارسان منتبهان للغادي والرائح.

تفردت الماسة بحجمها الضخم، ونقائها الفريد، وزرقتها التي تشبه ماء النبع الرقراق، شاهدها الناس بإعجاب، بينما الرهبة تملكتهم وهم يزورون غرفة الضحية، موطئ سقوطه، الأرضية بعدما جُرِّدت من السجاد الملطخ بدمائه، الحيطان التي بالتأكيد لا تصلح لنفاذ القاتلة هاربة منها، المدفأة التي لم يظهر فيها أي آثار حفر أو فوهة نفق، وبالتأكيد لا تتصل بأي سرداب يساعد على الهرب من الغرفة.

أُقِيم المزاد على بيع الماسة الزرقاء في الفندق، كان الزحام خانق والمزايدات مرتفعة حد الجنون. أتى محبي المزادات من كل حدب وصوب، كل مَن يرغب في شراء الماسة، وكل مَن يعتقد أنه قادر على شرائها، فنانين، سيدات مجتمع من كافة أرجاء العالم، وزيرَين، شخصية إيطالية شهيرة، ملك مَنفيّ يظن أن شراء الماسة سيُحسِّن من وضعه الاجتماعي، فبدأ المزاد بصوت ثابت وثقة متوازنة إلى مئة ألف فرنك! في الواقع هو قادر على تقديم المزيد، ولكن الإيطالي المرموق غامر بالمزايدة بمئة وخمسين، وأضاف عليهم رجل أعمال فرنسي خمسة عشر ألفًا.

حين وصل المزاد إلى مئتَي ألف، تراجع الهواة، وعند مبلغ مئتي وخمسين ألفًا انحصر المزاد بين اثنين: إرشمان، رجل الأعمال الشهير، وملك مناجم الذهب، والكونتيسة دي كروزون الأمريكية فاحشة الثراء التي تملك مجموعة فريدة من الماسات والأحجار الكريمة النادرة، صدح صوت مدير المزاد:

- مئتان وستون ألفًا. مئتان وسبعون ألفًا. وخمس وسبعون. وثمانون.. وثمانون. الكونتيسة تزايد بمئتين وثمانين ألفًا. هل من مزيد؟

زايد إرشمان إلى ثلاثمئة ألف، وعم الصمت، التفتت الأنظار إلى الكونتيسة المبتسمة، ابتسامة لم تحجب شحوب وجهها المنذر بوقوعها في أزمة، تطلعت الكونتيسة إلى الكرسي المقابل لها، تبحث في أوراقها عن مساعدة.

في الواقع كانت تعرف ـومساعدوها أيضًاـ أنها غير قادرة على مجابهة الرجل الذي تبلغ حجم ثورته نصف المليار، ولكنها زايدت:

- ثلاثمئة وخمسة آلاف.

الصمت مجددًا. الآن دور ملك مناجم الذهب، مزايدته على عطاء الكونتيسة أمر حتمي. كان على يقين أنها خصم عنيد لن يتخلص منه بسهولة. بأعين باردة، نظر إلى الورقة في يده اليمنى، ومزقها إلى أجزاء. صدح صوت مدير المزاد كاسرًا الصمت:

- ثلاثمئة وخمسة آلاف.. واحد. اثنان. ما زال الوقت متاح للمزايدة.. أكرر.. واحد.. اثنان.. ثلا...

أبى إرشمان أن يُهزَم؛ فهوى بمزايدته كالمطرقة.

- أربعمئة ألف.

ولكن الأوان قد فات، لقد رسى المزاد على الكونتيسة. تسارع الناس حوله يتساءلون ماذا حدث؟! ماذا آخره عن مزايدته المتوقعة؟ لماذا لم يتحدث مبكرًا قبل أن يُغلَق الرهان؟!

- لا أعرف ما حدث! انتابتني لحظة شرود.

تساءل أحدهم:

- أيُعقَل ما تقوله؟! تُشرَّد في هذه اللحظة!

- بلى.. لقد شُرِّدت في رسالة سلمها لي أحدهما.

- ما زالت معك؟

- للأسف..

جانيمار كان هناك، لقد شاء أن يحضر مزاد الخاتم المرصع بالماسة الزرقاء، اقترب من أحد الخدم وسأله في هدوء:

- أظن أنك مَن سلمت الرسالة للسيد إرشمان؟

- بلى.

- مَن منحك إياها؟

- سيدة لا أعرفها.

- أين هي؟

مرت لحظة نظر الخادم إلى الحضور بحثًا عنها، ثم أردف:

- هاهي سيدي.. هذه السيدة التي ترتدي فستانًا بنفسجيًّا.

في اضطراب تساءل جانيمار:

- التي على وشك الرحيل؟

- بلى.

هرع جانيمار نحو مدخل البهو، كانت السيدة قد غادرت بالفعل الفندق وتهبط السلالم نحو الشارع، ركض.. لكن جمْع من الناس المتزاحمين قرب المدخل منعه من اللحاق بها، حين وصل أخيرًا إلى الشارع كانت قد اختفت.

عاد خائب الأمل إلى الداخل، ذهب إلى إرشمان واستجوبه عن الرسالة، ولكن إرشمان أبدى تعاونًا كبيرًا ومنحها إياه، فض جانيمار الرسالة التي أفضى خطها العجول عنه بضع كلمات بسيطة:

«الماسة الزرقاء تجلب الحظ السيئ. ألم تسمعوا بالبارون دوترك؟».

☆ ☆ ☆

ربما هجرت الماسة الزرقاء البارون دوترك، ورحلت من فندق دورو، ولكنها بعد مرور ستة أشهر، وتحديدًا في الصيف التالي لحادثة قتل البارون، سُرِقت الجوهرة الغالية من الكونتيسة دي كروزون التي تكبدت الغالي والنفيس لتظفر بها.

أفضت هذه القضية الغريبة عن مغامرة أخرى مُثيرة ودرامية، حاولنا أن نلقي عليها الضوء، ونحاول فك لغزها.

في مساء العاشر من أغسطس، وعلى ألحان الموسيقى الهادئة، كان الكونت والكونتيسة دي كروزون مجتمعين مع ضيوفهم في منزلهم الصيفي البديع المطل على خليج سوم، جلست الكونتيسة تعزف على البيانو، وعلى طاولة صغيرة وضعت مجوهراتها لتتمكن من الاندماج مع المعزوفة. بين هذه المجوهرات كان خاتم الماسة الزرقاء.

بعد ساعة من العزف، استأذن الكونت ليغادر رفقة أبناء عمومته سادة داندل، والسيدة دي ريل، صديقة الكونتيسة المقربة. واستمرت الجلسة بين الكونتيسة والسيد بليشين القنصل النمساوي وزوجته. حين فرغوا من سمرهم، أطفأت الكونتيسة قنديلًا كبيرًا وُضِع فوق طاولة البهو، بينما اتجه السيد بليشين ليُطفئ قنديلين صغيرين وُضِعا فوق البيانو. مرت لحظة غامضة، غشاها الظلام، ثم أشعل القنصل شمعة تُضيء لهم طريق العودة إلى غرفهم.

بعدما صعدت الكونتيسة إلى الغرفة تذكرت مجوهراتها التي لا تزال على الطاولة الصغيرة، فأمرت مساعدتها بالذهاب والبحث عنهم في البهو. لم تمر دقائق حتى عادت المساعدة ووضعت المجوهرات على رخام المدفأة، دون أن تتفقدهم سيدتها. جاءت الصدمة في صباح اليوم التالي، حين اكتشفت الكونتيسة فُقدان قطعة من مجوهراتها. خاتم الماسة الزرقاء!

حين أخبرت زوجها بدءا في التشاور: لقد غادر الكونت داندل والسيدة دي ريل قبل أن تغادر الكونتيسة بهو المنزل، المساعدة فوق مستوى الشبهات، إذن المذنب لا يمكن أن يكون سوى السيد بليشين.

أبلغ الكونت المفوض الأول بمدينة آمينس، والذي بدأ تحقيقًا موسعًا، حرص على أن يتم في هدوء لكي لا يلاحظ القنصل ويبيع الخاتم، أو يهربه خارج البلاد. استمرت المراقبة صباحًا ومساءً، لأيام طويلة، تطوق القصر.

مر أسبوعان دون أدنى دليل على تورط السيد بليشين، إلى أن أعلن السيد رغبته في الرحيل، لم يجد الكونت دي كروزون بُدًّا من تقديم شكوى رسمية ضد السيد بليشين، وأصدر المفوض أمرًا رسميًّا بتفتيش متاع القنصل. في حقيبة صغيرة لا يغادر مفتاحها جيب القنصل، وُجِدت قارورة مسحوق صابون فارغة، في هذه القارورة خُبِّئ الخاتم! فقدت السيدة بليشين الوعي فورما عرفت بالقبض على زوجها.

بدأت التحقيقات باستدعاء محامٍ للدفاع عن المتهم. لم يتمكن بليشين من تفسير ما حدث، لا يعرف سبب وجود هذا الخاتم في حقائبه، ولكن تفسيره البسيط كان اتهام الكونت بتدبير هذه المكيدة:

- الكونت شخص وحشي، لقد سبَّب ألمًا كبيرًا لزوجته. أنا أملك علاقة وطيدة معها وأعرف أنها تفكر جديًّا في الحصول على الطلاق. حين عرف الكونت ربما أراد الانتقام بسرعة لذلك فكر في سرقة الخاتم ووضعه في متاعي، ربما كان يخطط قبل مغادرتي باستعادته وإلقائه في أحد المراحيض.

دفعت أقاويل بليشين الكونت وزوجته إلى التنازل عن دعوته؛ حفاظًا على ما تبقى من ماء الوجه، فما أدلى به القنصل قد يضع الكونت محل الشك، كل شيء أصبح محتملًا الآن، وعلى الرأي العام الاختيار بين السيناريوهات المطروحة.

مر شهر من التكهنات، والبحث عن الخاتم، دون تحقيق اليقين؛ مما أزعج الكونت وزوجه، الحل الوحيد هو البحث عن شخص قادر على إيجاد دليل قاطع، لقد أرسلا في طلب محقق من باريس، قادر على إيجاد إبرة في كومة قش. لقد أرسلا في طلب جانيمار.

على مدار ٤ أيام، مشط المحقق العجوز الحديقة، وأجرى مقابلات طويلة مع الخدم، والسائق، والبستاني، وموظفي مكاتب البريد القريب، وزار الجناح الذي مكث فيه السيد بليشين، وأبناء العم السيد داندل والسيد دي ريل. ذات صباح، اختفى جانيمار دون أن يطلب عطلة من الكونت أو يبلغه بسبب اختفائه.

بعد أسبوع وصلهم هذا التلغراف:

«أرجو منكما الحضور غدًا الجمعة، في الخامسة مساءً، شارع بوساي دانجل، مقهى تاي جابوناي.

جانيمار».

في تمام الخامسة من هذه الجمعة، توقفت سيارة الكونت وزوجه أمام المبنى رقم ٩ شارع بوساي دانجل. هناك كان جانيمار ينتظرهما، ودون أن ينبس ببنت شفة قادهما إلى الطابق الأول من المقهى. حين وصلا إلى إحدى الطاولات قدمهم جانيمار إلى شخصين:

- السيد جربو، أستاذ في مدرسة فيرساي، والذي، ربما تعرفون حكايته من قبل، سرق أرسين لوبين منه نصف مليون فرنك. هذا السيد ليونس دوترك، وريث البارون الشرعي وابن أخيه.

تبادلوا التحية ومرت بضع دقائق سادها صمت ثقيل، ثم حضر شخص خامس، مدير الأمن السيد ديدو، الذي ألقى عليهم التحية، وقال بحس فكاهة لاذع:

- ماذا هناك يا جانيمار! لقد أدهشني تحليلك الذي أبلغتني إياه عبر الهاتف، هل أنت جاد فيما تقول؟

- للغاية يا سيدي، بعد ساعة من الآن سيحضر الشخص السادس الذي بنيت عليه كل الفرضيات، وتُحَل هذه المعضلة؛ لهذا وجدت أن حضورك لا غنى عنه.

- وحضور ديزي وفولانفان؟ لقد رأيتهم بالقرب من الباب.

- ضروري أيضًا يا سيدي.

- ماذا سيحدث؟ أستلقي القبض على أحدهم؟ يا له من مشهد! حسنًا جانيمار، نحن جميعًا في انتظار كلمتك.

تردد جانيمار للحظات، ثم زفر وبدأ في الحديث:

- في البداية أود التأكيد أن السيد بليشين لا علاقة له بسرقة الخاتم.

عقد ديدو حاجبيه في دهشة مصطنعة:

- يا له من تأكيد بسيط.. وخطير للغاية!

سأل الكونت:

- أهذا كل ما أفضت إليه جهودك؟

- لا يا سيدي، في اليوم الذي تلى يوم السرقة، ذهب ثلاثة إلى بورج دي كِرسَاي. اثنان زارا موقع معركة شامب الشهير، والثالث عاد إلى مكتب البريد وأرسل طردًا، صندوقًا صغيرًا مغلقًا بعناية.

اعترض الكونت:

- لقد حدث كل ما قصصته، ولكني لا أجد شيئًا مما حدث غير طبيعي!

- هذا ما يبدو لك، ولكن ربما سيتغير رأيك حين تعرف أن الشخص الذي أرسل

الطرد أرسله باسم روسو، إلى السيد بيلو في باريس، الذي تسلم الطرد في اليوم ذاته، دعنا نقل الخاتم.

- إذن أنت تتهم أحد أبناء عمومتي؟

- لا.

- السيدة دي ريل؟

- بلى.

ندت عن الكونتيسة صرخة فَزِعة، وقالت في جزع:

- أنت تتهم صديقتي؟

- سأطرح عليكِ سؤالًا بسيطًا سيدتي، هل حضرت السيد دي ريل مزاد الماسة الزرقاء؟

- بلى، كانت من المزايدين. لم نذهب كصديقات.

- هل أكدت عليكِ ضرورة شراء الخاتم؟

صمتت الكونتيسة لبرهة تتذكر:

- بلى، في الواقع.. أعتقد أنها أول مَن أخبرني بشأن المزاد.

- سأضع تعليقك هذا في عين الاعتبار سيدتي.

- في هذا الآن.. لم تكن صديقتي.

- عذرًا على مقاطعتك، ولكنني أعتقد أن السيدة دي ريل لم تكن صديقة مقربة كما نشرت الصحف، والذي دفع الناس لاستبعادها من قائمة المشتبه بهم. أنتِ لم تلتق بها سوى هذا الشتاء. وعليه؛ فإنني أوضح لكم أن كل ما أخبرتكم به عن نفسها، عن ماضيها، عن علاقاتها، هو محض خيال، وأن السيدة بلانش دي ريل لم يكن بها وجودك قبل أن تقابلكم، وأنها لم تعد موجودة اليوم.

- وهذا يوضح؟

اندهش جانيمار من استنكار الكونتيسة، التي أتمت حديثها قائلة:

- هذه القصة مثيرة للاهتمام، ولكن ما علاقتها بقضيتنا؟ في حالة أنها مَن سرقت الخاتم؛ رغم أننا لا نملك دليلًا قاطعًا على ذلك، ولكن إذا فرضنا هذا الاتهام لِمَ تُخبئ الخاتم في أغراض السيد بيلشين؟ يا لها من حماقة! لِمَ تحاول تهريب الخاتم؟ الأفضل أن تحتفظ به. ألديك تفسير لهذا الأمر؟

- لا، ولكن السيدة دي ريل تملك تفسيرًا.

- إذن السيدة لها وجود؟

- بلى، ولكنها ليست السيدة دي ريل. اسمعوني جيدًا، منذ ٣ أيام وأنا أقرأ الجريدة كما اعتدت، قرأت اسم السيدة دي ريل على رأس قائمة الأجانب المقيمين في فندق بوريفاج في منطقة تروفاي. الآن تفهمون أنها ذات الليلة التي سافرت فيها إلى تروفاي، كنت أستجوب مدير الفندق لأصل لأي دليل.

صمت جانيمار ليتأكد من جذب اهتمام الجميع إليه، وبدأ يقص ما تبقى من مغامرته:

- وفقًا للأوصاف التي أدلى بها المدير وبعض الحقائق الأخرى التي جمعتها تأكدت أن السيدة دي ريل هي التي أبحث عنها، ولكنها لسوء حظي قد غادرت الفندق وتركت عنوانها في باريس، ٣ شارع دو كوليسا. أول أمس حضرت إلى هذا العنوان، ووجدت السيدة دي ريل تعمل وسيطًا في بيع الماسات وتغيب غالبًا عن المنزل. لحسن حظي قد وصلت ليلة أمس من سفرها، وفي المساء طرقت بابها وعرضت عليها خدماتي كوسيط بينها وبين بعض البارونات الذين يبتاعون الأحجار الكريمة. اليوم سنقابل هذه المرأة هنا لنفضح أمرها معًا.

- كيف! أنحن هنا في انتظارها؟

- بلى، في الخامسة والنصف.

- أنتَ متأكد مما تفعل؟

- مَن السيدة دي ريل؟ سأدحض كافة ادعاءات هذه المحتالة.

قطع صوت صفير حديث جانيمار؛ فأنصت باهتمام قائلًا:

- اسمعوا! إنها إشارة فولانفان.. لم يعد هناك وقت لنضيعه. سيدي الكونت، سيدتي الكونتيسة، اسمحوا لي أن أنتقل إلى الطاولة المجاورة. سأطلب من السيد أوترس والسيد جربو معروفًا، اجلسا بالقرب من الباب وعند إشارتي أرجو منكما التدخل. سيدي رئيس الشرطة، استرِح سأتولى الأمر.

تساءل السيد ديدو:

- وإذا جاء زوار آخرون للمقهى ماذا سنفعل؟

- لا أظن، هذا المقهى تم افتتاحه منذ بضعة أيام، ولديَّ أصدقاء مشتركون مع المدير الذي لن يسمح لأحد أن يدلف؛ عدا السيدة الشقراء.

- السيدة الشقراء! ماذا تقول؟؟

- سيدي الرئيس، السيدة الشقراء شريكة أرسين لوبين الغامضة، التي أصبحت أملك ضدها أدلة قاطعة بتورطها، كما أصبحت أملك شهودًا على ما سرقته.

اقترب جانيمار من النافذة:

- إنها تقترب.. دلفت.. فولانفان وديزي يحرسان الباب.. السيدة الشقراء أصبحت في قبضتنا سيدي.

مرت لحظات ودلفت إلى الطابق سيدة نحيفة، شاحبة، شعرها الذهبي صاخب كأشعة شمس الظهيرة، أخرست السعادة جانيمار الذي لم يصدق أنها تقف هنا أمامها، في قبضة العدالة!

يا له من انتصار على أرسين لوبين! يا له من انتقام! لوهلة خشي من هذا الانتصار السهل، ربما هي خدعة، وستهرب السيدة الشقراء من بين يديه بلعبة من ألاعيب لوبين التي يعرفها.

عَلَت الدهشة ملامح الشقراء، والتزمت الصمت وهي تنظر حولها دون أن تخفي قلقها العارم، فكر جانيمار للحظات أنها ستغادر فورًا إذا لم يتحرك، عليه التحرك وإلا ستختفي مرة أخرى، فقفز من فوق مقعده وحال بينها وبين الباب الذي حاولت أن تغادر عبره قائلًا:

- لا، لن تفعليها هذه المرة، لِمَ تبتعدي؟

- ماذا تفعل؟! اتركني أذهب أيها السيد!

- لا أملك أي سببٍ يدفعني لتركك تذهبين سيدتي، ولكن على العكس أملك آلاف الأسباب لأحول بينك وبين الهرب.

- ولكن...

- لن يفيدك أي كلام. لن تغادري هذا المكان.

شحبت المرأة من فرط خوفها من تصرفات جانيمار الغريبة، وسألته بصوت مضطرب خفيض:

- ماذا تريد؟

تحدث جانيمار بصوت ملأته نبرة النشوة والانتصار:

- اسمحي لي أن أقدم لكِ الصديق الذي أخبرتك عنه، يريد شراء الماسات والمجوهرات بالطبع. هل يمكن أن تبيعيه ما تملكين كما اتفقنا؟

- لا.. لا، أنا لا أفهم عما تتحدث. لا أذكر شيئًا من اتفاقنا.

- ولكن فكري مجددًا، سألتك إذا كنت تعرفين شخصًا يملك ماسة نادرة وجاوبتني: «كالماسة الزرقاء؟» فأخبرتك أنها بالتحديد ما أريده. ألا تذكرين؟

أصاب السيدة توتر شديد حتى إن حقيبة يدها الصغيرة انزلقت من بين أصابعها، انحنت لتلتقطها مسرعة وأخذت تفرك يدها محاولة أن تسيطر على الرعشة التي اعترت أصابعها. قال جانيمار:

- حسنًا، أرى أنكِ لا تثقين بنا.. سيدة دي ريل، سأطرح عليكِ مثالًا جيدًا يوضح

لكِ ما في جعبتي من حيل.

أخرج جانيمار ورقة مطوية من حافظة أوراقه، وأخذ يكشف عما طُوِي داخلها، حتى بدت خصلة شعر ذهبية، ثم أردف:

- إليكِ خصلة من شعر أنطوانيت، نزعها البارون في أثناء مقاومته لها قبل وفاته وظلت بين أصابعه التي فارقتها الحياة. لقد عرضتها على الآنسة سوزان جربو، وتعرفت بدقة هذا اللون النادر مؤكدة أنها خصلة من شعر السيدة الشقراء.. هذا اللون النادر الذي لعجب الصدفة يشبه تمامًا لون شعرك!

وشت ملامح السيدة بجهل حقيقي بكل ما يتلفظ به جانيمار، ولكنه استمر في حماس يقص ما توصل إليه من اكتشاف عظيم:

- إليكِ دليل آخر.. تلك الزجاجتان الفارغتان ومع ذلك ما زالت رائحة العطر تنضح منهما، لقد تعرفت الآنسة جربو هذه الرائحة، إنه عطر السيدة الشقراء التي حرصت على التطيب به في أثناء رحلتهما التي استغرقت أسبوعين، أما إحدى الزجاجات وجدتها في غرفة السيدة دي ريل في قصر آل كروزون، والأخرى في الغرفة التي سكنتها السيدة الشقراء في فندق بوريفاج.

- سيدي، لا أفهم شيئًا مما تلفظه! مَن السيدة الشقراء؟! وآل كروزون؟!

وضع المحقق على الطاولة أربع وريقات دون أن يجيب السيدة، واستكمل حديثه:

- وأخيرًا.. إليكِ تلك الوريقات الأربع، نموذج من خط أنطوانيت، وآخر بخط السيدة الشقراء كتبته للبارون إرشمان، هذا للسيدة دي ريل في أثناء إقامتها في قصر آل كروزون، والرابع.. خطك أنتِ سيدتي.. ورقة دونتِ عليها عنوانك واسمك ومنحتيها لموظف الاستقبال في فندق البوريفاج. أرجو أن تقارني الكتابات الأربع، متطابقة تمامًا.

- أنت مجنون يا سيدي! ما مآربك من هذا الحديث؟

- حديثي يؤكد يا سيدتي أن السيدة الشقراء شريكة أرسين لوبين هي أنتِ.

أزاح جانيمار الستار الحائل بين طاولته وطاولة جربو والبقية، وجذب جربو قائلًا:

- سيد جربو، هل هذه السيدة هي التي اصطبحت ابنتك، وقابلتها عند المحامي ديتنان؟

- لا.

ماجت الأرض تحت أقدام جانيمار، وتمتم في دهشة:

- لا! أيمكن.. أرجوك.. تمعن في التفكير..

- أنا متأكد.. السيدة شقراء مثلها.. شاحبة كبشرتها، ولكنها ليست السيدة التي اصطحبت ابنتي.. ليست هي على الاطلاق.

- لا أعتقد أن هذا الخطأ مقبول.. لا يمكن أن يحدث.. سيد أوترس أليست هذه السيدة هي أنطوانيت؟

- لقد رأيت أنطوانيت أكثر من مرة عند عمي.. لا، ليست أنطوانيت.

قالت الكونتيسة قبل أن تُسأَل:

- هذه السيدة قطعًا ليست السيدة دي ريل.

لقد صعق القدر جانيمار، وأحس بالرؤية تتلاشى من حوله، كل شيء يتهاوى، حتى رأسه ما عاد قادرًا على حمله، زاغ بصره كالمقبل على الموت، أين ذهبت كل تخيلاته؟ هوت الآمال فوق رأسه فسحقته.. نهض السيد ديدو واتجه بحديثه إلى السيدة:

- أرجو أن تعذرينا سيدتي، لقد حدث خطأ غير مقصود أرجو أن تتناسيه. ألوم عليكِ تصرفاتك المثيرة للريبة التي زادت من الوضع سوءًا منذ دلفتِ إلى هنا.

- أي لوم يا سيدي! لقد انتابني الذعر.. أملك في حقيبتي مجوهرات قيمتها مئة ألف فرنك.. والطريقة التي تصرف بها صديقك لم تُوحِ بكثير من الأمان.

- وما سر اختفائك الدائم عن المنزل؟

- السفر هو ما تقتضيه مهنتي.

لم يملك السيد ديدو حُجة أمام حديثها المنطقي، والتفت إلى جانيمار مُعنِّفًا:

- لقد حصلت على معلوماتك باستخفاف مؤسف يا جانيمار، قادك تحقيقك التافه إلى سيدة لا شأن لها بالأمر. سأحتاج إلى توضيح عاجل على مكتبي.

انتهى اللقاء، غادر مدير الأمن، واقتربت السيدة دي ريل من جانيمار قائلة:

- تُدعَى جانيمار، أليس كذلك؟

- بلى.

- حسنًا، هذه الرسالة إليك.. لقد وصلتني هذا الصباح معنونة: «إلى السيد جاستين جانيمار، في عناية السيدة دي ريل». فكرت أنها مزحة ولكن الآن وقد عرفت اسمك شعرت أن الراسل على علم بلقائنا اليوم، وأراد أن يوصل تلك الرسالة إليك من خلال...

على الفور فض جانيمار المظروف، وبدأ يقرأ:

«كان يا ما كان في ذات الزمان امرأة شقراء، ولوبين.. وجانيمار. سيحاول جانيمار البغيض إلحاق الضرر بالسيدة الشقراء الجميلة، وسيتصدى لوبين الطيب لهذا الأذى. لقد حرص لوبين على التقرب بين السيدة الشقراء والكونتيسة؛ لهذا منح الشقراء اسم السيدة دي ريل تاجرة المجوهرات الشقراء الشاحبة. وفكر لوبين: «لو تتبع جانيمار درب السيدة الشقراء لن

ينحرف كثيرًا عن الوصول لتاجرة المجوهرات!». أرسِلت رسالة قصيرة إلى جانيمار، ونسـت ـعن عمدـ السيدة الشقراء ـالأصليةـ زجاجة عطر في فندق بوريفاج، ثم تركت رسالة فيها عنوان واسم السيدة دي ريل. ما رأيك يا جانيمار؟ لقد رسمت لك المغامرة كاملة، ومعها حلمك الساذج بالقبض على السيدة الشقراء، في الواقع تسليت كثيرًا لا أعرف إن كنت تضحك الآن أم لا!

أبلغك جزيل شكري يا صديقي العزيز، والتحية للسيد ديدو.

أرسين لوبين».

صاح جانيمار مضطربًا:

- كيف! إنه يعرف أشياء لم أخبرها لأحد! كيف عرف يا سيدي أنني سأدعوك إلى هنا؟ كيف عرف أنني وجدت قنينة العطر الأولى؟ كيف يعرف كل هذا؟!

مزق جانيمار خصيلات الشعر الذهبية والتي ظنها دليله نحو الحل، وجلس كخرقة بالية إلى أحد المقاعد حتى رثا ديدو حاله وأخبره وهو يغادر رفقة السيدة دي ريل:

- تمالك يا جانيمار.. ربما نحكم قبضتنا عليه في يومٍ آخر.

مرت دقائق عشر غاب فيها جانيمار عن الواقع، بينما الكونت وزجه يتناقشان في أمر بدا هامًّا على ملامحهما مع السيد أوترس والسيد جربو، في النهاية بادر الكونت:

- عزيز السيد جانيمار، ربما ما وصلنا إليه ليس بهذا السوء؛ على الأقل نحن تقدمنا عن الماضي.

- اعذرني سيدي الكونت، اعتمد تحقيقي على السيدة الشقراء كبطلة لا جدال عليها لكل المغامرات التي يقودها لوبين، لم أقدم الشيء المفيد.

- مع ذلك إسهامات لم تكن دون جدوى، المشكلة ربما أكثر غموضًا من ظننا. السيدة الشقراء حاولت أن تسرق الماسة لصالح شخص آخر.

- عدت لا أعرف شيئًا.

- معك حق.. ولكن ربما هناك مَن يمكنه أن يعرف.

- ماذا تريد أن تقول؟

تعثرت الكلمات على شفتَي الكونت، فأكملت الكونتيسة الحديث:

- هناك رجل، يعمل منفردًا مثلك، سيكون قادرًا على مجابهة لوبين وإخضاعه. سيد جانيمار، ألا تظن أننا أصبحنا في حاجة لعون شرلوك هولمز؟

بدا الضيق والانزعاج واضحين على محيا جانيمار؛ رغم محاولاته لإخفائهما:

- لا أعلم.

- انظر، هذه الألغاز ستقودني حتمًا للجنون. أريد أن أرى الصورة واضحة، وهذا ما اتفقنا عليه مع السيد جربو والسيد أوتريس، جميعنا لدينا نفس المآرب لهذا اتفقنا على مراسلة المحقق الإنجليزي الشهير.

- معكم حق يا سيدتي، لم يعد جانيمار العجوز قادرًا على مجابهة أرسين لوبين. ولكن سينجح شرلوك هولمز؟ أتمنى.. أملك إعجابًا كبيرًا بهذا الرجل.. ولكنني أرى من غير المحتمل...

- من غير المحتمل أن ينجح؟

- هذا رأيي.. أرى أن منافسة بين أرسين لوبين وشرلوك هولمز محسومة مُسبقًا. سيُهزَم الإنجليزي لا محالة.

- على أي حال نود أن نعتمد عليك فيما توصلت إليه.

- هذا من دواعي سروري، كل إسهاماتي في هذه القضية بين يد الإنجليزي وقتما يشاء ودون أي تحفظات.

- هل تعرف عنوانه؟

- بلى، ٢١٩ شارع باركر.

في الليلة ذاتها تنازل الكونت وزوجه نهائيًّا عن المذكرة المقدمة ضد القنصل، وأرسلا رسالة مشتركة إلى شرلوك هولمز.

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث
شرلوك إلى باريس

جاء النادل على استحياء يسألنا:

- ماذا ترغبان أيها السيدان؟

أجابه لوبين زاهدًا:

- ماذا نريد؟ ما تحضره لنا؛ عدا اللحم والكحول.

رحل النادل حائرًا، وسألته بفضول:

- أنت نباتي؟

- بالطبع.

- ماذا دفعك لهذا الاتجاه؟ ذائقتك أم معتقدك؟ ربما مجرد عادة؟

- نظافتي الشخصية ما دفعتني إليه.

- لم تتناول اللحم من قبل؟

- بلى فعلت، غالبًا حين أتناول الطعام خارج المنزل؛ كي لا يُلاحظني أحد.

كنت أتناول العشاء هذه الليلة مع أرسين في مطعم قريب من محطة قطار دي نورد، فقد اعتاد أن يدعوني للعشاء في مناطق نائية من ضواحي باريس بعدما يراسلني بالتليغراف مُحدِّدًا المعاد صباحًا، دائمًا ما بدا لي نشيطًا، نشاط لا ينفد، سعيد بالحياة كطفل صغير مهذب، ودائمًا يملك قصة غير متوقعة ليقصها عليَّ.

في هذه الليلة كان قصاص سخي أكثر من المعتاد، ضحك كثيرًا وهو يقص مواقف عن سخرية الحياة، سخرية بسيطة عفوية لا تترك في النفس مرارة. كنت سعيدًا أن أراه على هذه الحالة ولم أجد مبررًا لأخفي سعادتي تلك. استطرد قائلًا:

- يا لها من حياة! تمر عليَّ أيام خفيفة كريشة أشعر فيها أن العمر كنز لا يفنى، ونهر رقراق لن أصل أبدًا إلى منبعه، أشعر أن الله منحنا حياة لا حصر لنعمها.

- تبالغ على ما أظن!

- على العكس، صدقني العمر لا يفنى، يمكنني أن أنهل من خيراته ما شئت، وأقطف من ثماره ما أشتهيه، لقد قضيت شبابي كما بغيت كطائر مهاجر يستوطن الأرض التي يشاء مع كل فصل. الحياة هبة جميلة. لا أفكر فيما

سأصبح عليه غدًا. أتعلم لم أفكر أبدًا أن أصبح دبلوماسيًّا، أو صاحب مصنع، أو سياسيًّا. أنا أحب أرسين لوبين.. وسأظل أرسين لوبين.

عب لوبين من الهواء ما ملأ به رئتيه، وأردف:

- أنبش في التاريخ عمَّن يمكن مقارنته بي ولا أجد! نابليون؟ ربما، ولكن انظر إلى نابليون، كيف كانت نهاية حياة إمبراطور فرنسا. لقد تضافرت جهود أوروبا كلها لتقوض إمبراطوريته، كان يدخل كل معركة معتقدًا أنها الأخيرة.

أكان جادًّا في هذه المقارنة؟ لا أعرف، ولكن نبرة صوته الواثقة أخرستني، وأفسحت له المجال ليُكمِل:

- الخطر! حيث يكمن كل شيء.. الشعور المستمر بالخطر! تنفُّس الهواء الثقيل يميز الذات عن غيرها.. الإحساس بالخطر يقترب.. يزأر.. يدنو منك، يضيف إلى خبراتك.. أنا أشبه بقائد سيارة السباق، الفارق أن حياتي سباق مستمر لا ينتهي.

- يا لها من شاعرية! أنك توهمني أن دافعك الوحيد هو الإثارة!

ضحك وأردف بدهاء:

- حسنًا، إنك طبيب نفسي لا يمكنني خداعك. في الواقع هناك سبب آخر..

صمت برهة وتجرع كوب الماء البارد الموضوع أمامه، ثم سألني:

- قرأت صحيفة لوتون صباح اليوم؟

- لا.

- عبر شرلوك هولمز بحر المانش بعد ظهيرة اليوم، ووصل قرابة السادسة مساءً.

- عظيم! ولكن لِمَ؟

- رحلة قصيرة بدعوة من آل كروزون، وقريب البارون والسيد جربو. لقد وصلوا إلى محطة قطار دي نورد، وحيث كان جانيمار في انتظارهم ليلتقوا بالسيد شرلوك.

على الرغم من الفضول الهائل الذي انتابني دائمًا، لم أسمح لنفسي قط استجواب أرسين لوبين عن حياته الخاصة دون أن يشاء البوح لي؛ لشد ما وددت أن أسأله عن حقيقة علاقته بسرقة الماسة، حتى هذه اللحظة لم يُذكَر اسمه بصورة رسمية في موضع الاتهام، كلها تكهنات جانيمار العجوز؛ لذا سأصبر إلى أن يبوح لي، استطرد لوبين:

- نشرت الصحيفة أيضًا لقاءً مع جانيمار، وفقًا لهذا المقال فإن هناك سيدة شقراء بعينها يزعم أنها صديقتي، وأنها قاتلة البارون، وسارقة الماسة من الكونتيسة، سأزيدك من الشعر بيتًا، إنه يزعم أنني العقل المدبر.

انتابتني قشعريرة قلق، أهذا الزعم حقيقي؟ أفكر في بعض الحالات المريضة بالسرقة. تجد متعتها النفسية الوحيدة في سرقة الآخرين بدهاء دون أي دافع مادي، ربما هذا الرجل يعشق الجريمة؟ مظهره لا يشي بهذا، رجل هادئ، تفصح عيناه عن صراحة وثقة لا خلاف عليها، يداه رقيقة كأيادي النبلاء، نظيفة كالفنانين. همست لنفسي بصوت سمعه:

- هذا جانيمار يهلوس لا محال.

اعترض لوبين:

- لا، جانيمار رجل دقيق وصادق! أحيانًا يكون على حق!

- حق؟!

- بلى، دعنا نزعم أن هذا المقال على سبيل المثال خطوة من خطواته نحوي. أولًا: لقد أعلن وصول غريم إنجليزي ليضعني في موضع صعب. ثانيًا: لقد أكد أن هولمز سيبدأ تحقيقاته من حيث انتهى جانيمار؛ أي أن شرلوك دون جانيمار لن ينجح. وهي تزكية خبيثة لنفسه. إنه يعلن الحرب.. حرب ممتعة.

- كيف ستواجه الغريمين معًا؟

- لا تقلق من جانيمار.

- والثاني؟

- هولمز؟ أعلم أنه ذو ثقل. ولكن هذا أكثر ما يثير شغفي لهذه الحرب. لا يملك هذا الإنجليزي الكثير عني، هو شهير في إنجلترا، ولكنه لم يخُض غمار الجريمة الفرنسية! إنه من دواعي سروري أن أتنافس مع شرلوك هولمز! وأخيرًا.. لا تقلق؛ ما يعرفه عني لن يجدي نفعًا.

- إنه رجل ذكي.

- أعلم. شديد الذكاء، لا أظن أن محقق مثله جاء على مر التاريخ، ولن يأتي مثل شرلوك هولمز أبدًا. ولكني أملك ميزة ضده، هو سيهاجم، أنا سأدرأ هجماته، الدفاع أكثر سهولة.

ارتسمت بسمة خافتة على وجهه، وقال وهو يضغط كلماته:

- كما أنني أعرف الكثير عن طرقه في الحرب، هو لا يعرف ألاعيب لوبين.. لقد أعددت له من الحيل ما يرهقه...

أخذ لوبين ينقر الطاولة بأصابعه نقرات موسيقية متتالية، وقال موليًا وجهه للهواء:

- أرسين لوبين يواجه شرلوك هولمز.. فرنسا ضد إنجلترا.. ستحظى «التلغراف» بمتعة لا تُضاهَى! لسوء الحظ.. هو يدرك أنني مستعد.. ولوبين...

توقف الحديث فجأة إثر نوبة سعال انتابت لوبين كادت تسرق أنفاسه، دقائق مرت إلى حين هدأت النوبة واستطاع أن يتنفس، سألته:

- تعسرت في بلع كسرات الخبز؟ أتريد رشفة ماء؟

أجابني بصوت متهدج:

- لا، ليس الخبز.

- ماذا إذن؟

- الحاجة إلى الهواء الطلق.

- أتود أن أفتح النافذة المجاورة لمقعدك؟

- لا، سأغادر.. ناولني معطفي وقبعتي سريعًا.

- لِمَ العجلة!

- لقد حضر رجلان للتو.. هل ترى الضخم؟ حسنًا، حين نغادر سر إلى جواري من اليسار؛ حتى لا يتمكن من رؤيتي.

- هذا الذي يجلس خلفك؟

- بلى، لأسباب شخصية دعنا نغادر دون أن يراني، وسأشرح لك في الخارج.

- ولكن مَن هذا؟

- شرلوك هولمز!

خارت قوى لوبين إثر السعال المتكرر، فجلس مرة أخرى وارتشف من كوب الماء، ثم قال:

- أمر خطير، أليس كذلك؟ لم أتوقع زيارته أيضًا.

- ماذا تخشى؟ لا يمكن أن يتعرف إليك أحد، أنت تغير ملامحك بصورة مذهلة. أنا ذاتي أخطئك في كل مرة نلتقي فيها من فرط ما تضيفه على مظهرك من تغيير، أشعر أنني أقابل شخصًا جديدًا.

- هو سيعرفني.

قالها لوبين بثقة، وأردف يوضح:

- لم يقابلني من قبل، ولكنني أشعر أنه سيعرفني فور أن يراني.. ليس مظهري ما سيعرفه، بل أنا، ما أنا عليه يحسه هولمز بحسه النادر.

- حسنًا، لنغادر إذن؟

- لا، لا.

- ماذا سنفعل؟ أنت لا تفكر في شيء خطر، أليس كذلك؟

- ليس خطرًا، علاوة على ذلك لأستغل الفرصة وأحاوره، هكذا يمكنني أن أعرف ما يملكه من معلومات. على أي حال أشعر أن عينيه تراقبني من رأسي حتى أخمص إصبعي.

لاح لي شبح بسمة ساخرة ارتسمت على شفتيه، ثم وبهدوء شديد فعل ما ظننته فانتازيا مستحيلة، نهض بشكل مفاجئ والتفت نحو طاولة هولمز مبديًا انحناءة بسيطة، وقال موجهًا حديثه لي:

- يا له من سرور! اسمح لي أن أقدم لك أصدقائي...

مرت لحظات بدا فيها الإنجليزي متوترًا لا يفهم ما يحدث، ثم وبحركة غريزية تحرك مسرعًا قابضًا على ذراع أرسين لوبين الذي هز رأسه معترضًا في أسف:

- لا تقع في الخطأ سيدي، أبهذه الطريقة تقابل مبادرتي؟

التفت الإنجليزي يمنة ويسرة باحثًا عن مساعدة أو غوث يقيه شر ما يحيكه لوبين، ولكن لوبين استطرد:

- ما مبررك لتقبض على ذراعي هكذا؟ هيا، دعنا نلعب لعبة نظيفة!

كان اقتراح لوبين هو الحل الوحيد أمام هولمز فقد صدق الفرنسي، لا يملك هولمز أي دليلٍ للقبض على لوبين، قال الإنجليزي بفتور:

- هذا السيد واطسون، صديقي ومساعدي.

قال لوبين بلباقة:

- أرسين لوبين.

أصاب واطسون دهشة مضحكة، فاتسعت عيناه وفرغ فاه، تخضب خداه بحمرة داكنة وشعرت بحواسه تستنفر لما يحدث، كان له وجه إنجليزي أصيل وشارب قصير مُهندم يتوسط أنفًا حادًّا وفمًا دقيقًا. أحس هولمز بما أصاب صديقه؛ فقال بنبرة لا تكاد تُفرِّق بين الجد والهزل:

- واطسون! لِمَ أراك مندهشًا لحدوث واحد من الأحداث الأكثر توقعًا في العالم؟!

تمتم واطسون والدهشة لم تفارقه:

- لِمَ لا تقبض عليه؟

- ملاحظة سديدة واطسون، ولكن هذا الرجل يجلس في محل أقرب إلى الباب من حيث أجلس، لن أكاد أتحرك حتى يفر هاربًا!

قال لوبين بنظرة تشي بعدم تصديقه لقول هولمز:

- هذا مبرر عادل!

ثم نهض مغيرًا موقعه ليصبح بين الإنجليزي وواطسون مبتعدًا عن الباب، ممعنًا في إحراج هولمز؛ لأنه يعرف أن مبرره واهٍ لم يلجأ إليه إلا لكي يحفظ ماء وجهه، بينما تابع واطسون في صمت اللكمة التي تلقاها هولمز رغم جهد الإنجليزي في الحفاظ على غموضه ومظهره الذي لا يُقهَر. مرت لحظات ثم نادى هولمز:

- أيها النادل..

اقترب النادل، فأمره هولمز أن يحضر زجاجتَي مياه غازية، وزجاجة جعة، وزجاجة ويسكي. لقد عمّ السلام لدقائق إلى حين إشعار آخر قريب، أما الآن فالرجال يتسامرون بهدوء كالأصدقاء.

لا يمكن تجاهل مظهر شرلوك هولمز الذي بدا كأي رجل عادي في الخمسينيات من عمره، يذكرك برجل من الطبقة البرجوازية يقضي حياته أمام مكتبه يتابع حسابات وأرباح أملاكه التي ورثها عن أسلافه من البرجوازيين، لا شيء مميز فيه، مثله كمثل رجل لندني محترم، بارد المظهر، حليق الذقن. جُلّ ما يميزه نظراته الثاقبة الحادة التي لا تشبه أحدًا.

الحقيقة أن شرلوك هولمز هو ظاهرة، ظاهرة في الحدس والمراقبة والبصيرة والبراعة في حل اللغز. تظن أنه أفضل ما يمكن الحصول عليه من دمج شخصيتَي «سي أوغست دوبين» لآلان بو، والسيد «لوكوك» لإيميلي جابورياو ([2])، ولكنه فاقهما براعة. حين تسمع بما أنجزه طوال حياته المهنية تتساءل إذا كان هذا الرجل من دم ولحم مثلنا أم هو مجرد شخصية أسطورية؟! هذا العقل الفذ ربما لا يضاهي أي عقل سوى عقل مَن عاش في خيال روائي كبير، على سبيل المثال كونان دويل!

انتهت الهدنة فورما بدأ أرسين لوبين استجواب هولمز بشأن المدة التي سيقضيها في باريس، أجابه الإنجليزي بصلافة:

- إقامتي في فرنسا مرهونة بك يا سيد لوبين.

قابل لوبين الإجابة ضاحكًا:

- حقًّا؟! إذا كانت إقامتك مرهونة بي، أعتقد أنه من الأفضل أن تلحق بأول باخرة تعبر المانش الليلة.

- أظن أن الليلة موعد قريب، ولكني أتمنى ألا أمكث أكثر من ثمانية أو عشرة أيام كأقصى تقدير.

- أنت مصرٌّ إذن؟

- لديَّ الكثير لإنجازه هنا.. سرقة البنك الإنجليزي الصيني، اختطاف الليدي إكليستون. كما ترى يا سيد لوبين هناك الكثير، أتعتقد أن أسبوعًا يكفي؟

- في الواقع إذا كان لديك هذا القدر من المشاغل ربما لا يكفي لتلاحق قضية الماسة الزرقاء، أو على الأقل ستمنحني الوقت لأخذ احتياطاتي، حين تنتهي

من التحقيق في تلك القضيتين أعدك أنني سأملك أفضلية كبيرة عليك.

- أعلم أنك ستحظى بفرصة خلال تلك الأيام العشرة.

- ربما تفكر في القبض عليَّ في اليوم الحادي عشر؟

- العاشر.. سأقبض عليك في اليوم العاشر.

ساد الصمت لحظات، وبدأ الرجلان جولة صراع أخرى:

- صعب.. صعب.

- حتمًا صعب، ولكنه ممكن.. تأكد من هذا.

كرر واطسون قول هولمز:

- تأكد من هذا.

- ليشهد واطسون على هذا.

صمت هولمز هوينة يزن كلامه، ثم أردف:

- من الواضح أن ميزان القوى ليس بين يدي، لقد مرت شهور على هذه القضية، وطُمِست العديد من الأدلة التي تعزز تحقيقاتي.

تدخَّل واطسون مفسرًا ما يقصده هولمز:

- مثل آثار الوحل، أو رماد السجائر.

- مع ذلك أملك ما توصل إليه السيد جانيمار، وكل المقالات التي كُتِبت عن هذه الحوادث، لديَّ كل ما تم تجميعه، وهذا سيفيدني كثيرًا.

أضاف واطسون بجدية واضحة:

- هناك العديد من التفسيرات التي وصلنا لها؛ اعتمادًا على ما نملك.

اعتدل لوبين في جلسته، وقال:

- هل استدعاك جانيمار ليسألك عن رأيك في القضية؟!

الحقيقة أن أفضل ما عايشته هو رؤية هؤلاء الرجلان يتباريان على طاولة النقاش، يتحدثان بلباقة لا تخلو من الحدة؛ للوصول لحسم هذه المشكلة العسيرة، ومحاولة وضع اتفاق يرضي الطرفين في هذا الشأن المضطرب، أعتقد أنني استمتعت أيضًا بمفارقات واطسون المسلية.

أخذ شرلوك في حشو غليونه ببطء، أشعله ثم قال بهدوء:

- أعتقد أن هذه المسألة أقل تعقيدًا مما هُيِّئ لي في بادئ الأمر.

ردد الصدى المخلص واطسون:

- أقل تعقيدًا بكثير.

- أقول المسألة لأنني لا أراها قضية. موت البارون، وسرقة الخاتم، ولا ننسى الغموض الذي دار بشأن ورقة اليانصيب، كل هذه القضايا تدور حول لغز السيدة الشقراء. أعتقد أن الحل بسيط، يكفي أن نكشف الخيط الذي يربط القضايا الثلاث. جانيمار جاء باستنتاج خيالي، فقد أرجع كل الحلول إلى اختفاء الشقراء، والحقيقة أنه من المستحيل علميًّا أن يتبخر أحدهما! لا يمكنني أن أتقبل تفسير «حدوث معجزة».

- وبعد؟!

- وبعد، وفقًا لرأيي، ملامح المغامرات الثلاث تبدو من رسمك المبدع، كل ما حدث على أرض الواقع أعددت له سلفًا.

- أيمكنك أن توضح أكثر؟

- بالطبع. لنبدأ من صراعك مع السيد جربو، مَن لا يعتقد أن منزل المحامي ديتنان هو المكان الأنسب الذي ستختاره لتقابل جربو؟ لا يبدو أن هناك مكانًا آخر يمكنك أن تضرب فيه معادًا مع السيدة الشقراء ـكما نلقبهاـ والآنسة سوزان جربو.

قاطع واطسون صاحبه:

- ابنة السيد جربو.

- الآن دور الماسة. ألم تحاول أن تمتلكها قبل أن يبتاعها البارون؟ حين ورث البارون الفندق بعد هذه الواقعة بستة أشهر، ظهرت أنطوانيت، وكانت هي مسعاك الأول للحصول على الماسة. حين فشل المسعى بدأ مسعاك الثاني في المزاد، ولكنه كان مزادًا حرًّا لم يخضع لألاعيبك. كاد السيد إرشمان أن يزايد ليحصل على الماسة، لكن مررت له سيدة مجهولة رسالة تهديد من الكونتيسة بعدما أثرت عليها شقراء مجهولة لتشتري الماسة. على أي حال فشلت خطتك للاستيلاء على الماسة من الكونتيسة التي رحلت إلى قصرها الصيفي، ثم اختفت الماسة.

ببسمة ساخرة علَّق لوبين:

- لأضعها في قنينة تخص القنصل، يا لها من خطة!

ضرب هولمز الطاولة قائلًا:

- لست أنا مَن تمرر له هذه الألاعيب التي يبتلعها الأغبياء! أنا ثعلب عجوز لا يمكنك مراوغته.

- أي ألاعيب تقصد؟

- أقصد...

صمت هولمز لحظات يعبّ الهواء، ثم قال:

- الماسة الزرقاء التي وُجِدت في قنينة القنصل مزيفة. لقد سرقت الأصلية واحتفظت بها.

صمت لوبين للحظات، حدج فيها الإنجليزي بنظرات ثابتة:

- أنت وقح يا سيدي.

تدخل واطسون:

- وقح؟

- بلى! ولكن مع ذلك تفسيرك للأحداث هو الأقرب للمنطق، ذهبت إلى حيث لم يذهب أي من المحققين أو الصحفيين المتابعين للقضية. إنك معجزة من الحدس!

أصاب هولمز الغرور لثناء أشهر اللصوص في العالم على براعته في تقصي الحقائق، بينما أكمل لوبين حديثه قائلًا:

- مع ذلك كان من السهل اكتشاف الكثير فور وقوع الحوادث، الآن طُهِّرت كُل الأدلة..

- حسنًا، لا داعي لتلك الألاعيب كل ما عليَّ فعله هو البحث عن الخيوط التي تجمع الحوادث الثلاث بين ٢٥ شارع كالبيرون، وفندق ١٣٤ شارع هنري مارتن، أو خلف جدران قصر آل كروزون. كُل شيء يمكن الإجابة عليه خلف هذه الجدران، أما البقية فهو مجرد هراء. ألا تظن ذلك؟

- أتفق معك.

- في هذه الحالة سيد لوبين، هل أصبحت تراني قادرًا على تحقيق غايتي في خلال ١٠ أيام؟

- بلا شك، بعد عشرة أيام، ستتجلى الحقيقة كلها.

أضاف هولمز في تأكيد:

- وسألقي القبض عليك.

- لا.

- لا؟

- يتطلب إلقاء القبض عليَّ أكثر من ذلك، ربما يمكنك أن تخدرني، وقتها هناك احتمال لتنجح. إرادتي فوق كل شيء سيدي.

- سيد لوبين، سألقي القبض عليك ولن تجد مفرًّا من هذا.

- إذا كانت مقدرتك يمكنها أن تقهر إرادتي فأنت رجل لا يُقهَر سيد هولمز.

- لا توجد عقبة مستحيلة سيد لوبين.

ساد الصمت، بينما تبادل السيدان نظرة موشية، لم تحمل تحديًا أو استفزازًا، بل هادئة جريئة تخترق الآخر كحد السيف. قطع لوبين الصمت:

- يا لحسن الحظ؛ أملك خصمًا جديدًا، ولكنه نادر.. إنه شرلوك هولمز وليس غيره! أعتقد أننا سنستمتع.

تساءل واطسون:

- ألست خائفًا؟

رد لوبين وهو ينهض:

- ربما.. ولعل خوفي سيدفعني لأسرع بالرحيل الآن لأتخذ تدابيري، وربما أفكر في التقاعد. لا يمكن أن أخاطر بالوقوع في شرك السجن. ١٠ أيام سيد هولمز؟

- ١٠ أيام سيدي، نحن في يوم الأحد. في الثامنة من مساء الأربعاء سينتهي كل شيء.

- وسأمسي خلف القضبان؟

- بلا أدنى شك.

- اللعنة! كنت أبحث عن حياة هادئة مسالمة، دون أن يعكر صفوها عثرة حجر. اللعنة على الشرطة والمحققين. يجب أن أغير هذا الوضع، في النهاية الحياة خلف القضبان ستحرمني الاستمتاع بالطقس الجميل والأمطار المتساقطة.. سأفقد بسمتي للأبد. وداعًا.

قال واطسون باهتمام مبالغ:

- لتسرع إذن، لا تضيع دقيقة أخرى.

- ولا دقيقة سيد واطسون، على أي حال لا يمكنني أن أُعبِّر عن جم سعادتي بلقائك، كنت سأسعد بالحصول على شريك ثمين مثلك.

تبادل الرجال تحية وداع قصيرة، لا ضغينة بينهما، ولكن الأوضاع أجبرت كلاهما على أن يكونا خصمين في معركة لا رحمة فيها، استند لوبين إلى ذراعي واصطحبني إلى الخارج حيث قال:

- ما رأيك في هذه الوجبة الدسمة؟ يمكنك أن تكتب عنها في قصة حياتي التي تهتم بإعدادها.

تأكد لوبين من إغلاق باب المطعم، وتوقف قريبًا من المكان سائلًا:

- أتدخن؟

- لا، ولكني ظننت أنك أقلعت عن التدخين.

- ليس بعد.

أشعل لوبين سيجارة، نفث دخانها وألقاها سريعًا، عبر الطريق راكضًا لينضم إلى رجلين خرجا للتو من أحد الأركان المظلمة كما لو وُلِدا من الظلال، تناقشوا لبضع دقائق على الرصيف المقابل ثم عاد إليَّ قائلًا:

- أستميحك عذرًا، هذا الملعون هولمز سيتقصى كل أفعالي. ولكني أقسم لك أن هذا الحقير لن ينال من لوبين، لا يدري مع أي عقل يمارس لعبته. عليَّ أن أذهب الآن، هذا المعتوه واطسون كان على حق، لا أملك الكثير من الوقت لإضاعته.

وهكذا انتهى هذا المساء الغريب، أو على الأقل الجزء الذي شاركت فيه، فما حدث من وقائع خلال الساعات التي أعقبت هذا اللقاء كان غريبًا حقًّا، وقد مكنتني مشاركتي تلك وثقة ضيوف هذا العشاء ـلحسن الحظـ في إعادة بناء ما فاتني من وقائع بالتفصيل.

☆ ☆ ☆

في نفس اللحظة التي رحل فيها لوبين، نظر شرلوك هولمز إلى ساعته، ونهض قائلًا:

- التاسعة إلا ثلث. في التاسعة علينا مقابلة الكونت والكونتيسة في محطة القطار.

بحماس لا داعي له قال واطسون وهو يتجرع الويسكي جرعة واحدة:

- إذن فإلى الطريق!

غادر الرجلان وقال هولمز بتأفف لرفيقه الذي أخذ يلتفت بين الحين والآخر:

- واطسون، لا تحرك رأسك كلص مُلاحَق. ربما هناك مَن يتبعنا. في هذه الحالة سيشعر بخوفك. على أي حال.. لماذا تظن أن لوبين ذهب إلى هذا المطعم؟

أجاب واطسون دون تردُّد:

- ليتناول غداءه.

- أتعرف واطسون، كلما عملنا معًا، تأكدت من ذكائك الفطري وتطورك المستمر! إليك الحقيقة، أنت تدهشني كل مرة!

ابتسم واطسون خجلًا لإطراء هولمز المزيف، بينما استمر هولمز في الحديث:

- حسنًا، جاء ليتناول الطعام، ثم؟ ربما ليتأكد أنني سأذهب إلى كروزون كما أعلن جانيمار في لقائه الصحفي. كنت سأغادر بالفعل، ولكن يبدو أنني إذا غادرت سأترك له المجال ليحيك خطط نجاته.

التفت هولمز ليرى وقع كلامه على واطسون، ولكن نظرة البلاهة وعدم الفهم أصابته بإحباط شديد فزفر قائلًا:

- انظر يا صديقي، لتسِر هذا الشارع ابحث عن سيارة أجرة، عُد بها لتحضر الحقائب التي تركناها في الميناء، واذهب إلى فندق إليزيه بالاس.

- ماذا سأفعل هناك؟

- احجز غرفة لتقضي ليلتك وتنام، وانتظر تعليماتي.

غمر واطسون الفخر بهذا الدور الهام الذي أوكله هولمز إياه، بينما هولمز أخذ تذكرة القطار الراحل إلى محطة آمينس وهَمَّ بالرحيل إلى محطة القطارات؛ حيث من المفترض أن يلتقي الكونت وزوجه.

☆ ☆ ☆

في المحطة قابل الزوجان هولمز ـالذي أخذ ينفث دخان غليونه ببطءـ بترحاب شديد، مرت لحظات في العربة حتى تحرك القطار، وجلس هولمز إلى جوار الكونتيسة، وسألها بثقة:

- أتملكين خاتمك يا سيدتي؟

- بلى.

- أيمكنك أن تعيريني إياه لألقي عليه نظرة؟

أخرجت الكونتيسة الخاتم من حقيبتها، وأخذ هولمز يقلبه بين أصابعه فاحصًا:

- تمامًا كما ظننت.. هذا الخاتم أُعِيد هيكلته!

- ما إعادة الهيكلة؟

- طريقة جديدة لتزييف الماسات، تُعرِّض الماسة لدرجة حرارة عالية حتى تتفت، ثم تعاد هيكلة الحجر بعد خلطه بجزيئات من تراب مُعالَج.

- كيف؟! أنا واثقة أن ماستي أصلية!

- ماستك أصلية، هذه حقيقة.. ولكن ما بين يدينا ليست الماسة الزرقاء.

- لنفترض صدق قولك، أين ماستي إذن؟

- في حوزة أرسين لوبين.

- وما تلك الماسة التي بين يديك؟

- إنها ماسة استُبدِلت ووُضِعت في حاجيات القنصل بلشين لتجديها وتُلصَق تهمة اختفاء الماسة ومحاولة سرقتها في بلشين.

- ما تقوله إن هذه ماسة مزيفة؟!

- بلا شك.

أصاب الكونتيسة استياء عظيم فلاذت إلى الصمت، بينما أخذ زوجها يحرك الماسة بين أصابعه في ارتياب، ثم تمتم في النهاية:

- أيمكن ما تقوله؟! لماذا لم يسرق الرجل الماسة ببساطة؟ والسؤال الأهم، كيف سرقها؟!

- هذا ما سأسعى لفهمه سيدي الكونت.

- ستذهب إلى قصر كروزون؟

- لا، سوف أترجل من القطار في محطة كريل، وأعود إلى باريس. هكذا سأبدأ لعبتي مع أرسين لوبين. الضربات بيننا ستكون قاسية؛ لذا من الأفضل أن يعتقد أنني ما زلت خارج باريس.

قالت الكونتيسة على استحياء:

- مع ذلك؟

- لا تشغلي بالك سيدتي. أعلم أنها ماستك.. حافظي على هدوئك، سأحضر لكِ ما سُرِق منكِ، فقط تحلِّي بالثقة في شرلوك هولمز، سأعيد الماسة الحقيقية.

تباطأ القطار قبيل التوقف في محطة كريل، فوضع هولمز الماسة في جيبه، وفتح أحد أبواب القطار القريبة من مقعده، اعترضت الكونتيسة مرتاعة:

- سيصيبك أذى!

- من الأفضل أن أغادر بهذه الطريقة، هكذا أضلل لوبين لو بعث ورائي مَن يتعقبني. وداعًا.

☆ ☆ ☆

وصل هولمز إلى باريس قبيل منتصف الليل، قطع بهو المحطة مسرعًا نحو البوفيه، وغادر من أحد أبوابه الجانبية مناديًا على سائق أجرة يجلس في سيارته مدخنًا في ستار الليل:

- شارع كالبيرون!

أمر هولمز السائق أن يوقف السيارة بعدما تأكد من أنه غير مُراقَب، عند مدخل شارع كالبيرون ترجل هولمز باحثًا عن دليله، استتر بإحدى الأشجار المقابلة لمنزل ديتنان والمنزلين المجاورين له يفحص المكان بدقة، ذرع الأرض بخطوات متساوية يقيس المسافة بين المنزل والرصيف المقابل له، ودوَّن ما أحصاه في مفكرته، مرت سيارة أجرى فنادى:

- جادة هنري مارتن!

ترجل هولمز من السيارة عند ناصية الجادة وشارع بومبي، وسار على الرصيف حتى وصل إلى رقم ١٣٤ حيث فندق البارون والعقارين المجاورين له، بدأ هولمز يكرر ما فعله عند شارع كالبيرون، كما أحصى مساحة الحديقة الصغيرة المحازية للفندق.

بدا الطريق مهجورًا خاويًا؛ إلا من أربعة أعمدة إنارة تجاهد لتبدد الظلام الدامس، أحدها يلقي ضوءًا خافتًا ينير جانبًا من الفندق أتاح لهولمز قراءة اللافتة المعلقة على البوابة «للإيجار»، وزوايا الحديقة التي هجرتها أزهارها، كما انعكس الضوء على منافذ الفندق الواسعة المظلمة.

همس هولمز لنفسه:

- لقد خلا الفندق من الناس منذ وفاة البارون. أيمكنني أن أدخل لزيارة أولى؟!

أخذ هولمز يفكر في طريقة ليدلف إلى المبنى، ولكن كيف؟ ارتفاع البوابة شاهق لا يمكن أن يتسلقها، في الظلام أنارت فكرة رأس هولمز فأخرج من جيبه مصباحًا كهربائيًّا صغيرًا، ومفتاحًا رئيسًا لا يغادر جيبه أبدًا لمثل تلك اللحظات. لحسن حظه دار المفتاح في فتحة البوابة، دخل متسللًا وحرص ألا يغلق البوابة خلفه، سار بضع خطوات في الحديقة، ثم توقف إثر وميض عابر بدا من إحدى النوافذ في الدور الثاني.

أخذ البصيص يظهر ويختفي في الطابق الثاني، ثم تحرك إلى نافذة في الطابق الثالث، هناك خيال يتراءى لهولمز ينعكس على حوائط الغرفة، الآن يهبط البصيص والطيف إلى الطابق الأول، ويتحرك من غرفة إلى أخرى.. تساءل هولمز في تعجب:

«مَن الأخرق الذي يتنزه في جنبات هذا الفندق المهجور حيث قُتِل البارون؟!».

كان الحل الوحيد لإجابة السؤال أن يصعد هولمز إلى الطوابق يفتشها بحثًا عن هذا الأخرق، ولم يتردد في الإقدام على تلك المهمة الخطيرة، ولكن في اللحظة التي دلف فيها إلى الشرفة الأمامية، اختفى الضوء تمامًا، ولم يعد هولمز قادرًا على تقفِّي أثر الظل.

برفق أدار هولمز مفتاحه في باب الشرفة، فأفضى إلى الفندق، صمت ثقيل يغلف المكان، إنه مغامر بحق في هذا الظلام الدامس، يتحرك بتأنٍّ، بينما الصمت يزداد ضوضاء من حوله..

صعد إلى الغرفة التي ظهر فيها الضوء لأول مرة، اقترب من النافذة وألقى نظرة على الحديقة والشارع، هناك رجل في الخارج ـ بلا شك هرب من سلم آخر وخرج من باب آخر ـ يقف إلى يسار الطريق متخفيًا في الشجيرات التي تحف الجدار الفاصل بين حديقة الفندق وحديقة العقار المجاور.

همس هولمز مجددًا:

«اللعنة! لقد فر من بين يدي!».

هبط هولمز السلم ثائرًا، وصل إلى الحديقة ولكنه لم يجد الرجل.. أين ذهب؟ اللعنة على هذا الظلام وتلك الفوضى العارمة في الحديقة المهجورة، حتى لمح طيفه في أحد الأركان المظلمة القريبة من المدخل.

توقف الإنجليزي للحظات يفكر، لماذا يسمح رجل فار من رؤيتي أن أراه؟! كان من اليسير أن يهرب، أكان أرسين لوبين هو الذي يراقبني؟ مستحيل.. لوبين أكثر دهاءً، ربما أحد أعوانه.

كان الإنجليزي هادئًا دقيقًا، يفكر في كل خطوة قبل أن يقدم عليها، مرت لحظات أخرى أخرج بعدها خنجر صغير من غمدٍ خفي في زيه، ودنا من عدوه بهدوء تام، صمت مطبق على كل شيء، شرلوك يقترب، يدنو من الرجل الذي لم يستشعر خطاه، حتى تمكن من إلقاء القبض عليه.

أحكم هولمز قبضته على كتف هذا المجهول، يا لها من سعادة انتابت هولمز حين تدفق إليه شعور الفخر والغبطة بالقبض على غريمه في هذه الظلمة، وجَّه إلى عنقه الخنجر موقنًا أنه لوبين، ولكن الملامح تغيرت قليلًا، أهذا لوبين؟ في هلع أخرج هولمز المصباح الكهربائي، ضغط زره على عجل وندت عنه صرخة غضب:

- واطسون!

أجاب واطسون بصوت مرتعش:

- شرلوك هولمز!

مزقت إحدى السيارات الصمت بعواء محركها، ارتطمت الرياح بأغصان الشجر فأسقطت أوراقه، بينما هولمز لم يتحرك، ما زالت أصابعه الخمسة مطبقة على عنق واطسون الذي ينتفض في هزات واهنة. بصوت أجش غاضب قال هولمز وهو يهز كتف صديقه بعنف:

- ماذا تفعل هنا؟! أجبني.. لِمَ تُقحم نفسك في أموري، كيف تسمح لنفسك بالتجسس عليَّ؟!

- أتجسس عليك؟! كيف تتهمني بهذا الاتهام؟!

- ماذا إذن؟ ماذا جاء بك إلى هنا؟ من المفترض أنك نائم!

- كُنت بالفعل..

- ولِمَ استيقظت؟! يجب عليك أن تغرق في نومٍ حالم..

- رسالتك..

- أي رسالة؟

- التي أرسلتها لي مع أحد مفوضي الشرطة..

- أنا؟! لقد فقدت صوابك!

- أقسم لك أنها الحقيقة.

- أين هذه الرسالة؟

أخرج واطسون من جيبه وريقة وسلط هولمز ضوء المصباح على الكلمات، أخذ يقرؤها في دهشة:

«واطسون، انهض عن مضجعك، واحضر إلى شارع هنري مارتن. الفندق فارغ. ادخل وفتِّشْ عن أي أدلة، ارسم لنفسك خطة ناجعة، وعُد إلى الفندق لتحظى بقسط من النوم. شرلوك هولمز.».

قال واطسون بينما هولمز ما زال في دهشته:

- كنت منهمكًا في قياس مساحة الغرف، حين رأيت طيفًا يتحرك في الحديقة، لم أملك أدنى فكرة...

قاطعه هولمز وقال بأعين مضيئة، وهو يساعد صديقه لينهض عن الأرض:

- كان طيفي. إنها فكرة مدهشة. في المرة القادمة التي تتلقى فيها رسالة مني تأكد أن خطي ليس مزورًا.

تمتم واطسون بعدما تراءت له الحقيقة:

- أتقصد أن الرسالة لم تكن منك؟

- اللعنة! بالطبع لست راسلها.

- والراسل؟

- أرسين لوبين.

- ولكن ما هدفه من تلك المراوغة؟

- لا أعلم علم اليقين، وهذا ما يشغل بالي. لماذا يتكبد عناء هذا الأمر التافه؟ محاولته للتلاعب بي أمر مفهوم، ولكن لِمَ يتلاعب بك؟!

- هولمز، أرجوك، أشعر برغبة جامحة في العودة إلى الفندق.

- وأنا أيضًا، واطسون، دعنا نذهب.

دنا الرجلان من الحديقة، حاول واطسون ـالذي تقدم بخطواتـ أن يعالج المزلاج ليفتحه، ولكنه فشل، التفت لهولمز متسائلًا:

- هل أغلقت الباب بعد دخولك؟

- لا، لقد تركت المزلاج مفتوحًا.

- على ما يبدو.

اقترب شرلوك من الباب، حاول أن يفتحه، لقد أُغلِق بقفل من الخارج، أفلتت منه سبة غاضبة، وقال في استياء:

- لقد أُغلِق بقفل. يا لها من ليلة لعينة!

حاول مجددًا أن يجد حلًّا، هز الباب بكل ما أوتي من قوة، ثم أدرك أخيرًا أن جهوده كلها تذهب سُدًى، فقال بصوت أقرب للبلاهة:

- دعني أشرح لك ما حدث، إنه لوبين ولا أحد غيره. لقد عرف أنني غادرت القطار في محطة كريل، فجهز لي مفاجأة صغيرة حين أصل باريس وأبدأ تحقيقاتي. ومع ذلك -لحسن أخلاقه- أرسل لي صديقي يقاسمني الأسر، هذه الخطة اللعينة غرضها الوحيد أن أنثر يومي أدراج الرياح، ليثبت لي أنه من الأفضل أن ألتفت لشئوني الخاصة.

- أتقصد أننا سجينان والسجَّان لوبين؟!

- قطعًا، شرلوك هولمز وواطسون سجينا أرسين لوبين. يا لها من مغامرة مدهشة! ولكن لا يمكن تصديقها!

لفظ هولمز كلماته الأخيرة وانزوى إلى الصمت، حتى ربت واطسون على كتفه، وقال:

- الأعلى! انظر إلى الأعلى! هناك ضوء...

نظر هولمز ليرى ضوءًا يتهادى من إحدى نوافذ الطابق الأول، فهرع الرجلان إلى داخل الفندق، ليصلا في الآن ذاته إلى الغرفة المُضاءة، في منتصف الغرفة كان هناك شمعة تتلألأ، يتراقص ضوءها مع الهواء النافذ من الباب، إلى جوارها وُضِعت سلة طعام بها زجاجة نبيذ وقطع خبز وفخذ دجاج.

انفجر هولمز ضاحكًا:

- يا للعجب! لقد وفر لنا وجبة! إنها معاملة ملكية. هيا واطسون! لِمَ هذا الاستياء؟ هذا الأمر كله يدعو للضحك!

- هذا رأيك؟

- بالتأكيد..

استطرد هولمز ببهجة تفوق ما يشعر به المرء في مثل هذا الوضع:

- إنها كوميديا مثالية. يا له من ساخر هذا الأرسين لوبين! يسخر مننا ولكن بلطف شديد. أتعرف لن أستبدل هذه الوليمة بكل ذهب العالم! لا تحزن عزيزي واطسون. ألا ترى نبل هذا الرجل! لِمَ الحزن؟ لربما آلت الأمور إلى ما هو أسوأ، ربما سكن خنجري في عنقك قبل أن أتعرف إليك..

جلس الرجلان في صمت يتناولان الدجاج، لا يملكان سوى السخرية وحس الفكاهة ليقضيا تلك الليلة، تجرعا النبيذ في ضجر، ولكن حين أفلت الشمعة آن وقت النوم، الآن عليهما أن يتقبلا النوم على الأرض متخذين من الحوائط مسندًا لرأسيهما، لقد قضيا ليلة تعيسة بلا شك.

استيقظ واطسون ـيرتعد من البردـ على صوت ضوضاء جذبت انتباهه، كان هولمز يجلس القرفصاء وقد قرَّب عدسته المكبرة من الأرض يفتش في التراب المتراكم عليه، أخذ ينفث في بعض المواضع حتى بدا له آثار طباشير أبيض، ترسم أرقامًا ورموزًا دوَّنها كلها في مفكرته.

شعر واطسون بأهمية ما يفعله هولمز فبدأ يفحص الأرض في كل الغرف بحثًا عن آثار طباشير، أفضى بحثه إلى عدة أرقام ورموز أخرى بين هنا وهناك، وأربعة أرقام كُتِبت على أربع درجات من السلم، بعد ساعة جاء واطسون إلى صديقه قائلًا:

- هناك تطابُق في الأرقام، أليس كذلك؟

- بلى، إنها تشير إلى شيء.. لا يمكنني تحديده.

- على العكس، إنه شيء واضح، الأرقام تحصي عددًا معينًا من بلاطات الأرض!

- حقًّا!

- بلى، أما الدوائر، لا أعرف، ربما هناك خطأ في اللوحات التي رُسِمت عليها، ربما لو أُعِيدت إلى موضعها الأصلي لأشارت للمصعد، أو لطريقة معينة للصعود.

- صديقي العزيز، دائمًا ما تخجلني براعتك! كيف توصلت لهذه الاستنتاجات؟!

قال واطسون بصوت تسرب إليه سعادة حقيقية:

- الأمر بسيط، لقد تعقبت هذه العلامات الليلة الماضية وفقًا لتعليماتك، أو دعني أصحح.. وفقًا لتعليمات أرسين لوبين.

ربما واطسون وضع نفسه في موقف أسوأ مما كان عليه ليلة أمس حين أمسك هولمز بتلابيبه بين الأحراش، كان لدى الأخير رغبة عارمة في خنقه، ولكنه تمالك أعصابه ورسم بسمة باهتة على شفتيه قائلًا:

- عظيم، إنه إنجاز كبير، هل وصل عقلك ـالمثير للإعجابـ لاستنتاجات أخرى يمكنني الاستفادة منها في تحقيقي؟

- للأسف لا.

- خسارة! كانت بداية مبشرة، إذن حان الوقت لنغادر.

- سنغادر؟! كيف؟!

- بالطريقة المثلى التي يغادر بها أي رجل محترم.. عبر الباب.

- لكنه مغلق!

- سنفتحه.

- كيف؟

- أرجو أن تهاتف قسم الشرطة ليرسل لنا رجالًا تفتحه، إذا لا تمانع!

- ولكن...

تساءل هولمز وقد نفد صبره:

- ولكن ماذا؟

- إنها إهانة كبيرة، ماذا سنقول؟ شرلوك هولمز، وأنا، واطسون، أمسينا ليلة كاملة رهائن لدى أرسين لوبين!

قال هولمز بصوت جامد خلا من أي تعبير:

- ماذا سنفعل يا صديقي، نجلس لنبكي حظنا؟! بالتأكيد لن نستقر في هذا المنزل..

- ألن تحاول فتحه؟

- لا..

صمت واطسون للحظة، وقال في سعادة:

- اسمع، الرجل الذي وضع لنا سلة الطعام كيف صعد! بالتأكيد هناك مخرج آخر لا يمر عبر الحديقة، جاء وخرج من خلاله دون أن نراه. دعنا نبحث عنه، إذا وجدناه نتجنب الوقوع في هذا الحرج.

- حل مذهل، ولكن هناك تفصيلة بسيطة أغفلتها، هذا المخرج بحثت عنه شرطة باريس كلها لمدة ٦ أشهر، وأنا نفسي -في أثناء نومك العميق- مشطت الفندق من أعلاه إلى أسفله بحثًا عنه! واطسون، العزيز، لوبين ليس بطريدة سهلة اعتدنا عليها.. لن يترك أبدًا أي خيطٍ خلفه.. دعنا ننتهي من هذا السجن.

☆ ☆ ☆

أُطلِق سراح شرلوك هولمز وواطسون في الحادية عشرة صباحًا، واقتادهما الشرطي إلى أقرب مركز الشرطة للتحقيق معهم، حين بدأ المفوض التحقيق معهما وكشفا عن هويتهما قال معتذرًا:

- اقبلا بالغ أسفي أيها السيدان، لقد شاهدتما أسوأ استقبال ممكن في فرنسا، يا إلهي! يا لها من ليلة سيئة قضيتماها! هذا اللعين لوبين ثعلب حقيقي.

تأكد المفوض من أن تحملهما سيارة خصيصًا إلى فندق إليزيه بالاس؛ حيث

طلب واطسون مفتاح الغرفة من الاستقبال، ووقف منتظرًا العامل الذي بحث كثيرًا عن المفتاح دون جدوى، ثم قال في حرج:

- سيدي، لقد طلبت إنهاء اقامتك في هذه الغرفة!

- أنا؟! أتمازحني؟! كيف فعلت ذلك وأنا لم أحضر للفندق؟

- رسالتك التي حملها لنا صديقك.

- أي صديق؟! وأي رسالة؟!

- رجل جاء إلينا يحمل رسالة على إحدى بطاقاتك الشخصية تطلب فيها أن ننهي إقامتك.

تمتم واطسون في عجب بعدما أدرك الشرك:

- يا إلهي! إنه هذا الشيطان مجددًا.. وماذا حل بالأمتعة؟

- طلبهم صديقك.

- وتسلمهم؟

- بالطبع! رسالتك أضافت هذه الملحوظة.

خيم هدوء يائس على الرجلين وغادرا الفندق في صمت يجران أذيال الخيبة، في الطريق كانت شمس الخريف الحانية تطل بأشعتها على الأرجاء، والنسيم الناعم يداعب الأنفس؛ عند أحد المفارق توقف هولمز يشعل غليونه، وقال واطسون:

- لا أفهم هدوءك هذا يا هولمز! لقد سخر هذا الرجل منك، تلاعب بذكائك كما يداعب طفل لعبته المفضلة، وأنتَ لا تحرك ساكنًا!

- واطسون، أفكر في بطاقتك التي حملها إليهم لوبين.

- وبعد؟

- وبعد! أتظن أن رجلًا ـفي خضم صراعه معناـ يجد الوقت ليحاكي خطي وخطك، ويملك بطاقتك الشخصية جاهزة في حقيبته يمكننا التعامل معه بسهولة! أتفكر فيما تصل إليه مقدرته في التخطيط من براعة وفطنة وتنظيم؟

- وبعد؟

- وبعد، هناك رجل واحد قادر على مجابهة عدو بهذه الفطنة، والذكاء، يتسلح بأسلحة خفية، هذا الرجل هو أنا؛ لذا أرجوك ابتسم؛ ما زالت الجولة الأولى.

☆ ☆ ☆

عنونت صحيفة إيكو دي فرانس في طبعتها المسائية:

«أطلق السيد تِنار، المفوض بمركز شرطة، سراح السيد شرلوك هولمز

والسيد واطسون، اللذين وقعا ضحية حيلة جديدة لأرسين لوبين واحتجزهما في قصر البارون؛ حيث قضيا ليلة مدهشة!».

كما كتبت الصحيفة:

«كما قدَّم الرجلان شكوى ضد أرسين لوبين يتهمانه بسرقة أمتعتهما..».

«أرسين لوبين ـالذي علَّمهم درسًا صغيرًاـ يتوسل إليهما ألا يجبروه على اتخاذ المزيد من التدابير التي ستكون أكثر جدية».

ألقى هولمز الجريدة متأففًا بعدما قرأها، وقال:

- إنها طريقته الوحيدة للشهرة، أفعال طفولية.. الاستعراض أكثر ما يهتم به.. هذا رجل مريض!

- والآن هولمز، ستستمر في تصنُّعك للهدوء؟

بنبرة واثقة قال هولمز:

- بلى! ولِمَ أغضب؟!

صمت لحظات، ثم ضغط على حروفه مؤكدًا:

- أنا واثقٌ تمامًا من الفوز في النهاية.

☆ ☆ ☆

الفصل الرابع
ضوء في آخر النفق

رغم أن شرلوك من الرجال القلائل الذين لا يحتاجون إلى إعادة التفكير في خططهم، أو الراحة قبل المواجهة؛ فإن هناك بعض المواجهات يشعر فيها أكثر الناس براعة بالحاجة إلى جمع قواهم قبل بداية المعركة الجديدة من الحرب؛ لذلك أعلن هولمز لواطسون رغبته صراحةً:

- سأمنح نفسي إجازة اليوم.

- وأنا؟

- فلتسترح قليلًا يا واطسون، ربما تستغل وقت راحتي وتشتري بعض الملابس الكتانية بدلًا مما فقدنا، حافظة الملابس خاوية على عروشها.

هب واطسون واقفًا، وقد انتفخت عضلاته، واستوى جذعه، وألقى نظرة حادة مدققة لأصغر تفاصيل الغرفة التي يقطنانها، وأردف بنبرة حارس أهم النقاط الحدودية:

- استرِحْ يا هولمز، سأتولى مهام المراقبة.

- استرخِ واطسون، سأستغل هذا الوقت لأفكر في أفضل خطوة ممكنة لمجابهة عدونا الجديد. أعتقد أننا قللنا من شأنه، وعلينا أن نعود إلى البداية.

- العودة من البداية كانت ممكنة من قبل، ولكن الآن أنملك وقتًا كافيًا لذلك؟

- يا صديقي القديم، نملك تسعة أيام! إنها أضعاف ما نحتاج إليه من وقت.

طوال فترة ما بعد الظهيرة، قضى الإنجليزي ساعاته بين التدخين والنوم، لم يهم بأي خطوة جديدة حتى حل النهار التالي حين أعلن لواطسون:

- أنا جاهز.. الآن يمكننا التحرك.

تساءل واطسون باهتمام أشبه بغريزة الأمومة:

- نتحرك؟ حسنًا، أنا مستعد من الأمس.

أجرى هولمز ثلاثة لقاءات مطولة؛ بدايةً مع المحامي ديتنان، وفحص منزله فحصًا موسعًا يشمل أدق التفاصيل، ثم مع سوزان جربو التي أرسل لها تلغرافًا ليلتقيا؛ رغبةً في سؤالها عن السيدة الشقراء، وأخيرًا مع الأخت أوجست التي تقاعدت في دير فيستاندين منذ اغتيال البارون. وانتظر واطسون صديقه كُل مرة خارج المنزل، ثم يسأله حين يخرج:

- أسعيد أنت؟

- في غاية السعادة.

- كُنت على يقين، نحن نسير على الطريق الصحيح، دعنا نُكمل.

لقد استغرقا وقتًا طويلًا في التحقيق، زارا العقارين المجاورين لفندق شارع هنري مارتن، ثم ذهبا إلى شارع كالبيرون، وفي أثناء فحصهما واجهة منزل جربو، قال هولمز:

- من المؤكد أن هناك ممرات سرية في المنازل الثلاثة. ولكن أين؟

في أعماقه أحس واطسون للمرة الأولى أن هولمز غير قادر على فك شفرات هذه القضية، لقد فقد شريكه الرائع لمسته السحرية وإلّا لِم يتحدث كثيرًا ويتخذ خطوات قليلة نحو الحل؟ قال هولمز مقاطعًا أفكار واطسون الغزيرة:

- لِمَ لا نستطيع؟ لأن التحقيق في قضية لهذا الأخرق لوبين، تشبه تتبُّع خيط دخان في ليلة مضببة، وبدلًا من البحث عن الحقيقة في الدلائل الدقيقة، يجب أن نخترق عقل لوبين ونفهم كيف يفكر لنعي جيدًا كيف سارت الأحداث.

- والممرات السرية؟

- ماذا سيحدث إذا وصلنا إليها؟ حتى لو عرفت كيف وصل لوبين إلى شقة محاميه، أو الشخص الذي دلف إلى غرفة البارون مجددًا بعد مقتله، هل سيمنحنا ذلك الأفضلية؟ هل سيمنحنا أسلحة إضافية لمهاجمة لوبين؟

هتف واطسون في ضيق:

- نحن نهاجم على أي حال!

ما انفك واطسون أن يختم كلماته حتى سقطت أمام أقدامهم أكياس مليئة بالرمل كادت أن تصيبهما إصابة بالغة، نظر هولمز لأعلى ليرى من أين سقطت الأكياس فوجد سقالة معلقة بإحدى شرفات الدور الخامس، قال دون أن يخطو خطوة:

- لقد حالفنا الحظ، لو تحركنا خطوة واحدة إلى الأمام لتلقينا تلك الأكياس فوق رءوسنا.

تنفس واطسون الصعداء، بينما ركض هولمز صاعدًا الدرج نحو الدور الخامس، رن جرس المنزل ففتح له أحد الخدم، دلف مسرعًا نحو الشرفة. خاوية، أين ذهبوا؟! سأل هولمز الخادم:

- أين العمال؟

- لقد رحلوا.

- كيف! لم أرَ أحدًا يهبط السلالم.

- عبر سلم الخدم.

عاد هولمز إلى الشرفة ودار ببصره في الأفق حتى رأى الرجلين يغادران المنزل ويصعدان إلى دراجاتهما الهوائية، ثم يختفيان:

- هل يعملان منذ فترة طويلة على هذه السقالة؟

- هنا؟ لا، لقد حضرا هذا الصباح فقط.

عاد هولمز خائبًا إلى واطسون الذي انتظره أسفل العقار دون أن ينبس ببنت شفة، مر نهار آخر في صمت كئيب مدقع دون نتائج ملموسة.

تكرر برنامج المراقبة ذاته في اليوم التالي، يصلان إلى جادة هنري مارتن، يراقبان الوضع لبعض الوقت، ثم يغادران، الأمر الذي أحبط واطسون كثيرًا؛ فسأل رفيقه في ضيق:

- فيم تأمل يا هولمز؟ أن يخرج لوبين من أحد هذه المنازل؟

- لا.

- أن تظهر السيدة الشقراء؟

- ولا هذا أيضًا.

- فيم تأمل إذن؟

- آمل في الوصول إلى خيط رفيع، أي حدث يمكنني أن أعدُّه نقطة انطلاق.

- وإذا لم يظهر ما يمنحك تلك النقطة؟

- في هذه الحالة سأخلق أنا الشرارة التي تدفع لوبين ليمنحني نقطة انطلاق.

حدث واحد هو الذي كسر رتابة هذا اليوم، ولكنه حدث غير سعيد على الإطلاق، لقد اقترب حصان أحد الرجال المحترمين من موضع جلوس الرجلين وأخذ يضرب المقعد القريب لهولمز إلى أن كاد يلامس كتفه، صاح هولمز في ضيق وهو يوجه مسدسه نحو الحصان:

- ويحك يا رجل، كاد الحصان أن يكسر كتفي.

تدخل واطسون ليمسك بذراع هولمز:

- أفقدت عقلك يا هولمز؟! ماذا ستفعل؟! ستقتل فارسًا على حصانه؟

- اترك ذراعي يا واطسون، اتركه على الفور.

احتد النقاش بينهما فاستغل الرجل هذه الفرصة وفر بحصانه هاربًا، قال واطسون هازئًا وهو يرى الفارس مبتعدًا:

- الآن يمكنك إطلاق النار عليه.

- يا لك من أحمق! ألم تعِ بعد أنه أحد شركاء أرسين لوبين؟

- ماذا تقول؟! هذا الرجل؟!

- أجل، شريك لوبين.. شأنه شأن العاملين الذين أطلقوا أكياس الرمل لتسقط فوق رءوسنا.

- أهذا معقول؟

- أو غير معقول.. لا فارق. بالتأكيد سأجد دليلًا لأثبت كلامي.

- بقتل الرجل؟!

- كنت سأطلق على حصانه ليسقط عنه. لولاك لكنت أحكم قبضتي الآن على أحد شركاء لوبين. أتدرك ما اقترفته من خطأ جسيم؟!

انقضت فترة ما بعد الظهيرة في شقاق كئيب بين الصديقين، وفي الخامسة كما اعتادا انطلقا نحو شارع كالبيرون، مع حرصهما على الابتعاد عن شرفات المنازل، مر جوارهما ثلاثة عمال يتغنون بأحد المقاطع ووكزوا الرجلين في أثناء سيرهما، كان هولمز في مزاج لا يُحسَد عليه، دفعه للتوقف وتبادُل اللكمات مع هؤلاء الرجال. اتخذ هولمز وضعية الملاكم، وأخذ يسدد اللكمات والركلات للشباب الثلاثة دون هوادة، ركلة في الساق، لكمة في الوجه، وأخرى في البطن، حتى تكوم اثنان من الشباب، وتحاملا على أنفسهما ليلحقا بالثالث الذي فر هاربًا، صاح هولمز في بهجة:

- لقد أبليت حسنًا، ما زلت أملك القوة الكافية لمواجهة الشباب.

دنا هولمز من صديقه الذي مال بجذعه مستندًا إلى الجدار:

- ماذا حل بك يا صديقي العجوز؟ وجهك شاحب!

اتكأ واطسون إلى مرفق صديقه، وقال بتلعثم:

- لا أعلم، ألم شديد يعتصر ذراعي.

- ألم في ذراعك؟! أي ذراع؟!

بصوت متهجد قال واطسون:

- ذراعي اليمنى..

لسوء الحظ فشلت كل جهودهما في تحريك ذراع واطسون اليمنى، قال هولمز في يأس:

- أيمكنك تحديد درجة الألم؟

كانت درجة الألم كبيرة منعت واطسون من الإجابة عن السؤال، فاصطحبه هولمز إلى إحدى الصيدليات القريبة، هناك وقبل أن يشرحا للطبيب الأمر، سقط واطسون مغشيًا عليه.

حين استفاق واطسون وفحصه الصيدلي أكد أن الذراع اليمنى تعرضت لكسر بالغ، ولا بد من إحضار جراح على الفور وإجراء عملية لإعادة المرفق إلى موضعه، كما ينبغي أن يحظى واطسون بعناية كاملة.

استُدعِي الجراح، وبدأ واطسون يتجهز للعملية، ونوبات الألم تدفعه للصراخ بين الحين والآخر، قال هولمز الذي عُنِي بتثبيت ذراعه لكي لا يحدث المزيد من الضرر:

- تحلَّ بالصبر يا صديقي العجوز، في غضون خمسة أو ستة أسابيع على أقصى تقدير لن يبقى أثر لهذا الكسر.. يا لهم من أوغاد الذين ألحقوا بك هذا الضرر! أقسم لك أن لوبين...

توقف هولمز عن الحديث حين واتته فكرة دفعته للنهوض تاركًا ذراع واطسون، الأخير الذي صرخ من فرط الألم ولسوء حظه أُغشِي عليه مرة أخرى، استطرد هولمز دون أن يعي ما حدث لصديقه:

- واطسون، لديَّ فكرة. هل بالصدفة...

ضاقت مقلتاه، وأردف دون أن يتم جملته الأولى:

- ولكن بلى! هذا يفسر كل شيء. تبحث بعيدًا عمَّا بجانبك! كنت أعلم أن التفكير هو جل ما أحتاج إليه لأصل لحل. عزيزي واطسون، أعتقد أنني سأخبرك بما يسعدك! دعني أرحل الآن.

☆ ☆ ☆

غادر هولمز رفيقه نحو المنزل رقم ٢٥، وصل عند العقار واقترب من حائط المدخل الأيمن، نُقِش على رخامه:

«المعماري ديتان ١٨٧٥».

النقش ذاته كان على حائط مدخل العقار رقم ٢٣، ولكنه أمر طبيعي أن يكون المعماري واحد لعقارين متجاورين، فكَّر هولمز في فندق هنري مارتن، ماذا سيجد هناك؟ مرت سيارة أجرة فنادى هولمز:

- شارع هنري مارتن، رقم ١٣٤، وأرجوك أن تسرع.

على أحد جدران الفندق تحققت المعجزة، ذات النقش يتكرر «المعماري ديتان ١» على الفندق والعقارات المجاورة لقد بدأ الضوء يتسلل إلى نفقه المعتم يبدد العتمة التي أغشت أفكاره عدة أيام، ولكن ما زال طريق طويل يقطعه داخل النفق ليصل، على أي حال، لقد حقق انتصاره الأول على عدوه.

هرع هولمز إلى أقرب مكتب بريد وطلب الاتصال الهاتفي بقصر آل كروزون، انتظر دقائق ثقيلة حتى أجابت الكونتيسة بنفسها:

- آلو، هذا أنتِ سيدتي؟

- سيد هولمز، أليس كذلك؟ آمل كل شيء على ما يرام.

- بلى، ولكن.. أحتاج لمساعدتك العاجلة.. أيمكنك أن تخبريني بأمر..

- تفضل.

- متى بُنِي قصر كروزون؟ أقصد في أي حقبة؟

- لقد حُرِق القصر منذ ثلاثة عقود، وأُعِيد بناؤه.

- مَن المعماري الذي أعاد بناءه؟ وفي أي عام؟

- هناك نقش على أحد الجدران المجاورة للمدخل: «المعماري لوسيان ديتان، ١٨٧٧».

- أشكرك سيدتي، تقبلي تحياتي.

وضع هولمز السماعة، وكرر هامسًا:

- ديتان.. لوسيان ديتان. هذا الاسم مألوف على مسامعي.

ذهب هولمز إلى أقرب مكتبة عامة واستعار موسوعة تتحدث عن سير ذاتية لمعماريين من العصر الحديث، وصل إلى الفصل الخاص بديتان ودوَّن ما وجده هامًّا في مفكرته:

«لوسيان ديتان، وُلِد في ١٨٤٠، وحصل على جائزة روما الكبرى، وحصل على رتبة ضابط شرف، وشيَّد العديد من المباني الفريدة،... إلخ».

عاد هولمز إلى الصيدلية ليحصل على عنوان المركز الصحي الذي نُقِل إليه واطسون، ومنها ذهب صوب المركز ليلاقي صديقه الذي استلقى على السرير بوجهٍ متألمٍ، وجسد يرتجف من الحمى، وذراع لا تتحرك. هتف هولمز في بهجة:

- إنه النصر! لقد حصلت على أحد أطراف الخيط.

- أي خيط؟!

- الخيط الذي سيصلنا بهدفنا! لقد بدأت السير على أرض صلبة؛ حيث سأجد بصمات أصابع، أدلة جديدة و...

قال واطسون في اهتمام:

- وبقايا سجائر؟

- والعديد من الأشياء يا صديقي.. لقد اكتشفت الصلة الغامضة التي تجمع مغامرات السيدة الشقراء الثلاثة. لماذا اختار لوبين تلك المنازل الثلاثة ليتم مغامراته؟!

- لماذا؟

- لأن العقارات الثلاثة بناها المعماري ذاته يا صديقي. أتظن هذا كان من السهل تخمينه؟ بلا شك، ولكن لم يخمنه أو يلحظه أحد.

- غيرنا بالطبع!

قال هولمز مصححًا:

- غيري! أعرف الآن أن هذا المهندس المعماري جعل من الممكن إنجاز ثلاثة أعمال بسيطة وسهلة تبدو كالمعجزة؛ لأنه أبدع في الخلط بين الأطرزة المعمارية المختلفة.

- يا لها من براعة!

- لقد حل بي وقت يا صديقي شعرت بالإحباط وفقدان الأمل. لا سيما وقد مر أربعة أيام.

- وتبقى ستة.

لم تستمر حالة السعادة والبهجة التي غلفت هولمز على عكس عادته، فقال:

- أفكر أحيانًا أن حين تشاجرنا هذه المشاجرة في الشارع، كان من الممكن أن يكسر هؤلاء الأوغاد ذراعي؛ عوضًا عن ذراعك، أليس كذلك واطسون؟

فزع واطسون لهذا الاحتمال المريع الذي قد يودي باحتمالية حل القضية من جذورها، أكمل هولمز:

- ماذا نستفيد من هذا الدرس؟ كما ترى يا واطسون، كان خطأً كبيرًا أن نحارب لوبين بأوراق لعب مكشوفة، والانسياق وراء خططه، وصد ضرباته بدلًا من تسديد ركلاتنا، على أي حال إنه رجل نصف سيئ..

اعترض واطسون:

- ولكنه كسر ذراعي!

- بينما كلاهما كان من الممكن أن يُكسَر! على أي حال لا مزيد من التفاخر، أنا مهزوم إذا استمررت في المراقبة في وضح النهار، لديَّ ميزة وحرية أكبر في الظلال مهما كانت قوة عدوي.

- يمكن أن يساعدك جانيمار.

- مستحيل! حين أجد أرسين لوبين، وأتأكد أن هذا المكان خلف أبوابه يكمن اللص الظريف، حينها سأراسل جانيمار على العنوانين اللذين منحهما إياي، منزله في شارع برجوليز أو الحانة السويسرية، لأخبره أنني وجدت لوبين، حتى ذلك الحين، سأتصرف بمفردي.

اقترب هولمز من واطسون وربت على كتفه (اليسرى العليلة)، وقال له بإعجاب شديد:

- اعتنِ بنفسك يا صديقي العزيز، دورك الآن هو اقتفاء أثر اثنين أو ثلاثة من رجال لوبين، الذين يراقبوننا دون جدوى؛ ظنًّا في قدرتهم على تقفِّي أثري، إنه دور هام أثق فيك لتؤديه.

بنبرة غلبها الود والامتنان أردف واطسون:

- أشكرك على هذه الثقة الثمينة، سأبذل قصارى جهدي لأؤدي هذه المهمة. ولكن، وفقًا لما أراه، ألن تعود؟

تساءل هولمز في برود:

- أعود لفعل؟

- لا شيء.. لا شيء، في الواقع أرجو أمرًا آخر منك، خدمة أخيرة شرلوك، أيمكنك أن تجلب لي كوبًا من الماء؟

- أتعدُّها خدمة؟!

- بلى، أشعر بظمأ قاتل، والحرارة المرتفعة أيضًا...

قاطعه هولمز:

- قطعًا، سأجلب لك الماء في الحال.

جلب هولمز ثلاث قنينات من الماء، ناول إحداها لواطسون، وأخرج تبغًا من حافظته، دسه في الغليون وأشعله، بينما بدأ واطسون يروي ظمأه، قال هولمز كأنه ذكر أمرًا هامًّا لتوه:

- السيد ديتان!

☆ ☆ ☆

رمق خادم فندق ماليشيبس في شارع مونتشاين الشخص الذي دلف لتوه بنظرة ثاقبة، رجل قصير، شعره الرمادي حُلِق بطريقة غير منتنظمة، معطفه الأسود الطويل لا يخلو من عدة بقع متفرقة، سأله الرجل متفاديًا نظرته المتشككة:

- أيمكنني أن أجد السيد ديتان هنا؟

- هذا يعتمد على هويتك سيدي، ألديك بطاقة شخصية؟

لم يملك السيد بطاقة شخصية، ولكنه يملك رسالة تقدمه، وطلب من العامل إعطاءها للسيد ديتان، الرسالة التي حين قرأها ديتان أمر بإحضار الوافد الجديد على الفور.

دلف الرجل إلى غرفة بانورامية فسيحة تشغل جناحًا كاملًا من الفندق، جدرانها تختبئ خلف الأرفف المدججة بالكتب، وقف المهندس مستقبلًا الرجل الغريب:

- حضرتك السيد ستيكمان؟

- بلى، سيدي.

- أخبرني سكرتيري بمرضه، وأنه أرسلك نيابةً عنه لتتم فهرسة الكتب، وبالأخص فهرسة الكتب الألمانية، وتُعنَى بالأعمال المكتبية، هل أنت معتاد على هذا النوع من العمل؟

قال السيد ستيكمان بنبرة واثقة:

- أجل سيدي، أنا متمرس في هذا العمل.

تم الاتفاق سريعًا بين السيد ديتان والسيد ستيكمان دون مزيد من التأخير، وتسلم ستيكمان مهامه الجديدة كسكرتير للمهندس ديتان.

في الآن ذاته وصل شرلوك هولمز الفندق.

☆ ☆ ☆

كان لا بد أن يهرب هولمز من المراقبة اللصيقة التي فرضها عليه لوبين حتى يدلف إلى فندق إقامة لوسيان ديتان وابنته كلوتيلد؛ لذا كان على المحقق اللامع أن يسبر أغوار المجهول ويرسم الخطط الكافية ليدلف إلى الفندق مدعيًا أنه شخص آخر، عليه أن يحيا حياته المعقدة لمدة ٤٨ ساعة على الأقل.

المعلومات التي وصل لها هولمز عن هذا المهندس العتيد كانت قليلة، ولكنها أفضت بتردي صحة ديتان، ورغبته المتواصلة في الراحة، لقد تقاعد ليحيا بين كتب المعمار وفنون البناء، لا شيء يسترعي انتباهه خارج حوائط هذه المجلدات الثرية، أما ابنته كلوتيلد تقضي أغلب وقتها في ذات الفندق، ولكن في جناح آخر، نادرًا ما تخرج.

دوَّن هولمز في كتيبه عدة تساؤلات لم تتمكن معلوماته من الوصول إليها:

«هل السيد ديتان شريك لأرسين لوبين؟

هل يتواصلان باستمرار؟

هل هناك رابط ما يربط المباني الثلاثة ببعضها؟

كيف يهرب لوبين أو أعوانه كل مرة من هذه المباني؟».

السيد ديتان شريك لوبين! هذا الرجل الموقر، ضابط في فيلق الشرف، يعمل جنبًا إلى جنب مع لص؟ لا يمكن..

وإن كان هذا التواطؤ ممكنًا كيف تنبأ ديتان منذ ٣٠ عامًا بحاجة لوبين لممرات سرية في هذه المباني الثلاثة؟!

لا يهم! سيُكشَف كل هذا فيما بعد. ما شغل الرجل الإنجليزي كان شعوره

بترصد أحدهم له، شعر بهذا في أمور لا يمكن تفسيرها، تفاصيل بسيطة لا يدركها سوى رجل له غريزة هولمز الخاصة، لقد أصابه هذا الشعور حتى قبل أن يدلف إلى الفندق.

حتى صباح اليوم التالي لم يصل هولمز لأي اكتشافات مثيرة للاهتمام، ولكن في الساعة الثانية بعد الظهيرة رأى كلوتيلد ديتان ذاهبة إلى المكتبة، امرأة في الثلاثينيات من عمرها، سمراء البشرة، تومئ لمَن تعرفه إيماءات بسيطة، أما وجهها فحافظ على التعبير اللامبالي للآخرين، وقفت لتتحدث قليلًا مع السيد ديتان، وانسحبت دون أن يسترعي هولمز انتباهها.

استمر هولمز في مجلسه في بهو الفندق طوال فترة ما بعد الظهيرة التي مرت دون جديد يُذكَر، حتى أعلن السيد ديتان رحيله، اضطرب هولمز، ماذا عليه أن يفعل الآن؟ سيمكث في البهو ينتظر ما لن يحدث؟ أم يغادر؟ مرت دقائق ثقيلة حتى شعر هولمز بتحرك أحدهم في الغرفة. اعترت هولمز رعشة حقيقية، هناك ظل في الشرفة! هل هذا ممكن؟ منذ متى وهذا الشخص الخفي يراقبه؟ ومن أين أتى؟

خرج الرجل من الشرفة، واتجه نحو خزانة ضخمة من خشب البلوط قائمة في أحد أركان البهو، راقبه هولمز وهو يبحث بين الأوراق المتراصة على أرفف الخزانة، عمّ كان يبحث؟

دلفت الآنسة ديتان على حين غرة فسرقت أنظار هولمز، وقالت لوالدها الذي سبقته بعدة خطوات:

- إذن أنت بالتأكيد لن تخرج يا أبي؟

لم تتم الفتاة حديثها حتى قالت وهي ترى هذا الرجل الذي يبحث في الخزانة:

- لحظة.. مَن أنت؟! لا تتحرك.

بسرعة لم تدركها الآنسة ديتان، أغلق الرجل الأنوار ودفعها ليهرب من نافذة اختبأت وراءها، كيف لم ترَه أو تسمعه؟!

بهدوء بالغ، أدارت مفاتيح الكهرباء مرة أخرى، وأفسحت الطريق لوالدها ليدلف، جلسا إلى جوار بعضهما، وبدأت الفتاة ـكأن شيئًا لم يكنـ تقرأ في أحد الكتب. مرت وهلة، ثم قالت وعينها لا تزال تتبع سطور الكتاب:

- سكرتيرك القديم لم يعد بعد؟

- هل ما زلتِ سعيدة بذلك؟

- بلى.

بدأ رأس السيد ديتان يتأرجح من فرط التعب، حتى غفا دون أن يشعر.

استمرت الفتاة في القراءة، مرت دقائق هادئة، تحركت إحدى ستائر النافذة،

وظهر فجأة أحد الرجال، مر من خلف السيد ديتان ولكنه اضطر أن يعبر أمام كلوتيلد، حتى هولمز تمكن من رؤيته بوضوح، هذا أرسين لوبين.

تهللت أسارير الإنجليزي، لقد صدقت توقعاته، واخترق قلب القضية الغامض، وجد لوبين حيث خطط أن يجده.

لم تتحرك الآنسة ديتان، رغم قدرتها على القبض على لوبين، وكاد لوبين أن يغادر من الباب، حين سقط أحد الأغراض عن الطاولة، وتعلق بملابسه، استيقظ السيد ديتان إثر الضوضاء التي حدثت، ليبصر أرسين لوبين وقبعته بين يديه مبتسمًا. هتف السيد ديتان في سعادة:

- ماكسيم بيرموند؟ عزيزي ماكسيم! أي رياحٍ طيبة أتت بك إلى هنا؟!

- الرغبة في لقائك أنت والآنسة ديتان.

- لقد عُدت مؤخرًا من سفرك؟

- أمس.

- إذن لتمكث معنا حتى العشاء.

- لا يمكنني، سأتناول العشاء مع أصدقاء.

تدخلت كلوتيلد، وقالت في إصرار حقيقي:

- ننتظر غدًا.. عزيزي ماكسيم دائمًا ما نفكر فيك.

- حقًّا؟

- قطعًا، دائمًا ما أتذكرك وأنا أعيد ترتيب الأوراق في الخزانة، وأجد أوراق حسابنا الأخير.

- أي حساب؟

- حساب شارع هنري مارتن!

- يا للهول! أنتِ تحتفظين بهذه الأوراق؟ يا لها من سعادة!

انتقل الثلاثة من البهو إلى إحدى غرف جناح ديتان المطلة على الخليج، بينما مكث هولمز يفكر وقد اعتراه شكًّا مفاجئًا، هذا لوبين؟ أم أنه أخطأ الظن!

الحقيقة أنه كان لوبين بلا شك.. ولكن شخصًا آخر أيضًا! شخص يشبه لوبين في بعض ملامحه، ويتميز عنه في صفات وملامح شخصية أخرى، كلون شعره مثلًا.

هذا الرجل ارتدى ربطة عنق بيضاء، وقميصًا حريريًّا، تحدث بسعادة وانطلاق، أخذ يروي قصصًا مضحكة للسيد ديتان، جلبت البسمة إلى شفاه كلوتيلد الجامدة، لقد كان أكثر حيويةً ونشاطًا وسعادةً من أرسين لوبين، لدرجة أنه

أكسب وجه كلوتيلد البارد نظرات سعيدة، وابتسامة ساطعة.

تحدث هولمز إلى نفسه بصوت خفيض يفكر:

- إنهما يحبان بعضهما البعض، ولكن ماذا يمكن أن يكون مشتركًا بين كولتيلد ديتان، وماكسيم بيرموند؟! هل تعلم أن ماكسيم هذا لا أحد سوى أرسين لوبين؟

استمر هولمز في تنصته على هذه الجلسة حتى السابعة مساءً، يحاول أن يسترق السمع لأدق الحوارات، وأتفه المعلومات، ثم تسلل من الغرفة بحذر شديد؛ حتى لا يخاطر بأن يراه أحد وهو يخرج إلى البهو.

خرج هولمز ليحرص على التأكد من عدم وجود أي سيارة أجرة، أو عربة أحصنة، وإبعاد المارة من الطريق، ثم دلف إلى شارع جانبي، ارتدى معطفه، وألقى حفنة من التراب على قبعته، محاولًا أن يحوِّل قليلًا في مظهره، ثم عاد إلى شارع ماليشيبس، وثبَّت أنظاره على مدخل الفندق.

خرج لوبين بعد دقائق، ليعبر شارع كونستانيوبل ثم شارع لندن متجهًا إلى وسط المدينة، ولحقه شرلوك كظله، كانت لحظات ممتعة للإنجليزي، استنشق الهواء بلهفة سجين لم يرَ الضوء لسنوات طويلة، بدا له شيء ممتع إلى درجة لا توصف أن يتبع خصمه اللدود، لم يعد مُراقبًا، الآن أرسين لوبين، أرسين لوبين الخفي، هو المُراقَب، شعر أنه كسر قيود مستحيلة؛ لذا كان سعيدًا بتتبع هذه الفريسة التي تسير بين السائرين.

لم تستمر سعادة هولمز سوى دقائق معدودة حتى صعقته ظاهرة غريبة، تحرك في اتجاهه أربعة رجال يرتدون قبعات كبيرة، ميَّز منهم اثنين كانا قد ألقيا أكياس الرمل على رأسه ورأس واطسون في يومٍ سابق، إنهم حتمًا يحاولون تضليله عن اللحاق بلوبين.

ربما كانت مصادفة! ولكن صُعِق هولمز مجددًا حين دخل لوبين أحد متاجر التبغ، فانصرف الرجال الأربعة منفصلين كلٌّ في اتجاه مغاير، همس هولمز لنفسه:

- اللعنة، بالتأكيد سيهرب!

ليس المجد -وإن كان يسعى إليه- هو هدفه من ملاحقة أرسين لوبين، ولكن المتعة الخالصة، المتعة الحثيثة المتمثلة في القضاء على أعتى المجرمين الفرنسيين، اللص الظريف الذي لم يستطع أي عدو القضاء عليه، هؤلاء الرجال الذين خرجوا من العدم، وتبخروا مع الهواء، خطة لن تقابلها إلا أمام أرسين لوبين، ولن يلاحظها سوى شرلوك هولمز.

تساءل هولمز في ضيق:

- هل يعلم جانيمار أكثر مما يقول؟ هل يتلاعب بي؟

فكر أن يتبع أحد الأشخاص الأربعة، ويحاول أن يتحدث معه ليحظى بمعلومات عن أرسين، ولكن الزحام اشتد عند جادة الطريق، فخشي أن يخسر لوبين.

استمر في ملاحقة لوبين حتى وصل إلى أحد المطاعم الهنجارية في زاوية شارع هيلدر، ذهب هولمز إلى الرصيف المقابل للباب ورأى لوبين وهو يتخذ مكانه على إحدى الموائد الفاخرة، المزخرفة بالورد، بصحبة ثلاثة من السادة يرتدون زيًّا رسميًّا، وسيدتين على قدر كبير من الأناقة، احتفى الجمع بلوبين وأبدوا له ترحيبًا ودودًا، بحث شرلوك عن الرجال الأربعة الذين عرقلوه سابقًا، كانوا متفرقين يستمعون إلى أوركسترا الغجر في أحد المقاهي القريبة، الغريب أنهم لم يهتموا بأرسين لوبين، بل بدوا في بحثٍ عن شخص آخر.

أحد الرجال الأربعة أخرج سيجارة من جيبه وقدَّمه لأحد السادة محييًا إياه بلباقة، تقبَّل السيد السيجارة، وأحس هولمز أن حوارًا هامًّا سيدور بينهما، أهم من إشعال سيجارة، في النهاية صعد الرجل درجات سلم المطعم الهنجاري وألقى نظرة من خلف الزجاج، بينما نهض لوبين وذهب إلى الباب تحدَّث إلى الرجل قليلًا، ثم قاده إلى طاولة قريبة، حين دقق هولمز النظر أدرك أن هذا الرجل ما هو إلا الفارس الذي كاد يدهسه تحت أقدام حصانه في شارع هنري مارتن.

الآن تضح الرؤية لهولمز؛ هؤلاء الرجال هم عصبة لوبين، ربما بينهما حارس شخصي، وبصاص، ومستشاره الناصح، أينما كان السيد في خطر يهب هؤلاء الشركاء لنجدته، هم على استعداد دائم للدفاع عنه.

اعتلت قشعريرة جسد الإنجليزي الذي خشي أن يفشل في مسعاه، أهذا الفرنسي لا يمكن القبض عليه فعلًا؟ أيمكن أن يتعذر الوصول إليه؟ أي قوى تكمن في هذه الرابطة، وتحت قيادة هذا القائد؟!

أخرج ورقة من دفتر مذكراته، كتب عليها بعض الأسطر ووضعها في مظروف، ثم سأل فتى في الخامسة عشرة تقريبًا يجلس جواره على الرصيف:

- أيمكنك يا صديقي أن تستقل سيارة وتحمل هذه الرسالة إلى مكتب استقبال الحانة السويسرية في ميدان دو شاتيل.. وعلى وجه السرعة؟

ختم هولمز حديثه وهو يمنح الفتى ورقة بخمسة فرنكات.

نصف ساعة مضت ازدحم فيها المطعم؛ فلم يستطع هولمز سوى أن يميز هيكل لوبين الجالس إلى الطاولة، ثم همس صوتًا في أذنه:

- هأنت ذا سيد هولمز.

- أخيرًا وصلت يا سيد جانيمار.

- أجل، لقد تلقيت رسالتك، أهو هنا؟

- بلى.

- أين!

- في هذا المطعم.. اقترِبْ إلى اليمين قليلًا.. أيمكنك أن تراه؟

- لا.

- البار إلى جواره مباشرةً.

- هذا ليس لوبين.

- بلى، إنه لوبين.

قال جانيمار بسذاجة:

- ربما.. هذا الوغد يُغيِّر مظهره طوال الوقت، والآخرون.. أهم شركائه؟

- التي إلى جواره هي الليدي كليفدين، الأخرى، دوقة كليث، والمقابل له هو السفير الإسباني في إنجلترا.

صُعِق جانيمار من الإجابة، بينما أردف هولمز:

- يا له من تهوُّر! لقد جئت وحيدًا.

- ما المشكلة؟ هو أيضًا وحيد!

- لا، لديه رجال يراقبون الشارع كله.. لا يمكن إحصاؤهم، على سبيل المثال: هذا الرجل...

قاطعه جانيمار:

- ولكن حين أحكم قبضتي على لوبين.. لا يمكنه الإفلات مني، سأصرخ مناديًا الجميع؛ ليهب لنجدتي.

- كنت أُفضِّل أن تُحضِر بعض رجال الشرطة.

- حتى يرصدهم رجال أرسين لوبين! لا، اعذرني سيد هولمز؛ نحن لا نملك خيارًا آخر.

شعر هولمز أنه محق.. الأفضل أن يُتِمَّا المهمة في هذه الظروف الاستثنائية، زفر وقال لجانيمار:

- دعنا ننهي الأمر في أقرب وقت ممكن.

قالها هولمز وتحرك خلسة إلى كشك جرائد قريب، دون أن يحرك عينه عن لوبين الذي كان في الداخل يتسامر مع أصدقائه ضاحكين، بينما عبر المحقق جانيمار الشارع إلى الجهة الأخرى واضحًا يده في جيبه مطصنعًا الهدوء، حتى قفز درجات المطعم سريعًا.

فورًا ما اشتبك جانيمار مع مدير المطعم الذي حال بينه وبين الباب، وصده

بشكل مهين، كما يفعل مع دخيل مشرد؛ كأن دخول جانيمار إلى هذا المطعم سيخل برفاهية المكان، كاد الاشتباك أن يتطور إلا أن أحد السادة المحترمين خرج إلى الباب ودافع عن المحقق، لكن استمر قرار المدير كما هو، لن يدلف جانيمار إلى المطعم، وفي النهاية ـرغم كل المحاولاتـ حرص المدير على اقتياد جانيمار إلى أسفل الدرج.

تجمع المارة يشاهدون ما يحدث، واقترب شرطيان جذبهما الضجيج، حاولا تفريق الحشد الذي أبى أن يتحرك، أمّا الشرطيان فعجزا عن الوصول إلى بؤرة الأحداث بعدما تعمد مجهولون سد طريقهما.

ثم وفي لمحة البصر كما تحرك عصا سحرية، انفض الجمع! واعترف مدير الفندق بخطئه، وقدم اعتذاراته للسيد جانيمار، وانسحب الرجل المحترم ذو المعطف الفاخر من المشهد، وبينما الحشد يتحرك بعيدًا والشرطيان يغادران، أسرع جانيمار إلى داخل المطعم نحو الطاولة التي جلس إليها الضيوف الستة، لم يبقَ سوى خمسة. نظر حوله في جزع يتأكد أنه لا طريق آخر للخروج، ثم اتجه نحو الطاولة، وسأل في شبه هلوسة:

- أين ذهب الرجل الذي جلس في هذا المكان؟! أيمكن أن يتبخر مع الهواء؟! أين الشخص السادس؟

أجابه أحد الجلوس:

- أتقصد السيد ديسترو؟

- لا! أقصد أرسين لوبين.

اقترب نادل من جانيمار، وقال:

- لقد غادر هذا السيد لتوه متجهًا إلى بهو الفندق المُلحَق بالمطعم.

أسرع جانيمار نحو البهو الذي يفضي إلى مخرج خاص إلى الشارع، تمتم جانيمار في ضيق:

- لنبحث عنه، من المستحيل أنه ابتعد!

بالفعل لم يكن لوبين بعيدًا، كان على بُعد مئتَي متر على الأكثر، في ميدان مادلينـ باستيل؛ حيث تسير العربات التي تجرها الأحصنة بسلام نحو ميدان الأوبرا أو شارع كابوسين.

على الرصيف المقابل للمطعم جلس هولمز محدثًا نفسه:

«إذا رآني واطسون العزيز الآن لكان فخورًا بشريكه! يا إلهي.. كان من السهل التنبؤ فور بداية هذه الجلبة أن لوبين سيهرب، وأنه ليس باليد حيلة أفضل من مراقبة المطعم، في الحقيقة، الحياة مليئة بالإثارة طالما تراقب هذا الشيطان اللعين!».

بعد قليل من الانتظار رأى هولمز لوبين يخرج من باب مختلف عن باب المطعم، ويلحقه اثنان من حراسه الشخصيين، همس لهما في حرص: «إلى النجمة». ثم افترق لوبين عنهما؛ ووقف هولمز يفكر:

«إلى النجمة إذن! إنه موعد لقاء بالتأكيد، سأدعهم يفرون بالعربة، وألحق بهما».

على عكس ما توقع هولمز لقد سار الرجلان على أقدامهم، كانت «النجمة» قريبة، في الواقع كان باب منزل صغير رقم ٤٠ يقع في شارع شالجرين، دق الرجلان الجرس، واختفيا داخل المنزل، وانتظر هولمز على ناصية الشارع مختبئًا في ظل إحدى الشرفات.

مرت دقائق ثم فُتِحت إحدى نوافذ الطابق الأرضي، وبرز رجل يرتدي قبعة مستديرة، ثم خفتت أضواء المنزل فلم يستطع هولمز رؤية المزيد من ملامح المنزل، في غضون عشر دقائق حضر رجل أنيق ودق الباب نفسه، ثم بعد دقائق من ولوجه إلى المنزل، حضر رجل آخر، في النهاية توقفت سيارة، ورأى هولمز من موضعه شخصين يترجلان منها: أرسين لوبين، وسيدة تغطي رأسها بحجاب رقيق، وتختفي ملامحها خلف ياقة معطفها الطويل.

قال هولمز والسيارة ترحل خاوية:

«إنها السيدة الشقراء بلا شك».

ترك دقيقة تمر فكَّر جيدًا فيما عليه أن يفعل، ثم دنا متأنيًا من المنزل، تسلق حافة النافذة، وعلى أطراف أصابعه ألقى نظرة على المنزل، رأى أرسين لوبين يستند على الموقد، ويتحدث بحركة نشطة، والجمع حوله يستمع بانتباه، من بينهم تعرَّف هولمس إلى الرجل المحترم الذي دافع عن جانيمار ضد مدير الفندق، الأخير الذي ميزه هولمز أيضًا بين الجمع، أما السيدة فولَّت ظهرها للنافذة.

«عليَّ أن أشاور أحدهم، تلك الحوادث التي وقعت هذا النهار تثير القلق، وتؤكد أننا في حاجة إلى تداول الأمر. لا يمكن أن أتعامل مع الأمر بسرعة».

لاحظ هولمز اقتراب أحد الشركاء من النافذة، كان خياله يتبدى على الأرض كخيال وحش كاسر يقترب من طفل صغير، هذا السيد الذي ادعى أنه مدير الفندق يوشك على كشف أمر الإنجليزي، الأخير الذي أنقذه أحد الجيران في الطابق الأول الذي فتح نافذته فوفرت لهولمز الحماية.

اختلس هولمز نظرة للرجلين في الطابق الأول فأدرك أن بقية الشركاء يمكثان في هذه الشقة، سيكون من العسير الآن على هولمز أن يتحرك قبل أن يظلله جنح الليل أو ليمكث حتى يرحل أرسين لوبين. قبيل الغروب رأى شرطيين يدلفان إلى الشارع، فغادر موقعه في الشرفة وذهب إليهما يشرح لهما الوضع، حتى أقنعهما بمراقبة المنزل حتى يعود، وعاد سريعًا إلى منزل

جانيمار:

- ما زال تحت قبضتنا.

- أرسين لوبين؟

- بلى.

أردف جانيمار مازحًا:

- إذا كانت قبضتنا ضعيفة كصباح اليوم، فأرجو أن تدعني أنام.. دعنا نذهب إلى قسم الشرطة.

☆ ☆ ☆

غادر الرجلان إلى شارع مسنيل؛ حيث منزل مفوض الشرطة السيد ديكوين الذي أصدر لهم الأمر باصطحاب نصف دزينة من الرجال يصحبهم إلى شارع شالجرين؛ حين قابل هولمز الشرطيين اللذين ولاهما المهمة سألهما في اهتمام:

- هل من جديد؟

- على الإطلاق.

مرت ساعات الليل حتى الصباح دون جديد حتى ظهرت مالكة العقار التي تقطن أحد أدواره، وأفصحت عن صدمة مدوية:

- لم يكن هناك مستأجرون في الطابق الأرضي.

تأفف جانيمار متسائلًا:

- كيف؟!

- هذه الحقيقة، لقد حضر صديقان للأخوين ليرو، وجلسا لبعض الوقت ليس إلّا.

- رجل وسيدة؟

- بلى.

- حضرا ليلة أمس؟

- ربما، كنت نائمة.. لست على يقين. على أي حال، إليك المفتاح.. لن تجد أحدًا في الداخل.

أخذ جانيمار المفتاح من السيدة وشكرها، ودلف إلى المنزل. كانت شقة الدور الأرضي خاوية إلا من الأثاث! صرخ هولمز:

- مستحيل! لقد رأيتهم هنا.. لوبين والسيدة الشقراء.

- لا أشك في قولك، ولكنهم ما عادوا هنا.

- لنصعد إلى الطابق الأول، حتمًا سنجدهم.

بادرت السيدة:

- يقطن الأخوان ليرو في الطابق الأول.

- إذن سنستجوب الأخوين ليرو.

على الفور صعد الجمع إلى الطابق الأول، دق جانيمار الجرس في توتر، عند الجرس الثاني فتح الباب رجل بالتأكيد ليس أحد حراس لوبين الشخصيين، كان عاري الجذع يحمل قميصه على ذراعه ويبدو في مزاج سيئ:

- أي مصيبة جاءت لتوقظنا من نومنا الهنيء!

توقفت الكلمات على لسان الرجل، وتنحنح في دهشة:

- يا إلهي! اعذرني سيدي.. في الحقيقة ما زلت أحلم! هذا أنت سيدي المفوض! وحضرتك سيد جانيمار!؟ كيف يمكنني خدمتكما؟

زفر جانيمار في ضيق بعدما تأكد من تعقُّد القضية أكثر، وقال:

- هذا أنت ليرو! يا لها من مصادفة! بالتأكيد لست شريك أرسين لوبين.. أين أخوك؟

- إدموند، تعالَ، إن السيد جانيمار هنا في زيارتنا.

ظهر رجل آخر أمام الباب وحيّا جانيمار، الذي قال:

- يا لها من فوضى!

ثم استدار موجهًا حديثه لهولمز:

- هذا المفتش فيكتور ليرو، واحد من أفضل رجالنا، وهذا أخوه إدموند من علماء الأنثروبولوجيا المعروفين.

☆ ☆ ☆

الفصل الخامس
اختطاف

لم يعترض شرلوك هولمز، أكان من الممكن أن يتهم الرجلين بالتواطؤ مع لوبين؟ لا جدوى من هذا الاتهام، الأدلة التي بين يديه معدومة تقريبًا، وكلما انعدمت؛ ضاع وقته في محاولة إثبات ما لا يمكن تصوُّره.

لقد اشتد الضيق بهولمز، حاول جاهدًا أن يظهر بمظهر المنتصر أمام جانيمار، وسعى لكي لا يخونه غضبه ويشيع على وجهه؛ لهذا حيّا باحترام الأخوين ليرو، وانسحب في هدوء.

في ردهة المنزل لاحظ هولمز بابًا صغيرًا يفضي إلى قبو بين العقارين، حين غادر إلى الخارج كان النقش المعهود ينتظره على العقار رقم ٤٠ «لوسيان ديتان ١٨٧٧»، والنقش ذاته على العقار رقم ٤٢.

«دائمًا النقش على عقارين متجاورين، وأنا واثق الآن أن العقارين ٤٠ و٤٢ متصلان عبر هذا القبو. كيف لم أفكر في هذا من قبل؟! يجب عليَّ المكوث مع شرطيي المراقبة هذه الليلة».

اتجه هولمز إلى الشرطيين اللذين توليا مهمة المراقبة، بينما رحل جانيمار لإحضار قوة من الشرطة:

- لقد غادر شخصان من العقار رقم ٤٢ خلال غيابي، أليس كذلك؟

- بلى سيدي، رجل وامرأة.

اتجه نحو السيد جانيمار، وقال له في حماس غير معهود:

- سيد جانيمار، لقد سخرت كثيرًا من هذا الإزعاج الصغير الذي سببته لك.

- ولكني لا ألومك على هذا، جميعًا وقعنا في هذا الشرك.

- أليس كذلك؟! ولكن أفضل الحيل عليها أن تنتهي في النهاية، ولقد سئمت هذه القضية وحان وقت إنهائها.

- أشاركك الرأي.

- لقد وصلت لليوم السابع هنا في باريس. خلال ثلاثة أيام سيتحتم عليَّ السفر إلى لندن.

- يا للهول!

- هذا هو الواقع سيدي، وأرجوك أن تكون جاهزًا خلال أمسية الثلاثاء القادم.

تساءل جانيمار مازحًا:

- لعرضٍ جديد؟

- أجل سيدي.

- وكيف سينتهي؟

- بالقبض على أرسين لوبين.

- أتظن ذلك؟

- أقسم لك بشرفي، أيها السيد.

ودَّع هولمز جانيمار، وذهب ليحصل على قسط من الراحة في أقرب الفنادق، ثم عاد إلى شارع شالجرين، دس فرنك في يد حارس العقار ليتأكد أن الأخوين ليرو رحلا عن المنزل، فأخبره الحارس برحيلهم وأن المنزل أصبح ملك السيد إرمينجي، بعد هذا الحوار القصير دلف إلى الباب الصغير الذي لاحظه من قبل وقد أشعل شمعة، أفضت الدرجات إلى قبو التقط على أحد جدرانه نفس النقش المألوف.

لم يكن هولمز مخطئًا، هناك منافذ سرية يهربون من خلالها، في طرفَي القبو كان هناك بابان، خمن هولمز أن الباب إلى سرداب العقار ٤٠ إلى اليمين، أخرج مفتاحه الرئيس وفتح الباب.

- يا لها من ضربة!

في الداخل أخذ هولمز يفحص خزانات النبيذ التي أحاطت جدران الغرفة، بعض المواضع قد مُسِح عنها الغبار، وعلى الأرض كانت هناك بصمات واضحة لأقدام مختلفة المقاسات.

جذبت جلبة واضحة آذان هولمز؛ فأسرع بغلق الباب من الداخل، وأطفأ الشمعة ليختبئ خلف إحدى الخزانات مرتقبًا. مرت لحظات وبدأ ضوء يتسلل إلى الغرفة فور فتح الباب، ثم ظهرت ذراع، ودلف بعدها رجل إلى الغرفة.

بأطراف أصابعه أزاح التراب عن أحد الصناديق، وبدأ يضع شيئًا ما داخل حافظة مجوهرات مخملية أخرجها من جيبه، أنهى الرجل مهمته وبدأ يمحو أثر أقدامه والبصمات التي تركها لوبين والسيدة الشقراء، واقترب من الخزانة التي يختبئ خلفها هولمز.

في الحال قفز هولمز قابضًا على عنقه قفزة ندت عنها صرخة فزعة من الرجل، لم يستغرق الأمر سوى لحظات ليجد الرجل نفسه مكبلًا بالأصفاد ووجهه يواجه الأرض، بينما الإنجليزي يسأله ببرود:

- كم تريد لتتحدث؟! لتخبرني كل ما تعرفه؟

اكتفى الرجل بابتسامة ساخرة، فهم منها هولمز أنه سيعاني مع هذا الرجل؛

لذا بدأ ـبسرورـ في تفتيش جيوبه بحثًا عما يقوده إلى دليل، مع ذلك خاب ظن هولمز مجددًا؛ فالرجل لا يحمل سوى حاملة المفاتيح، ومحرمة، وحافظة المجوهرات المخملية التي وضع فيها شيئًا لم يرَه، في هذه القنينة بدأ طرف الخيط يتضح لهولمز، إنها ماسات صغيرة وعقيق أحمر. قاتلك الله يا لوبين!

الآن ماذا سيفعل هولمز في هذا الرجل؟ أينتظر قدوم زملائه، يقبض عليهم جميعًا ويسلمهم للشرطة؟ ولكن بأي تهمة؟! كيف يثبت أنهم على صلة بلوبين؟ تردد هولمز قليلًا حتى هداه عقله ليقرأ الاسم المنقوش على الحافظة «الجواهرجي ليونارد، شارع لا باي».

ببساطة أطلق هولمز صراح الرجل بعدما حصل على غايته، وغادر السرداب والمنزل مسرعًا، مر سريعًا على مكتب البريد يبحث عن أي خطابات جديدة، وجد خطابًا يخبره أن السيد ديتان ـلسوء الحظـ لن يعود قبل الغد، ثم شد هولمز الرحال نحو محل الجواهرجي.

☆ ☆ ☆

- هناك سيدة هي مَن أرسلت لي تلك الفصوص، قالت إنها سقطت عن إحدى مجوهراتها التي اشترتها من هنا.

أنصت هولمز باهتمام، بينما أكمل البائع حديثه:

- في الواقع.. لقد هاتفتني. ستمر عليَّ اليوم بنفسها.

انقضت خمس ساعات ينتظر فيها هولمز حضور السيدة على الرصيف المقابل للحانوت، حتى ظهرت سيدة ترتدي حجابًا يخفي وجهها، أثارت الشكوك في نفس هولمز، عبر الزجاج تمكن الإنجليزي من رؤيتها وهي تضع على المنضدة جوهرة نادرة مزخرفة بالعقيق.

أنهت السيدة عملها عند الجواهرجي سريعًا ثم ـسيرًا على الأقدامـ اتخذت الطريق نحو شارع كليشي، وبعدها قطعت طرقات لا يعرفها الإنجليزي جيدًا.

حين أسدل الليل أستاره وصلت السيدة إلى أحد المباني المكونة من خمسة طوابق، دلف هولمز وراءها دون أن تلحظ هي أو الحارس، وتبعها حتى توقفت في الدور الثاني، ودلفت إلى أحد المنازل. مرت دقيقتان تأكد فيها الإنجليزي من ابتعاد السيدة عن الباب، وبدأ في هوايته المعتادة: فتح الأبواب، أخرج حافظة المفاتيح التي أخذها من رجل السرداب وبدأ يجرب، في النهاية فتح المفتاح الرابع الباب الموصد.

غرف خاوية، أبواب مفتوحة، يبدو المنزل غير مأهول على الإطلاق، ولكن في نهاية الممر المفضي للغرف تهادى ضوء خافت من إحدى الغرف، فدنا هولمز على أطراف أصابعه حتى رأى ـفي انعكاس إحدى المرايات المواجهة للغرفةـ السيدة وقد خلعت عنها ملابسها وقبعتها وتتدثرت برداء مخملي خفيف، اتجهت السيدة نحو الموقد، ضغطت على أحد أحجاره فتحرك الحائط المجاور

للموقد، سقطت لوحة أو اثنان، لم تأبه السيدة، بل حملت مشعلًا ودلفت إلى الظلام الدامس الذي اختبأ وراء الحائط.

في الظلام تبعها هولمز يسير دون هدى حتى لامست يداه أغراضًا ناعمة لم يفهم كنهها، أشعل عود ثقاب وعلى ضوءه الخافت تمكن من تمييز الملابس المكتظة على الجدران من حوله تحيطه كالقضبان، وتلاصق الحائط كما لو كانت ورقًا يزين الجدران، أو يخفيها لغرض ما، أفلت الشمعة، فاقترب هولمز من مصدر ضوء تآتى من آخر الممر، الآن يمكن أن يرى جيدًا.

إنها السيدة الشقراء.. تحت ناظريه.. في قبضته!

أطفأت السيدة المشعل وأضاء أحد أزرار الكهرباء، لأول مرة يمكن لهولمز أن يرى ملامحها في ضوء واضح، يرى وجهها بالكامل، لقد ارتعدت أوصاله في هذه اللحظة، المرأة التي وصل إليها بعد العديد من المحاولات والمناورات، لم تكن سوى كلوتيلد ديتان.

كلوتيلد ديتان هي قاتلة البارون دوترك! وسارقة الماسة الزرقاء! كلوتيلد ديتان هي صديقة أرسين لوبين الغامضة! هي السيدة الشقراء!

همس هولمز لنفسه:

- حسنًا، أنا لست أكثر من حمار ساذج. لا يمكن، صديقة لوبين شقراء بينما كلوتيلد سمراء، ولكن لِمَ لا! أستحافظ السيدة الشقراء على مظهرها بعد قتل بارون وسرقة ماسة؟!

أُتِيحت الفرصة لهولمز أن يرى جزءًا من الغرفة، غرفة نسائية من الطراز الرفيع، تتناثر على مقاعدها الحلي والملابس، بينما كلوتيلد تجلس على مقعد وثير من خشب البلوط تدفن رأسها بين راحتيها، مرت لحظة ثم انهمرت الفتاة في البكاء، تسابقت العَبَرات إلى وجنتيها كالأمطار الغزيرة، تتساقط على الأرض اليابسة دون هوادة لتغمرها، أحس هولمز أن عَبَراتها نهر لا ينضب، كان مشهدًا حزينًا لم يحتمله حتى قلب المحقق البارد، وأسوأ ما اضطر أن يجابهه في هذه الرحلة حتى الآن.

خلفها فُتِح باب سري، ودلف أرسين لوبين.

حدقا طويلًا في أعين بعضهما البضع دون أن ينبسا ببنت شفة، ثم ركع لوبين إلى جوارها، احتضن رأسها بين كفيه، أحاط خصرها بذراعه القوية، وتعانقا عناقًا طويلًا غمرته مشاعر الحنين والشوق والشفقة. مكثا متعانقين طويلًا، الصمت الهادئ يغلفهما، الأذرع تشابكت كأذرع الجسد الواحد، تلاحمت النفس بالنفس، همس لوبين وهو يبتعد عنها:

- أتمنى لو في مقدرتي جعلك سعيدة.

- أنا سعيدة.

- لا، أنتِ تبكين.. أنا آسف لهذه الدموع كلوتيلد.

على الرغم من الحزن الذي فاضت به نفسها؛ فإنها سبحت في صوته العذب، أنصتت إليه باهتمام؛ رغم ما أصابها من خواء، متلهفة للأمل والسعادة، ابتسامة خافتة وجدت طريقها إلى شفتيها، ابتسامة حزينة دفعتها ليتوسل إليها:

- كلوتيلد، أرجوكِ انفضي عنكِ هذا الحزن، لا حق لكِ أن تحزني!

دفنت يدها بين راحتيه، وقالت بصوت هادئ عميق:

- طالما تلك يداي سأحيا حزينة، ماكسيم.

- ولكن لِمَ؟

- إنها يد قاتلة.

بانفعال بادرها ماكسيم:

- لا تتفوهي بتلك الكلمات! انفضي هذه الأفكار عنكِ، الماضي في عداد الأموات، لا يمكننا العودة إليه.

لثم ماكسيم يدها مواسيًا، ونظرت إليه بابتسامة تتسع كما لو أن قُبلَته محت قليلًا من ذاكرتها المؤلمة، ثم أردفت بصوتٍ عذب كهديل الطيور:

- عليك أن تحبني ماكسيم، عليك أن تُغرَم بي؛ لأنك لن تجد امرأة تُغرَم بك مثلي، امرأة لا تبخل بجهدٍ لتسعدك، تحاول، وتحاول؛ حتى تراك هنيئًا، ليس فقط تطيع أوامرك، بل تستحث الأخبار لتعرف رغباتك السرية، لقد فعلت ما يُعارِض غرائزي ومعتقداتي، وكل ما آمنت به يومًا، لم أستطع أن أحافظ على إيماني أمام حبك. فعلت ما أبغضه فقط لأنه يروق لك، ولأن هذا ما تريده. أنا جاهزة لأبدأ غدًا. دائمًا سأكون جاهزة.

قال باهتمام بالغ:

- آه كلوتيلد، ماذا دفعني لأزج بكِ في حياتي تلك! كان بوسعي أن أظل ماكسيم بيرمون الذي أحببته منذ خمس سنوات، ما كان عليَّ أن أعرِّفك إلى الآخر.. الآخر المغامر داخلي.

بنبرة خفيضة أكدت وهي تضغطت على راحته برفق:

- أحب هذا الآخر أيضًا، ولا أندم قط على حبه.

- بلى، أنتِ تندمين على حياتك الماضية.

بادرت كلوتيلد بنبرة غمرتها ولهها الشديد به:

- أنا لا أندم على شيء في وجودك! لا الأخطاء ولا الجريمة ولا شيء يعكر صفوي حين أراك، المعاناة والضيق والحزن والبكاء وكل الآلام التي تشملني

في غيابك، تتبخر حين تحضر.. حبك يمحو كل ألم.. ولأجله أتقبل كل شيء. فقط يجب عليك أن تحبني!

- أنا لا أحبك لأنه واجب عليَّ، كلوتيلد، أنا أحبك دون شرط أو قيد، غرامي غير محدود لك.

قالت بعدما ملأتها أقواله بالثقة:

- أنت واثق؟

- أنا واثق من حبي، كما أثق في حبك لي، أعرف أن حياتي محفوفة بالمخاطر، لا تمنحني الوقت الكافي لأهديكِ إياه، ولكني أحبك.

شعرت بقلق في نبرته فأردفت:

- ماذا يحدث؟ هناك خطر جديد؟ تحدَّثْ على الفور.

- لا، ليس جديد.. ولكن...

- ماذا؟!

- حسنًا، يجب أن أخبرك، إنه يتقفى أثرنا.

- هولمز؟

- أجل، تدخُّل جانيمار في المطعم، كان بواعز من هولمز، أيضًا تلك الليلة التي مكث فيها شرطيان يراقبان عقار شارع شالجرين كان هو مَن وكلهم تلك المهمة، لقد تأكدت من هذا، أيضًا قضى جانيمار النهار كله يراقب المنزل، وقد صحبه هولمز.

صمت لحظات، ثم أردف بتردد:

- علاوة على ذلك.

- أهناك المزيد؟

- بلى، شيء آخر، لقد سقط أحد رجالنا. جانيو.

- حارس العقار؟

- أجل.

- ولكن أنا مَن أرسلته للسرداب هذا الصباح، ليحضر لي ماسات سقطت من بروش كنت أرتديه.

- بلا شك قبض هولمز عليه.

- على الإطلاق، لقد وصلت الماسات ـكما أمرتـ إلى محل الصاغة في شارع لاباي.

- ما الذي حدث إذن؟

- لا أعرف ماكسيم، أشعر بخوف شديد.

- لا داعي لخشيتك، ولكني أعترف أن الوضع خطير، ماذا يعرف؟ أين يختبئ؟ لا نعرف شيئًا سوى أن قواه تزداد في الظلال، لا يخونه حدسه أبدًا.

- ماذا ستقرر؟

- أقرر أن نلتزم بأقصى درجات الحذر يا كلوتيلد، من وقت طويل كنت أفكر في تغيير محل سكني، ونقله إلى الجزيرة المعزولة التي أخبرتك عنها، تدخُّل هولمز سرَّع اتخاذي للقرار قليلًا ليس إلا.

لبرهة ساد الصمت، ثم أردف لوبين:

- عندما يظهر رجل مثل هولمز على الساحة، يجب أن نعترف بخطورة حضوره، وأن النهاية ستحضر في رحاله؛ لذا لقد أعددت كل شيء، بعد غد الأربعاء، ستتم إجراءات الانتقال، وسينتهي هذا العبث. في غضون ساعتين سأغادر بعدما أمحي كل الآثار التي تدل على وجودنا معًا، الأمر ليس هينًا؛ لذا من الآن فصاعدًا...

تردد لوبين في الحديث، فحثته كلوتيلد قائلة:

- ماذا؟

- علينا ألّا نلتقي، لا يمكن أن نسمح أن يرانا شخص معًا يا كلوتيلد، أرجوكِ ألّا تخرجي من منزلك، أنا غير قلق على نفسي، لكني أخشى من كل شيء حين يتعلق الأمر بك.

- من المستحيل أن يصل الإنجليزي إليَّ.

- كل شيء ممكن في حضرة هولمز؛ لهذا علينا أن نحذر، حين حضرت إلى الفندق أبحث في أوراق السيد ديتان القديمة، أحسست بشيء غير عادي، كان هناك ظل يتتبعني عن قرب، شعرت أنه يراقبنا. هذه أمور أستشعرها حين تحوم حولي، غريزتي لا تخطئ أبدًا.

قالت كلوتيلد بصوت حازم عجز عن إخفاء لمحة حزن صادقة:

- في هذه الحالة ماكسيم، عليك أن ترحل، سأبقى قوية، وسأنتظر حتى ينجلي الظلام، وداعًا ماكسيم.

لثمت شفتاه طويلًا، ثم دفعته إلى الخارج في جزع، سمع هولمز أصواتهما وهي تخفت حتى اختفت تمامًا.

مدفوعًا بالحماس، يتجرأ أن يتصرف بعد ما جناه من معلومات، بدأ هولمز يبحث عن مخرج آخر لهذا السرداب، حتى وجد غرفة أخرى في السرداب تفضي إلى درج مختلف عن هذا الذي دلف منه، وبينما يصعد هولمز الدرج سمع صوت

جلبة تأتي من أعلى، تتبع الصوت حتى وصل إلى نهاية الدرجات ليجد بابًا خفيًّا، وراء الباب وصل هولمز إلى مكان مألوف الأثاث، كان هولمز يقف في مكتبة السيد ديتان وليس مكانًا غيرها.

حدَّث هولمز نفسه قائلًا:

«ممتاز! رائع! الآن أفهم كل شيء، مخدع كلوتيلد ـلنقل السيدة الشقراءـ يتصل بإحدى الشقق في المنزل المجاور لفندق إقامتها، وهذا المنزل يطل على شارع مونتشا الذي ـعلى ما أذكرـ يوازي لشارع الفندق.. يا لها من خطة! هذا يجعلني أفهم كيف تصل الآنسة كلوتيلد ديتان إلى حبيبها، بينما تحتفظ بسمعة امرأة لا تغادر منزلها أبدًا».

دقائق مرت وهولمز يحادث نفسه ويفسر ما فهمه:

«الآن أيضًا أفهم كيف ظهر لوبين إلى جواري ليلة أمس وأنا أراقب ديتان وابنته، عبر هذا السرداب الآخر بين الشقة المجاورة والمكتبة، سراديب جديدة، بلا شك سيكون ديتان هو المعماري لهذه البنايات. ربما من الأفضل أن أستغل وجودي في مكتبة ديتان، وأبحث بين دفاتره عن منازل أخرى لها نفس الاتصال».

مكث هولمز في المكتبة متخفيًا خلف ستائر النافذة حتى حل المساء وجاء عامل الفندق ليضيء الثريات، مرت ساعة أخرى تأكد هولمز من خلو المكتبة وحمل أحد المشاعل متجهًا إلى خزانة أوراق السيد ديتان التي يعلم أنها تحوي أوراقه القديمة، وملفات عن إنجازاته المعمارية، ودفاتر الحسابات، في قاع الخزانة وُضِعت سلسلة من السجلات مرتبة حسب الأقدمية.

حمل الإنجليزي سجلات السنوات الأخيرة، وبدأ يبحث في صفحة الفهرس عن حرف الألف، حتى وجد اسم أرمينجي إلى جواره رقم الصفحة ٦٣، قلَّب هولمز الصفحات حتى وصل للصفحة ٦٣ ووجد:

«أرمينجي، ٤٠ شارع شالجرين».

بدأ هولمز يقرأ تفاصيل الأعمال التي أُجرِيت لهذا العميل من أجل إنشاء مبناه، ووجد في الهامش ملحوظة: «انظر ملف م. ب».

حدَّث هولمز نفسه قائلًا:

«الآن أفهم جيدًا، ملف م. ب، هذا المهم الآن. حين أصل إليه ربما سأعرف محل سكن السيد لوبين».

قضى هولمز الأمسية كلها يبحث عن هذا الملف بين أرفف المكتبة الواسعة، ولم يكتشف الملف الهام إلا مع أول خيط من النهار، يتكون الملف من خمس عشرة صفحة، صفحة مخصصة للسيد أرمينجي، شارع شالجرين، وأخرى عن الأعمال المنجزة لصالح عقار السيد فاتينل ٢٥ شارع كالبيرون، وصفحة أخرى

تسرد تفاصيل الأعمال المنجزة للبارون دوترك ١٣٤ جادة هنري مارتن، وأخرى لقصر كروزون، والإحدى عشرة صفحة الأخرى عن مبانٍ متفرقة في باريس.

نسخ هولمز قائمة المباني الأحد عشر الأخرى والعناوين، وأعاد الملف إلى موضعه، ثم فتح إحدى النوافذ، وقفز إلى الحديقة النائمة.

☆ ☆ ☆

في غرفته في الفندق أشعل هولمز غليونه وعلى وجهه علامات الجدية اللازم في مثل هذه المواقف، نفث الدخان محدثًا غيمة غشت الحجرة، وبدأ يدرس ما توصل إليه من نتائج، م.ب. من المؤكد تشير إلى ماكسيم برموند؛ أي أرسين لوبين، في تمام الثامنة أرسل إلى جانيمار:

«سأمر اليوم ـبلا شكـ على شارع بيرجولي، وسأعهد إليك بالقبض على شخص بالغ الأهمية. على أي حال، امكث عندك مستعدًّا هذه الليلة، وغدًا الأربعاء حتى منتصف النهار اهتم بإعداد عشرات من الرجال لهذه المهمة».

هبط هولمز إلى الشارع، وانتقى سيارة أجرة تفرَّس في وجه سائقها فلمس فيه الذكاء والحيلة، طلب منه أن يوصله إلى ميدان مالشيب، ووقف على مقربة من فندق ديتان، ثم أمر السائق:

- سيدي، أرجوك أن تطفئ محرك السيارة. بعد ساعة ونصف أدِر المحرك فور رؤيتي واستعد للذهاب لشارع بيرجولي.

ترجل هولمز من العربة ورفع ياقة معطفه يقي وجهه شر الرياح الباردة، أصابه التردد وهو يعبر الطريق نحو الفندق. أليس من الغباء أن يهتم بالسيدة الشقراء، بينما يعلم بخطة لوبين للهرب؟ ألم يكن من الأفضل البحث في قائمة المباني وتقصي الخيوط للوصول لمنزل عدوه؟

عنف نفسه بصوت مرتفع:

- كف عن السخافات هولمز، فور أن ألقي القبض على السيدة الشقراء، سأمسك بزمام كل الأمور.

دق هولمز جرس جناح السيد ديتان، ودلف بعدما استقبله الخادم، السيد ديتان يجلس في المكتبة، ماذا يفعل؟ استغرق الأمر لحظة من التفكير، ثم قرر هولمز أن يصعد إلى غرفة كلوتيلد، لكن كلوتيلد دلفت إلى المكتبة ألقت تحية الصباح على والدها، وحملت كتابًا إلى غرفة المعيشة لتقرأ.

رآها هولمز من موضعه منهمكة في القراءة، انتظر دقائق يبحث عن حيلة ليدلف إليها، ذهب إلى المكتبة بعدما حيّا السيد ديتان بصفته سكرتيره الجديد ستيكمان، اختار أحد الكتب وقال لديتان:

- هذا كتاب طلبت مني الآنسة ديتان إحضاره إليها حالما أحصل عليه.

أومأ ديتان في عدم اكتراث، وحمل هولمز الكتاب نحو غرفة المعيشة، وقف

أمام كلوتيلد في زاوية لا يراه منها والدها، وقال:

- أنا السيد ستيكمان، سكرتير السيد ديتان الجديد.

علَّقت كلوتيلد غير مهتمة:

- آه! لقد استبدل والدي سكرتيره؟

- أجل يا سيدتي، أود لو نتحدث قليلًا.

- تفضل بالجلوس سيدي، كدت أنتهي.

خطت كلوتيلد بعض كلمات على ورقة كانت تكتبها، وقَّعت الخطاب، وضعته في المظروف، ثم اتجهت إلى الهاتف وطلبت التحدث إلى الخياطة، وأكدت عليها أن تنتهي سريعًا من المعطف؛ لأنها في حاجة ماسة إليه خلال رحلتها، في النهاية التفتت نحو هولمز:

- كُلي آذان مصغية يا سيدي، ولكن ألا يمكن أن نجري هذه المحادثة أمام والدي؟

- لا آنستي، وأرجو منكِ أيضًا أن تخفضي صوتك قليلًا، من الأفضل ألا يسمعنا السيد ديتان.

- الأفضل لصالح مَن يا سيدي؟

- لصالح آنستي.

- لا أعتقد أن هناك حديثًا لا يخصني ولا يصح لوالدي أن يسمعه.

- على العكس يا سيدتي..

فركت كلوتيلد يدها في عصبية، وقالت بأعين تفيض بالفضول:

- تحدَّثْ أيها السيد.

- في البداية اعذريني إذا أخفقت في الوصول إلى عدة نقاط فرعية، ولكني أضمن لكِ دقة هذه الحوادث التي سأعرضها.

- لا مزيد من الإطالة أرجوك، اطرق صلب الموضوع.

في هذه اللحظة تأكد هولمز من استيلائه على اهتمام السيدة الشابة، فأردف:

- كما تشائين، منذ خمس سنوات، السيد والدك قابل السيد ماكسيم بيرموند الذي قدَّم نفسه على أنه مقاول.. أو معماري لا أعرف على وجه الدقة، ولكن المهم أن السيد ديتان أُعجِب بشدة بهذا السيد الشاب، وبسبب صحته المتردية التي منعته من مباشرة أعماله كما أعتاد، عهد إلى السيد بيرموند إدارة عملية البناء للعديد من الزبائن القدامى.

توقف شرلوك عن حديثه حين لاحظ زيادة شحوب كلوتيلد، لكنها بادرته مصطنعة بأقصى درجات الهدوء:

- أنا لا أعرف تلك الأمور التي تذكرها يا سيدي، ولا أرى سببًا لأهتم بها.

- حسنًا سيدي، ربما يجب أن أخبرك أن هذا السيد ماكسيم بيرموند هذا اسمه الحقيقي أرسين لوبين، الشهير أرسين لوبين.

- مستحيل! أرسين لوبين؟! تخبرني أن ماكسيم بيرموند هو أرسين لوبين؟!

- آنستي، أقسم لكِ بشرفي على ما أقول، على أي حال بما أنكِ ترفضين فهم ما أُلمِّح به، لقد وجد أرسين لوبين صديقًا لإنجاز مشروعاته، ربما أكثر من مجرد صديق، بل حبيبة متفانية مغرمة به حد العمى.

نهضت دون أن تبدي أي ضيق من قوله لدرجة أدهشته، وقالت:

- أنا لا أفهم الغرض وراء سلوكك الغريب هذا سيدي، وعلى أي حال أريد أن أتجاهله تمامًا، وأطلب منك الآن أن تغادر على الفور من هنا.

باستسلام ودهاء قال هولمز:

- حسنًا، على أي حال لم يكن لديَّ النية لأمكث هنا إلى الأبد، كل ما في الأمر أنني قررت ألَّا أغادر بمفردي.

- برفقة مَن ستغادر يا سيدي؟!

- برفقتك.

- برفقتي؟

- أجل يا آنستي، سنغادر معًا هذا الفندق، وستتبعيني دون اعتراض، دون أن تنبسي ببنت شفة.

ساد الهدوء لحظات بينهما، هدوء غريب في مثل هذه اللحظات المتوترة بين غريمين، لو تابع المرء هذا النقاش الهادئ، ونبرات الصوت الخفيضة لظن أنه نقاش بسيط بين اثنين اختلفا في الرأي، ما وشى بتوتر كلوتيلد غير حركة ساقها المتوترة، بينما هولمز سحب ساعة الجيب، وقال:

- إنها العاشرة والنصف، في خلال خمس دقائق سنغادر.

- وإلّا؟

- وإلّا سأذهب للسيد ديتان وأقص على مسامعه كل ما أعرف.

- وماذا تعرف؟

- الحقيقة. سأخبره عن حقيقة ماكسيم بيرموند، وعن الحياة المزدوجة لشريكته.

- أي شريكة؟!

- التي نطلق عليها السيدة الشقراء.. أو التي تتخفى في هيئة سيدة شقراء.

- وما الأدلة التي ستعرضها على أبي؟

تنفس هولمز بعمق ليستعد في كشف كل أوراقه، وأردف:

- سأصطحبه إلى شارع شالجرين، وسأصعد به إلى السرداب الذي يستغله أرسين لوبين في أعماله، ليعبر من العقار ٤٠ إلى العقار ٤٢، السرداب الذي لاحقتكما فيه الليلة قبل الماضية.

بثبات شديد قالت كلوتيلد:

- ثم؟

- ثم سأصطحب السيد ديتان إلى منزل المحامي ديتنان، وسنهبط من سلم الخدم الذي هرب منه أرسين لوبين، وسنبحث أيضًا عن السرداب الذي يقود إلى المنزل المجاور، هذا المنزل الذي يطل على جادة باتينجول وليس شارع كالبيرون، أليس كذلك؟

استمرت كلوتيلد في ثباتها العنيد، وتساءلت:

- وبعد؟

- سنذهب إلى قصر كروزون، وهناك سيكون من السهل أن يشهد السيد أعمال إعادة الإنشاء التي أجرِيت تحت إشراف ماكسيم أو أرسين لوبين، وسنسعى لكشف تلك الممرات السرية التي استغلها لوبين، الممرات التي سمحت للسيدة الشقراء بالتسلل في المساء إلى غرفة الكونتيسة لتسرق الماسة الزرقاء الموضوعة فوق الموقد، ثم بعد أسبوعين تتسلل مرة أخرى إلى غرفة القنصل بلشين وتخبئ الماسة في أغراضه.. فعل غريب منكِ أعترف، ولكن ربما انتقام من المرأة التي حرمتكما الماسة.

- ماذا أيضًا؟

استطاعت الفرنسية أخيرًا من إثارة غضب الإنجليزي، فقال بنبرة وشت بما يعتمل صدره من ضيق:

- سأصطحب السيد ديتان إلى ١٣٤ جادة هنري مارتن، وسنبحث في فندق البارون دوترك كيف...

هنا تمكن هولمز أخيرًا من إثارة مشاعر كلوتيلد؛ فقالت بنفاد صبر:

- اخرس.. اخرس.. تجرؤ على القول إنني... أنت تتهمني...

تلعثمت الكلمات على لسان كلوتيلد؛ فأكمل هولمز نيابةً عنها:

- أتهمك بقتل البارون دوترك.

- لا.. لا، ما تقوله عارٍ تمامًا من الصحة.

- بلى، لقد قتلتِ البارون دوترك آنستي، وصلتِ إليه منتحلة شخصية ممرضة تُدعَى أنطوانيت بريات، وأنتِ مَن قتلتِه.

بصوت منخفض يتضرع مختنقًا بالعبرات قالت كلوتيلد:

- أرجوك أن تصمت يا سيدي، أتوسل إليك، بما أنك تعرف الكثير بالتأكيد تعرف أنني لم أغتَل البارون.

- لا أتهمك بتعمد قتله آنستي، عرفت من الأخت أوجست أن نوبات جنون كانت تسيطر على البارون دوترك من حينٍ لآخر، ووحدها كانت قادرة على السيطرة عليها؛ لذلك في غيابها أوكلت تلك المهمة لكِ، ومن الواضح أنكِ عجزتي عن السيطرة على نوبات جنونه.

تمهل في حديثه لحظات، وأردف:

- لذا وفي أثناء دفاعكِ الشرعي عن نفسك، اضطررتِ لضربه، كنتِ مذعورة حين سقط مغشيًا عليه والدماء تسيل من رأسه؛ لذا هربتِ دون أن تنزعي الماسة من يده، ذهبتِ فورًا لإحضار أحد شركاء لوبين ـخادم في المنزل المجاورـ بالتأكيد عبر السراديب كانت رحلتك ممتعة، ثم عُدتِ معه لترتيب الغرفة كما كانت، مع هذا لم تتجرئي على انتزاع الماسة من يد جثة البارون، أعلم ما حدث يا سيدتي؛ لذلك أعي تمامًا أنكِ لم تتربصي للبارون وتخططي لقتله، على أي حال؛ يداكِ سددت له ضربة قاتلة.

أسندت كلوتيلد رأسها بيدها الطويلة التي ازدادت شحوبًا وهي تنصت لكلمات هولمز، ثم كشفت عن وجهها الذي بدا عليه علامات جزع واضحة، وقالت:

- هذا كل ما ستخبره لأبي؟

- أجل، وسأضيف أنني أملك شهودًا على أقوالي، الآنسة جربو التي قابلت السيدة الشقراء، والأخت أوجست التي جمعتها علاقة وثيقة بالآنسة أنطوانيت برات، والكونتيسة التي تعرف السيدة دي ريل.

اتكأ هولمز إلى يد مقعده، وأتم حديثه بهدوء:

- وهذا كل ما سأقوله للسيد ديتان.

تحولت ملامح كلوتيلد المرتعدة إلى نظرات مُهدِّدة، وقالت بجفاء:

- لا تجرؤ.

نهض هولمز متجهًا نحو المكتبة حين أوقفته كلوتيلد:

- انتظِرْ دقيقة أيها السيد.

بدا عليها التفكير، ربما كانت تزن ما ستلفظه من تساؤل، ثم بهدوء شديد عاد

إلى محياها قالت:

- أنت شرلوك هولمز، أليس كذلك؟

مقتضبًا جاء رد الإنجليزي:

- بلى.

- إذن ماذا تُريد مني؟

- لا شيء، مواجهتي مع أرسين لوبين وليست معك، ولكن عليَّ أن أخرج من هذه المواجهة منتصرًا؛ لذلك أراكِ رهينة ثمينة تمنحني ميزة كبيرة على خصمي؛ لذا سترافقيني، آنستي، وإليكِ كلمة شرف أنني سأعهد إليكِ لأحد أصدقائي، وبمجرد الوصول إلى هدفي تستردين حريتك.

- هذا كل شيء؟

- أجل، لن تتدخل أبدًا شرطة بلادك في هذا الأمر.

بدت حازمة ومع ذلك طلبت لحظة أخرى لتسترخي قليلًا وتفكر، أغلقت عينيها، وتطلع هولمز إليها مستغربًا هدوءها المفاجئ، تكاد تكون غير مبالية بالأخطار التي تحدق بها.. فكر الإنجليزي أنها تعتمد على حماية لوبين؛ فهي لا تشعر بأي خوف في صحبته، بالنسبة لها لوبين محصن من الأذى، وهي برفقته محصنة تمامًا.

- آنستي، لقد منحتكِ مهلة خمس دقائق في بداية جلستنا، مرت نصف ساعة بالفعل.

- أتسمح لي أن أصعد إلى غرفتي وأحضر أغراضي؟

- كما تشائين يا سيدتي، ربما يمكنني انتظارك في شارع مونتشانين حيث يفضي سرداب غرفتك، أملك معرفة وطيدة بالسيد جانيو..

فهمت كلوتيلد تهديده؛ فقالت بخوف واضح:

- آه، أنت تعرفه؟

- أعرف الكثير.

- حسنًا، لنرحل إذن.

أحضر هولمز قبعته ومعطفه، وقال:

- من الأفضل أن تمنحي السيد ديتان سببًا مقنعًا يفسر غيابك، سببًا يبرر أنكِ ربما تقضين بعض الأيام خارج المنزل.

- أعتقد ألّا داعي لذلك، سأعود هنا قريبًا.

لقد صعقه مجددًا نظرتها اللامبالية، عاد التحدي من جديد ساخرًا، والابتسامة

ترتسم على وجهيهما على حد سواء، سألها هولمز في فضول:

- كيف تثقين به لهذا الحد؟

أعرضت عن الرد؛ فأردف:

- ترين كل ما يفعله جميلًا أليس كذلك؟ كل ما يريده تحققينه له، توافقين على التنازل عن مبادئك لأجله، كيف تتصرفين هكذا؟ دائمًا مستعدة لتفتديه بروحكِ!

بنبرة اهتزت من فرط الشغف؛ أجابته كلوتيلد:

- أحبه.

- وهل تعتقدين أنه سينقذك؟

هزت كتفيها في عدم اكتراث وتحركت نحو والدها دون أن تجيب، فتبعها هولمز في صمت حتى أعلمت والدها أنهما سيذهبان إلى المكتبة العامة، تساءل والدها:

- ستعودين على الغداء؟

- ربما، ولكن على الأرجح لن ألحق موعد الغداء.. على أي حال لا تقلق.

ابتعدا قليلًا عن والدها فأعلنت لهولمز بحزم:

- أنا تحت أمرك سيدي.

- لا خطط خفية؟

- أبدًا، سأتبعك كقطة تتبع صاحبها.

- إذا حاولتِ الهرب سأصرخ، وأنادي الشرطة حينها سيكون مكانك السجن.. لا تنسي أن السيدة الشقراء مطلوبة للعدالة.

- أقسم لكَ بشرفي أنني لن أحاول أبدًا الهرب.

- أثق بكِ.. دعينا نرحل.

كما خطط هولمز، غادر رفقة كلوتيلد، في الميدان كانت السيارة الأجرة تنتظره، وقد أدار السائق المحرك فورما رآه، الغريب أن السائق ارتدى قبعة حجبت الكثير من ملامحه، على أي حال طلب من كلوتيلد أن تصعد أولًا ثم صعد إلى جوارها، وسارت بهم العربة تلتهم الطرقات.. تعبر جادة أوتش إلى جادة جراند آرم، بينما هولمز غارقًا في أفكاره:

«سأترك الفتاة لدى جانيمار، ولكن ماذا سأخبره عن هويتها؟ لا، سيقودها مباشرةً إلى مركز الشرطة إذا عرف هويتها وسيدمر كل خططي، ربما عليَّ أن أدقق في ملف ماكسيم بيرموند، وأشرع في مطاردة لوبين. هكذا سأقابل جانيمار الليلة أو غدًا صباحًا على أقصى تقدير وقد قبضت على أرسين لوبين

وعصبته».

فرك يديه من فرط الحماس، سعيدًا بنشوة الاقتراب من صيده أخيرًا، لا مزيد من العقبات الخطيرة التي يمكن أن تفصل بينه وبين مبتغاه، قال بهدوء:

- اعذريني يا آنسة إذا أظهرت الكثير من الغبطة باحتجازك، لقد كانت المعركة مضنية، والنجاح فيها يرضيني بشكل خاص.

- نجاح ساحق يا سيدي، لك الحق الكامل في الابتهاج.

- أشكرك.

لاحظ هولمز أنهما يسيران في شوارع لا يعرفها؛ فقال بتوجس:

- يا له من أحمق! إلى أين يقودنا؟ ألم يسمعني هذا السائق؟!

في هذه اللحظة كانت السيارة قد غادرت باريس بالفعل وفي اتجاهها إلى نويي يا له من سائق أحمق فعلًا! شارع بيرجولي لم يكون سوى على بُعد حي من الفندق، كسر هولمز الصمت:

- أيها السائق، لقد اخطأت الطريق.. أخبرتك أن تتجه إلى شارع بيرجولي!

لم يجِبه السائق فكرر كلماته بصوت أعلى:

- أخبرتك أن تذهب بنا إلى شارع برجوليز.

مجددًا تجاهل الرجل كلام هولمز.

- آه! ربما إنك أصم يا سيدي أو تنوي بنا سوءًا.. ليس لنا شأن في هذا الطريق.. أنا آمرك أن تعود فورًا إلى شارع بيرجولي.

ما زال الصمت ذاته الذي أصاب الإنجليزي بمزيد من القلق، حانت منه التفاتة نحو كلوتيلد ليرى أعذب البسمات مرسومة على شفاه السيدة الشابة، بقلق متزايد اتضح في نبرته سألها:

- لماذا تضحكين! هذا لا يغير من الأمر شيئًا.

- بالتأكيد، لا يغير شيئًا البتة.

صعقته على الفور تلك الفكرة التي تسللت إليه.. اشرأب بجسده قليلًا ليفحص هذا السائق.. هذا الرجل كتفه أنحف قليلًا.. الموقف يزداد صعوبة.. عرق بارد يندى من جبين هولمز.. ساقه ترتجف في عصبية مفرطة.. عقله يفترض أفظع احتمالاته هذا الرجل هو أرسين لوبين.

- حسنًا سيد هولمز، أود أن أعرف رأيك في هذه النزهة الصغيرة!

- ممتعة عزيزي لوبين، حقًّا ممتعة.

ربما أصعب ما عايشه هولمز هو لفظ تلك الكلمات دون أن يبدي ارتعاشة غضب

في صوته، دون أن يطلق العنان للوحش الغاضب داخله، ولكن على الفور دون أن يفكر فاض غضبه وثورته في فعلٍ آخر، لقد أخرج مسدسه، وأشار به نحو الآنسة ديتان.

- توقف في الحال لوبين، وإلا ستتأذى الآنسة.

دون أن يلتفت إلى الوراء قال لوبين بهدوء وهو يزيد من سرعة السيارة:

- أوصيك أن توجه المسدس إلى خدها إذا كنت تعتزم الإيذاء فعلًا.

قالت كلوتيلد:

- ماكسيم، تمهل في سرعتك، الأرض زلقة، أنا خائفة جدًّا.

ما زالت تبتسم، بل تضحك، رغم الأخطار التي تحفها من كل جانب.

- توقف لوبين.. توقف الآن.. أنت على يقين أنني قادر على الإيذاء!

قرّب هولمز فوهة المسدس من شعرها، فهمست بهدوء عجيب:

- ماكسيم، أرجوك لا تتهور في سرعتك.. هكذا سنموت لا محالة.

وضع هولمز السلاح في جيبه وأمسك بمقبض الباب، كان على استعداد للقفز من هذه السيارة التي يقودها لوبين نحو الهاوية، قالت كلوتيلد بقلق:

- احذر يا سيدي.. هناك سيارة خلفنا.

نظر هولمز إلى الوراء كانت محقة، هناك سيارة تتبعهم بها رجال أربعة لهم وجه مثير للاشمئزاز..

فكَّر هولمز مجددًا ربما لا يمكنه أن يوفر لنفسه الحماية الكافية، عقد ذراعيه أمام صدره، في خضوع يصيب أولئك الذين ينقلب القدر ضدهم في اللحظات الأخيرة، بينما لوبين يعبر نهر السين وتلتهم العجلات الطريق، كان هولمز يجلس هادئًا يتسيد غضبه دون أدنى علامة على المرارة، ربما السائق المحترم الذي استعان به هذا الصباح كان شريكًا لأرسين لوبين! ربما حذَّر أحدهم أرسين لوبين، ولكن مَن؟! وممَّ؟! وكيف؟! لم يدع الفرصة لكولتيلد لتبقى وحدها منذ بدأ حديثه وحتى استقلا السيارة..

صفعته الذكرى.. المكالمة الهاتفية التي تحدثت فيها السيدة الشابة للخياط.. الآن يفهم.. لقد استشعرت الخطر قبل أن يُعرِّفها بنفسه، أحست أنه هولمز وليس سكرتير والدها الجديد؛ لذا استدعت مساعدة لوبين بأكثر الطرق دهاءً وخفية، تحت ستار الاتصال الطبيعي بالخياطة، بالتأكيد استخدمت في حديثها صيغة متفقًا عليها لتكشف أنها تحت تهديد ما.

ولكن كيف وصل أرسين لوبين بهذه السرعة، وكيف اشتبه في هذه السيارة الثابتة ومحركها المغلق؟! كيف رشا هذا السائق؟! على أي حال.. كل هذا لم يعد ذات أهمية، ما سحر لوبين حد تهدئة غضبه كان جلال هذه اللحظة، لحظة

فريدة من الإثارة جعلته قادرًا على سحق غضبه، والخضوع إلى بهاء تلك المغامرة التي أعادت له هولمز القديم.

كيف يواجه رجل تحت إمرته هؤلاء المخلصون؟ تمنحه امرأة في جمال وقوة كلوتيلد كل قلبها؟!

☆ ☆ ☆

عبروا نهر السين نحو سان جيرمان وأخذت السيارة تتباطأ قبل بلوغ سان جيرمان بخمسمئة متر تقريبًا، ثم جاءت سيارة أخرى وتوقفت السيارتان، لم يكن هناك أحد حولهم، وقال لوبين:

- سيد هولمز، أرجو أن تتحلى باللباقة الكافية وتنتقل إلى السيارة الأخرى، سيارتنا بطيئة بحق!

بتململ تساءل هولمز:

- ماذا في جعبتك؟

- اسمح لي أيضًا أن أعرض عليك تلك الشطائر.. أرجو أن تقبلها، مَن يعرف متى سنتناول العشاء!

نزل الرجال الأربعة ـالذي رآهم هولمز يلحقون بالسيارة حين فكَّر في القفزـ واقترب أحدهم، حين خلع نظارته الشمسية تعرف إليه هولمز على الفور، إنه مدير المطعم الهنجاري، قال لوبين للرجل:

- ستعيد هذه السيارة إلى السائق الذي استأجرتها منه، إنه ينتظر في شارع لوجندر، وادفع له مئة فرنك أخرى قد وعدته بدفعها حين أعيد له السيارة، آه، كدت أنسى.. أرجو أن تمنح نظارتك للسيد هولمز.

جلس لوبين على عجلة قيادة السيارة الجديدة، هولمز إلى جواره وإلى خلفه مباشرة جلس أحد رجال لوبين، لم يبالغ لوبين بقوله إن السيارة الجديدة أعلى سرعة، لقد انطلقت بسرعة فائقة، بدت السيارة كأنها تلتهم الأفق، كل ما كان قريبًا أدركته، وما كان بعيدًا أصبح قريبًا؛ المنازل، والسهول، والخمائل تمر إلى جوارهم مر السحاب.

لم يتبادل هولمز ولوبين أي حديث؛ رغم ضوضاء الفكر التي تضطرب في عقليهما؛ عبرت السيارة عدة مدن، حتى وصلوا إلى ضفاف السين، في الأفق بدا يخت عند أحد الأرصفة، زجاجه الرمادي حجب رؤية ما وراءه، توقفت السيارة بعدما عبرت ما يقرب أربعين منطقة في ساعتين فقط، اقترب رجل يرتدي سترة زرقاء وقبعة نحاسية وحياهم، رد لوبين التحية قائلًا:

- ممتاز كابتن، لقد استلمت الرسالة بالفعل؟

- بالطبع.

- هل إيروندل جاهزة؟

- أجل يا سيدي.

- في هذه الحالة.. سيد هولمز أتسمح؟

التفت الإنجليزي حوله ليرى جماعة من الناس يجلسون على شرفة مقهى قريب، وفي لمح البصر اقترب أحدهم من هولمز، إذا حاول الهرب سيتم القبض عليه بلا شك؛ لذا في هدوء تبعه لوبين نحو مرفأ اليخت، ثم اصطحب لوبين إلى قمرة القيادة.

كانت نظيفة، وواسعة، ومرتبة بدقة، ومطلية بالذهب اللامع، تأكد لوبين من إغلاق الباب، وقال لهولمز، دون ديباجة، وبنبرة أقرب للتهديد:

- ماذا تعرف بالتحديد؟

- كل شيء.

- كل شيء؟ لا أريدك أن تفصل لي ما تعرفه.

لقد تلاشت تلك النبرة المهذبة التي تميل أحيانًا لسخرية لاذعة، الآن صوت لوبين أشبه لصوت عسكري لا يأمر إلا ويُطاع، حتى لو كان هذا الأمر لشرلوك هولمز، استمر الصمت بينهما يقيس كل منهما رد فعل الآخر، حتى أردف لوبين بنبرة غاضبة:

- لقد عرقلت طريقي عدة مرات أيها السيد، أكثر من المعتاد، في الحقيقة أنا لا أملك الوقت لأضيعه في إحباط الفخاخ التي تضعها أمامي؛ لذا أحذرك أن سلوكي معك سيعتمد على إجابتك عن سؤالي: ماذا تعرف بالتحديد؟

كرر هولمز إجابته بلباقة وهدوء شديد:

- كل شيء سيدي.. أكرر لك.. كل شيء.

بلهجة رقيقة قال أرسين لوبين:

- سأخبرك بنفسي ما الذي تعرفه، أنت تعرف أنني أنتحل شخصية رجل لا وجود له يُدعَى ماكسيم بيرموند، وأنني أشرفت على ترميم وإعادة بناء خمسة عشر منزلًا بناها السيد ديتان.

- أجل.

- من ضمن تلك المنازل الخمسة عشرة أنت تعرف معرفة جيدة أربعة منازل فقط.

- أجل.

- بينما تملك قائمة بالأحد عشر منزلًا الآخرين.

- أجل.

- لقد سرقت تلك القائمة تلك الليلة من السيد ديتان بلا شك.

- أجل.

- ربما أيضًا تفترض أن من بين تلك المنازل الأحد عشر، هناك منزل أقطنه، أحتاج إليه لي ولأعواني لنتمكن من استغلال سراديبه السرية، وعُهِد إلى جانيمار بمهمة البحث عن هذا المنزل واكتشافه قبل تقاعدي.

- لا.

- ماذا تعني بلا؟

- أعني أنني أعمل بمفردي، وأنني سأجد ـبمفرديـ هذا المنزل.

- إذن ليس لديَّ ما أخشاه، بما أنك بين يدَي.

بهدوء غامض كرر هولمز الكلمات ضاغطًا على مخارج ألفاظه:

- أجل، ليس لديك ما تخشاه وأنا بين يديك.

بحدسه المعهود تساءل لوبين في مكر:

- ألن تبقى بين يدَي؟

- لا.

اقترب أرسين لوبين من الإنجليزي، وأحكم قبضته على كتفه قائلًا:

- اسمع أيها السيد، ليس لديَّ المزاج الرائق لحس الدعابة، وأنت لست في وضع ـلسوء حظكـ يسمح بمراوغتي؛ لذا دعنا ننهي هذا الأمر.

- لننهِه.

- ستمنحني كلمة شرف أنك لن تحاول الهرب من هذا اليخت قبل أن يصل إلى المياه الإنجليزية.

بنبرة بدت لا تُقهَر قال هولمز:

- أقسم لك بشرفي أنني لن أحاول البحث عن أي وسيلة للهرب.

- ولكن يا سيدي تعرف أنني لا أملك الوقت لتخالف أوامري، هؤلاء الرجال يطيعونني بشكل أعمى، إشارة واحدة مني ويضعون قيودًا في يديك..

- القيود تتحطم.

استمر تهديد لوبين:

- ويلقون بك على بعد عشرة أميال من الشاطئ.

- أنا سباح ماهر.

بابتسامة قلقة قال لوبين:

- حسنًا، ليعذرني الرب على غضبتي، اعذرني سيدي.. دعني أعيد صياغة قولي، أنت تعرف أنني ورفاقي نبحث عن أفضل طرق السلامة لنا.

- أعرف، ولكنها جميعًا لن تجدي نفعًا.

- حسنًا، ولكن لا ضير إذا اتخذناها.

- هذا حقك يا سيد لوبين.. دعنا ننهي هذا الأمر.

فتح لوبين الباب ونادى القبطان واثنين من البحارة أحكموا قبضتهم على الإنجليزي، وبعد تفتيشه قيَّدا ساقيه وربطوه في أحد الأركان في القمرة، بابتسامة ساخرة قال لوبين:

- اعذرني سيد هولمز، في ظل تلك الظروف الاستثنائية وبالنظر إلى خطورتك المعروفة؛ اسمح لي أن أقيدك حتى تصل سالمًا إلى أرض الضباب.

انصرف البحاران، وقال لوبين للقبطان:

- سيدي القبطان، أرجو أن يرافق أحد رجال الطاقم السيد هولمز، كما أرجو لو تمر ـكلما أمكنكـ لتتأكد من سلامته، لتعامله بكل الاحترام اللازم، إنه ليس سجينًا بل ضيفًا، كم الساعة الآن سيدي؟

- الثانية وخمس دقائق.

تأكد لوبين من ساعته، وأردف:

- الثانية وخمس دقائق بالفعل.. حسنًا، كم من الوقت يلزمك لتصل لمرفأ ساوثهامبتون؟

- تسع ساعات على أقصى تقدير.

- لتصل في إحدى عشرة ساعة.. لا يجب أبدًا أن ترسو بهذا اليخت قبل رحيل السفينة التي تغادر ساوثهامبتون في منتصف الليل نحو فرنسا لتصل في الثامنة صباحًا، أنت تعي هذا جيدًا أيها القبطان أليس كذلك؟

صمت لوبين للحظات ليضيف مزيدًا من الأهمية على حديثه، وأردف:

- سيصبح الأمر في غاية الخطورة علينا جميعًا لو وصل السيد هولمز إلى فرنسا على متن تلك السفينة غدًا صباحًا، لا يجب أن تصل إلى ساوثهامبتون قبل الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

بصرامة عسكرية أجاب القبطان:

- عُلِم سيدي.

وجَّه لوبين حديثه إلى هولمز قائلًا:

- أودعك سيدي، على أمل أن نلتقي العام المقبل.. في هذا العالم، أو ربما عالم آخر.

بنبرته الإنجليزية الباردة قال هولمز:

- ألقاك غدًا، لوبين.

بعد بضع دقائق سمع هولمز محرك السيارة يهدر بعيدًا، وفي الآن ذاته اليخت يشق رحلته الطويلة نحو المياه الإنجليزية، ليعبر اليخت مصب نهر السين نحو البحر المفتوح بعد ثلاث ساعات، ويغط هولمز في نومٍ هادئٍ، في صباح اليوم التالي، والعاشر والأخير في تلك المعركة بين أرسين لوبين وشرلوك هولمز، عنونت صحيفة إيكو دي فرانس ساخرة:

«أمس أصدر أرسين لوبين أمرًا بالطرد ضد شرلوك هولمز، المحقق الإنجليزي أُجبِر على مغادرة البلاد بعد ظهر أمس، وتم تنفيذ الأمر في اليوم ذاته، وصل هولمز إلى أرض ساوثهامبتون الإنجليزية في الواحدة من صباح اليوم».

☆ ☆ ☆

الفصل السادس
اعتقال أرسين لوبين.. مجددًا!

في تمام الثامنة صباحًا، توقفت اثنتا عشرة سيارة في شارع كريفو بين جادة بوا دو بولونيا وجادة بوجود، غادر السيد فيلكس ديفاي شقته في الطابق الرابع من العقار رقم ٨، في الآن نفسه الذي -عن طريق الصدفة- نقل السيد دوبريو الخبير في الأثاث، والذي امتلك الطوابق الخمسة في العقار رقم ٨ والعقارين المجاورين، مجموعة أثاث من منزله.

هناك تفصيل لوحظ في الحي، ولكن لم يُذكَر إلا في وقت لاحق، لم تحمل أي من السيارات الاثنتي عشرة اسم وعنوان الناقل، ولم يبقَ أي من الرجال الذين رافقوا السيارات لوقت طويل، لقد عملوا بشكل جيد لدرجة أنه بحلول الساعة الحادية عشرة كان كل شيء قد انتهى، لم يبقَ شيء سوى هذه الكتل من الورق والخرق في زوايا الغرف الفارغة.

السيد فيلكس ديفاي شاب أنيق يرتدي أحدث الصيحات الأنيقة، ولكنه يحمل دائمًا قضيب تدريب وزنه يشير إلى عضلات مالكه الاستثنائية، في هدوء جلس على مقعد عند تقاطع جادة دو بوا المقابل لشارع بيرجولي، إلى جوار امرأة ترتدي ملابس تشي بانتمائها للطبقة البرجوازية، وتقرأ إحدى الجرائد، بينما طفلها يلعب بمجرفته في الرمال.

قال فيلكس ديفاي دون أن ينظر للمرأة:

- جانيمار؟

- غادر هذا الصباح في التاسعة.

- إلى أين؟

- إلى مركز الشرطة.

- بمفرده؟

- بلى.

- لا أخبار جديدة ليلة أمس؟

- على الإطلاق.

- ما زالوا يثقون بك في المنزل أليس كذلك؟

- قطعًا، أُقدِّم خدماتي للسيدة جانيمار، بينما تقص عليَّ كل ما يفعله زوجها.. قضينا الصباح معًا نتحدث بشأنه.

- هذه أخبارة حسنة، استمري في الحضور إليها وزيارتها في الحادية عشرة كل يوم، حتى تصلك أخبار جديدة.

نهض وسار الطريق إلى شارع دوفين حيث المطعم الصيني، تناول هناك وجبة من بيضتين وخضراوات وفواكه أُعدِّت على الطريق الصينية، ثم عاد إلى شارع سيرفو وقال لحارس العقار:

- سألقي نظرة على... وأعيد لك المفاتيح.

أنهى تفتيش الغرفة التي كانت في وقت سابق غرفة عملياته، ثم اتجه إلى المدفأة، نزع أنبوب الغاز، أزال عنه القابس النحاسي، وثناه قليلًا وأطلق صفيرًا قصيرًا، مرت لحظة ثم تردد صفير مماثل من الجهة الأخرى، قرَّب ديفاي الأنبوب من فمه، وهمس:

- دوبريو، هل من أحد؟

- لا أحد.

- يمكنني أن أصعد؟

- أجل.

أعاد الأنبوب إلى موضعه وأغلقه بالمقبس النحاسي ليتركه في نفس الحالة التي كان عليها وحدَّث نفسه قائلًا:

«إلى أين سيصل تطوُّر الإنسان، هذا القرن ثري بالاختراعات الصغيرة التي تجعل الحياة ساحرة، ومرحة جدًّا، خصوصًا عندما تعرف كيف تستغلها مثلي».

أدار فيلكس ديفاي أحد قوالب المدفأة الرخامية، فتحركت لوحة الرخام التي تغطي المدفأة، وانزلقت الأشياء الموضوعة فوقها، لتُفتَح فوهة لم توجد من قبل، وتبرز بداية درجات في جسم المدفأة ذاته، نظيفة مقولة بعناية بالخزف الأبيض.

صعد ديفاي الدرجات حتى الطابق الخامس، ليعبر من فوهة مشابهة عند مدفأة في إحدى غرف الطابق الخامس، ويجد السيد ديبوريو في انتظاره، سأله ديفاي:

- انتهى الأمر؟

- انتهى.

- أخليت الطابق؟

- تمامًا.

- العمال؟

- فقط رجال الحراسة الثلاثة.

- لنتحرك إذن.

تحرك الرجلان داخل الفوهة صعودًا نحو طابق آخر؛ حيث كان هناك ثلاثة رجال أحدهم يرقب الأجواء من النافذة، سأل ديفاي:

- هل من جديد؟

- لا أيها الزعيم.

- الشارع هادئ؟

- بلى.

- عشر دقائق أخرى، وسأرحل إلى الأبد وأنتم كذلك، حتى تنقضي تلك الدقائق أخبِرْني إذا شعرت بأدنى حركة مشبوهة في الشارع.

- لا أحرك إصبعي عن جرس الإنذار أيها الزعيم.

- ديبريو، هل تأكدت من تنفيذ كُل ما أمرتك به؟

- بالتأكيد سيدي، كل شيء يسير على خير ما يُرام.

- عظيم، لنرتَح.

هبط الرجلان مرة أخرى إلى شقة فيلكس ديفاي، وهناك بعدما أعاد ديفاي غلق الفوهة قال مبتهجًا:

- ديبريو، أخبِرْني مَن يمكنه اكتشاف تلك الخدع المثيرة للإعجاب! شبكة من الأنابيب الصوتية! أبواب سرية خلف المدافئ، أجهزة تواصل لا سلكية، مخطط لا يمكن أن يُكشَف.

- إنها عبقرية أرسين لوبين!

لم يكن فيلكس ديفاي؛ سوى اسم آخر لأرسين لوبين.

أردف لوبين:

- إنه من المؤسف ترك هذا المبنى الفريد، عليَّ أن أبدأ من الصفر في مكان آخر ديبوريو، وعلى نموذج جديد؛ لأننا لا يجب أن نكرر أنفسنا أبدًا، اللعنة على هذا الإنجليزي!

- ألا يزال لم يعد؟

- كيف سيعود؟ من ساوثهامبتون لا يوجد سوى باخرة واحدة تغادر نحو فرنسا، تلك التي تغادر في منتصف الليل، وقطار واحد يتحرك في الثامنة صباحًا ليصل الحادية عشرة وإحدى عشرة دقيقة، بما أنه لم يلحق بالباخرة -بفضل تنفيذ الأوامر التي وجهتها للقبطان- لن يتمكن من الوصول إلى فرنسا قبل الليلة عن طريق نيوهافن أو ديبي.

- وإذا خالف توقعاتك وكان هنا بالفعل؟

- سيعود.. ولكنه سيعود متأخرًا، سنكون رحلنا بالفعل حين عودته.

- ماذا ستفعل حيال الآنسة ديتان؟!

- يجب أن أقابلها بعد ساعة.

- في منزلها؟

- لا! إنها لم تعد لمنزلها منذ عدة أيام.. منذ ذلك اليوم رفقة هولمز كان عليَّ أن أعتني بها، أما أنت ديبريو عليك أن تُعجِّل من حزم أمتعتك، لدينا الكثير لنفعله، وجودك لا غنى عنه.

- أنت متأكد أن لا أحد يراقبنا؟

- مَن سيراقبنا؟ لم أخشَ سوى هولمز.

انصرف ديبريو، بينما تجول أرسين لوبين لمرة أخيرة، ثم التقط إحدى الأوراق، وكتب بخط واضح أنيق:

«هنا عاش، لمدة خمسة عشر عامًا، منذ مطلع القرن العشري، السيد اللص أرسين لوبين».

هذه اللفتة الصغيرة ربما سببت له الكثير من الشجن، نظر إليها بسعادة تطغى عليها الحزن، وقال:

- الآن بما أنني سأبقى في ذاكرة مؤرخي الأجيال القادمة، لنخرج من هنا.

بدأ لوبين يوجه حديثه للفضاء؛ كأنه يتكلم مع أحدهم:

- أسرِعْ يا سيد شرلوك هولمز، بعد ثلاث دقائق من الآن سأغادر مسكني، وستكون هزيمتك ساحقة.. تريد مهلة؟ دقيقتين؟ ألن تأتي؟ حسنًا.. أعلن هزيمتك.. وأنا أغادر مملكة أرسين لوبين! لن أراكِ بعد الآن أيتها المملكة العزيزة، وداعًا لخمس وخمسين غرفة في ست شقق، تسيدتهم جميعًا، وداعًا مخدعي، مخدعي العزيز.

انطلق جرس يشق هدوء الوداع، جرس مُلِح، أُطلِق مرتين، كان جرس الإنذار المتفق عليه.. ماذا يحدث؟ ما الخطر الذي يقترب؟ جانيمار؟ ولكن لا...

كان على وشك الهرب، لكنه ذهب أولًا إلى جانب النافذة، لا أحد في الشارع، هل وصل الخطر بالفعل إلى المنزل؟ سمع خطوات أقدامٍ على السلالم؛ لذا دون تردُّد ركض إلى بهو المنزل، قبل بلوغه عتبة المنزل ميَّز صوت مفتاح يدلف إلى الباب، همس في قلق:

- اللعنة، لا وقت للهرب.. لقد حوصر المنزل.. ربما عبر سلم الخدم؟ لا، مستحيل.. من حسن الحظ أن المدفأة...

لم يستطع لوبين أن يفكر كيف يتحرك، إلى أين يذهب؛ لذا ظل جامدًا في موضعه، حتى اللحظة التي أحس أن الباب على وشك أن يُفتَح، قال بانفعال:

- اللعنة! سينتهي أمري..

غشي التوتر الأجواء حول لوبين.. تعطل العقل الفذ.. شل صوت محاولات فتح الباب أفكاره المبتكرة.. ارتجفت أصابعه التي تشبثت بمقبض الباب في محاولة أخيرة لمنعه من الانفراج عن كارثة.. حافظ على مثابرته، والفكرة اللعينة تدق رأسه: أكان لا بد أن يتعثر قبل أن يصل بأمتار؟

أخيرًا سقطت قلعة أرسين لوبين.. انفرج الباب عن الكارثة.. لقد عاد شرلوك هولمز، وهاهو يقف أمام لوبين الذي أصابته الصدمة كما تصيب الأرض صعقة البرق!

- كما ترى يا سيد لوبين، ليست كل الرياح تأتي كما تشتهي السفن.

نظر إليه لوبين باستحياء كمَن يشاهد مشهدًا وحشيًّا لا يقدر على رؤيته.. شرلوك هولمز في باريس! شرلوك هولمز الذي أرسله بنفسه إلى المدينة الإنجليزية أشبه بطرد خطير، يقف أمامه حرًّا ومنتصرًا! اللعنة! لتتحقق هذه المعجزة المستحيلة ـرغمًا عن إرادة أرسين لوبينـ لا بد أن نواميس الطبيعة اختلت، وانتصر كل ما هو غير منطقي وغير طبيعي ليقف الآن شرلوك هولمز أمام أرسين لوبين.

قال الإنجليزي بتهكُّم لم يخلُ من الأدب والاحترام لغريمه:

- سيد لوبين، أعدك أنني من هذه اللحظة لن أفكر أبدًا في تلك الليلة التي جعلتني أقضيها في فندق البارون دوترك، ولا المفارقات التي حدثت لصديقي واطسون، وأيضًا لن أفكر فيما حدث في سيارة الأجرة، أيضًا تلك الرحلة التي كدت أن أتمها نحو ساوثهامبتون وأنا مقيد في قمرة القبطان.. كل شيء قد مُحِيَ من ذاكرتي، تلك اللحظة تمحي كل ما قبلها.

التزم لوبين الصمت، وأردف الإنجليزي مُمعنًا في إحراج الفرنسي:

- ألا تظن ذلك؟

حدقه لوبين بنظرة تشي بالغضب والكراهية، ثم أردف:

- أزعم أيها السيد أن سلوكك الحالي مبني على دوافع خطيرة؟

- غاية في الخطورة.

- في الواقع مقدرتك على الهرب من القبطان وبحارته ما هي إلا حلقة من حلقات معركتنا، ولكن أن تقف أمامي هنا، أمام أرسين لوبين.. ربما يمكنني الظن في قدرتك على اقترابك من النجاح.

- بالفعل، أنا على وشك إتمام نجاحي.

بحرص تلفَّظ لوبين خشية أن يسمع ما يكره سماعه:

- هذا المنزل؟

- محاصر.

- والمنزلان المجاوران؟

- محاصران.

- الشقة في الطابق الرابع؟

- محاصرة.. والشقق الثلاث في الطابق الخامس التي يملكها السيد ديروبيو كذلك.

- ذلك يعني...

- ذلك يعني أنك قد قُضِي عليك سيد لوبين.. قُضِي عليك تمامًا.

لقد تجرع لوبين نفس الكأس التي سقاها لهولمز تلك الليلة في اليخت، الغضب ذاته يعتمل في صدره، نفس الثورة، ولكن في النهاية نفس الهدوء الخارجي، كان عليه أن يقبل الهزيمة، كما قبلها هولمز؛ لأنه أيضًا رآها شرًّا مؤقتًا سيكون حتمًا قادرًا على التخلص منه.

باستسلام واضح قال لوبين:

- آن وقت الرحيل!

بدا الإنجليزي سعيدًا باعتراف لوبين الضمني بهزيمته، وساد الصمت للحظات حتى أردف لوبين:

- وأنا لست غاضبًا حيال الأمر، كان من الممل أن أفوز في كل مرة! كان يمكنني هزيمتك، ولكني تكاسلت عن عملي، في النهاية دعنا نستمتع. لوبين في مصيدة الفئران! كيف سيخرج منها؟ يا لها من مغامرة! أنا في مصيدة الفئران! سيدي، أنا مدينٌ لك بالكثير؛ رغم الضغينة بيننا. يا لعجب الحياة!

عقد لوبين يديه ضاغطًا على أصابعه المضطربة، وكسا وجهه ابتسامة طفل تائه في منزل مهجور، يستمتع بتلك اللحظة المربكة المثيرة للأعصاب، ثم اقترب من الإنجليزي، وقال بمكر:

- أخبِرْني سيد هولمز، ماذا تنتظر؟

- ماذا تعني؟ عن أي انتظار تتحدث؟

- انتظارك معي هنا، جانيمار هنا مع رجاله، لماذا لم يدلف معك؟

- رجوته أن يدعني أدلف بمفردي.

- ووافق على ذلك؟

- طلبت أن يسديني تلك الخدمة بصورة رسمية، تعلم أن صلاحياتي تسمح بإصدار أوامر له، وعلاوة على ذلك هو ما زال يظن أن فيلكس ديفاي ما هو إلا شريك آخر للوبين.

- حسنًا، يبدو أنك تراوغ؛ لذا دعني أسألك بوضوح، لماذا دلفت وحدك؟

- رغبت في الحديث إليك.

أومأ لوبين رأسه بهدوء، وأردف:

- تتحدث إليَّ.. حسنًا..

هناك فكرة تدور في رأس لوبين، فكرة على ما يبدو أنه يستحسنها، في موقف كهذا أي دافع أحمق يدفع هولمز للحديث بدلًا من الفعل؟ بهدوء إنجليزي قال الفرنسي:

- اعذرني سيد هولمز؛ لأنني لا أملك مقعدًا وثيرًا لتستريح عليه، أتود الجلوس على هذا الصندوق القديم؟ ربما الكسر في أحد أطرافه لن يفي بالغرض، ربما تستند إلى النافذة.. دعني أحضر لك كوبًا من الجعة، محلية أم إنجليزية؟ على أي حال.. أرجوك أن تجلس.

رمق هولمز الفرنسي. وقال بفتور:

- لا داعي، دعنا نتحدث.

- كُلي آذان مصغية.

- دعني أطرق صُلب الموضوع، لم أحضر إلى فرنسا للقبض عليك، هذا لم يكن غرض الزيارة.

توقف هولمز عن الحديث لوهلة يتأكد من اهتمام لوبين، وأردف:

- ولكن ملاحقتك كانت الطريقة الوحيدة لأصل إلى هدفي الحقيقي.

- وما هو؟

- العثور على الماسة الزرقاء.

- الماسة الزرقاء؟!

- أرجوك لا تدَّع جهلك.. بالطبع هدفي العثور على الماسة الحقيقية؛ لأن تلك التي عُثِر عليها في أغراض القنصل بلشين مزيفة.

- معك حق. الحقيقية أرسلتها لي السيدة الشقراء، لقد صنعت ماسة مطابقة لها تمامًا، بالمناسبة.. كان لديَّ المزيد من الخطط لأنفذها بشأن المجوهرات الأخرى للكونتيسة.. على أي حال بما أن الشكوك كلها كانت حول القنصل، وضعت السيدة الشقراء -لكي تزيل كل الشبهات حولها- الماسة المزيفة بين أغراض القنصل.

- بينما احتفظت أنت بالماسة الحقيقية.

- بلا شك.

- أنا أريد هذه الماسة.

- مستحيل، مع كامل أسفي.

- لقد قطعت وعدًا للكونتيسة دي كروزون، وعليَّ الالتزام به.

- كيف ستحصل عليها لتنفذ وعدك؟! الماسة في حوزتي.

- سأحصل عليها لأنها في حوزتك.

- تظن أنني سأمنحك إياها؟

- بلى.

- طواعيةً؟

- لا، سأشتريها منك.

فرت من لوبين ضحكة ساخرة، وقال:

- أنت إنجليزي حتى النخاع، تتعامل مع كل شيء كصفقة بيع وشراء.

- إنها صفقة.

- حسنًا، ماذا تعرض عليَّ لأبيع لك الماسة؟

- حرية الآنسة ديتان.

- حريتها؟ ولكني لا أظن أنها معتقلة حتى تحصل على حريتها!

- حريتها مسألة وقت لا أكثر، سأمنح السيد جانيمار التعليمات اللازمة، دون حمايتك سيكون من اليسير القبض عليها.

لم يستسلم لوبين لتهديدات هولمز؛ فأردف متحديًا:

- سيدي العزيز، إنك تعرض ما لا يمكنك تنفيذه، الآنسة ديتان في أمان ولا خوف أبدًا عليها، سأطلب منك شيئًا آخر.

تردد الإنجليزي لوهلة، واحتقن وجهه حتى تخضب خداه بحمرة الغضب، ثم قبض على كتف لوبين وقال:

- دعني أقترح عليك شيئًا آخر.

- حريتي؟

- لا، ليس تحديدًا، ولكن ربما يمكنني التفاوض مع جانيمار.

- لتدع لي المجال لأفكر؟

- بلى.

- يا لها من خدمة جليلة سيد هولمز!

ضغط لوبين على أحد أحجار المدفأة بانفعال، وقال:

- اللعنة على هذا النظام الخرب!

ابتسم الحظ للوبين أخيرًا، لقد عاد نظام الممرات السرية للعمل.. ضربة حظ جديدة مفاجئة، تحركت الأحجار، وبدأ الباب ينفرج أمامه، إنه الخلاص، المخرج الوحيد الممكن من هذا المأزق، ولكن ماذا سيحدث إذا وافق على عرض هولمز؟

تراجع لوبين وأخذ يذرع الغرفة يمنة ويسرة، كأنه يفكر في هذا العرض، ثم اتجه نحو الإنجليزي، قبض على كتفه برفق، وقال:

- في الحقيقة يا سيد هولمز، أُفضِّل أن أقضي حوائجي بنفسي.

- إذن أنت...

- لست في حاجة لأحد.

- حين أستدعي جانيمار إلى المنزل ستكون النهاية! لن نطلق صراحك أبدًا.

- مَن يعرف؟!

- بربك لا تعبث أكثر من ذلك! كيف ستهرب؟ كل المخارج محاصرة!

- ما زال مخرج واحد غير محاصر.

- أي مخرجٍ؟

- الذي سأختار الهرب منه!

- لا مزيد من الحديث، أنت قيد الاعتقال.

- لا تتسرع.

- وإلَّا؟

- وإلَّا سأحتفظ بالماسة الزرقاء.

نظر هولمز إلى ساعته، وأردف:

- إنها الثالثة إلا عشر دقائق، في تمام الثالثة سأستدعي جانيمار.

- حسنًا، لدينا عشر دقائق لنثرثر كيفما نشاء دعنا نستغلهم سيد هولمز، أرجوك أن ترضي فضولي، وتخبرني كيف حصلت على عنواني وعلى اسم فيلكس ديفاي.

راقب هولمز غريمه في قلق واضح، هذا المزاج الرائق الذي يتعارض مع ما يمر

به لوبين أثار قلق الإنجليزي، ولكنه حبَّذ أن يفسر كيف وصل إليها؛ إرضاءً لغروره، واستعراضًا لمهارته الإنجليزية الفذة، فتنحنح وقال:

- عنوانك.. حصلت عليه من السيدة الشقراء.

بنبرة حائرة تساءل لوبين:

- كلوتيلد!

- أجل، أتتذكر.. صباح أمس.. حين وصلت إليها لأرغمها على الخروج معي.. لقد هاتفت الخياطة.

- أجل.

- فهمت أنها لم تكن الخياطة، ولكن بعدما فات الأوان، ونحن في السيارة أخذت أفكر كيف وصلت إلينا فأدركت أنها كانت تحادثك، في الباخرة وأنا أقضي ليلة ربما سأمحيها من ذاكرتي حفاظًا على سجلي المشرف، تمكنت من تذكُّر آخر رقمين من هاتفك.. ٧٣. هكذا وفور وصولي إلى باريس في الحادية عشرة صباح اليوم، طلبت ملفًا بأرقام المنازل ـالتي أُعِيد ترميمهاـ لأبحث عن هاتف ينتهي بـ٧٣، وهكذا وجدت منزل السيد فيلكس ديفاي، وطلبت بعدها مساعدة جانيمار.

- رائع، خطة لم تخطر على بالي قط، ولكن اسمح لي أسألك، لقد وصلت بلا شك على متن قطار لو هافر، كيف هربت من اليخت؟

- لم أهرب.

ارتسمت دلالات الدهشة على وجه لوبين، وقال قبل أن يقاطعه هولمز:

- ولكن...

- لقد أمرت القبطان ألَّا يصل ساوثهامبتون قبل الواحدة بعد منتصف الليل، ولكنه وصل عند انتصاف الليل تمامًا؛ لذلك كان في مقدوري أن أصعد على متن الباخرة العائدة لباريس!

- أتقصد أن القبطان خالف تعليماتي؟ مستحيل...

- لم يخالفها.

- لا أفهم!

- لقد خالفت الساعة تعليماتك!

- أرجوك لا تستخِفْ بعقلي!

- لا أستخف، لقد عبثت بساعته، قدمت عقرب الساعات ساعة كاملة!

- كيف وصلت إليها؟!

- أتميز بخفة يدي يا سيد لوبين، لقد حصلت على ساعته بينما كنا نجلس إلى جوار بعضنا وأحدثه عن قصص مغامراتي، غيَّرت التوقيت وأعدت الساعة إلى جيبه كما كانت.

- أهنئك! ولكن ماذا عن ساعة الحائط المُعلَّقة في قمرة القيادة!

- كانت مهمة أصعب طبعًا، وأنا مكبل القدمين، ولكن الأحمق المكلف بمراقبتي في غياب القبطان، كان رقيقًا معي لدرجة أنه قام بالمهمة بدلًا عني!

- يا له من أحمق!

- لا تظلمه، لم أخبره بحقيقة الأمر.. لقد أخبرته أنه من الضروري أن ألحق بقطاري نحو لندن؛ لذلك أحتاج لتقديم هذه الساعة ليستعجل القبطان، وقد اقتنع.

- في مقابل؟

- في مقابل هدية صغيرة.. قبل السيد الوفي أن ينقلها لك.

- أي هدية؟

- لا شيء!

- لقد مللت من سخفك سيد هولمز.

- الماسة الزرقاء.

- أتمزح معي؟

- لا، أرسلت معه الماسة الزرقاء المزيفة التي استبدلتها سيدتك الشقراء بماسة الكونتيسة الحقيقية..

انفجر لوبين ضاحكًا، كان يضحك من قلبه على تلك السخرية المريرة، ثم التفت لهولمز بأعين ترقرقت بعبرات الضحك، وقال:

- رباه! يا لها من سخرية! ترسل لي ماستي الزائفة، وتسرق ساعة القبطان، وتتلاعب بالزمن!

كانت هذه المواجهة من أكثر المواجهات شراسة بين الغريمين، أحس هولمز بفطرته اللامعة أن هذه الثرثرة الممتعة غطاء يستغله لوبين لينفذ خدعة جديدة، تحت هذا الحديث المذهل هناك أفكار تتصارع في عقل كل رجل.

أحس هولمز أن الوضع يخرج عن سيطرته، فأخرج ساعته، وقال بفتور:

- إنها الثالثة سيد لوبين.

- يا للحظ العثر! انتهت هذه المتعة بسرعة!

- أنا في انتظار ردك على عرضي.

- ردي؟ أي عرض؟! سيد هولمز إنك رجل حالم، لقد انتهت اللعبة، وحريتي على المحك.

- حريتك أو الماسة الزرقاء.

- أنت تغامر سيد هولمز.

أخرج هولمز مسدسه ملوحًا:

- لقد انتهى الحديث لوبين.

وأطلق رصاصة إلى الهواء إشارة لجانيمار الذي بدا تدخُّله ضروريًّا الآن، لكن قبضة أرسين وُجِّهت إلى بطنه مباشرةً؛ فأصابته بألم جعله يتكور على الأرض متأوهًا، قفز لوبين نحو المدفأة ليفتح الباب مرة أخرى، لكن الآوان قد فات.

- سلِّمْ نفسك لوبين. وإلا...

لقد اقترب جانيمار أكثر مما يتصور لوبين، مسدسه موجه إليه مباشرةً وخلفه ١٠ رجال، وضعفهم عند المدخل، لن يتردد أحدهم في إردائه قتيلًا كالكلاب إذا تحرك قيد أنملة، بهدوءٍ قال وهو يشبك ذراعيه أمام صدره:

- لا داعي للعنف! أستسلم.

لقد أصابتهم الدهشة من استسلام لوبين، رددت الغرفة صدى جملته العجيبة «أنا أستسلم!».. لا أحد يصدق، ربما سيختفي فجأة! سينشق باطن الأرض وتبتلعه! هناك جدار سينهار ويسرقه مرة أخرى من أمام مهاجميه! لكن يستسلم!

اقترب جانيمار بحذر، وهو يشعر بخطورة ما يُقدِم على فعله، بروية قيَّد يد غريمه بالأصفاد وراء ظهره، وقال بسعادة بالغة:

- أنت قيد الاعتقال لوبين.

- أنت تدهشني عزيزي جانيمار! لِمَ هذا الوجه الكئيب كأنك تقف في أحد القبور! هيا ابتسِمْ لسنا في جنازة!

كرر جانيمار كلماته:

- أنت قيد الاعتقال لوبين.

- وهذا يدهشك! باسم منفذ القانون المخلص جانيمار كبير المفتشين، نأمر بالقبض على أرسين لوبين! إنها لحظة تاريخية يا جانيمار، وأنت تعي قدرها وتفهم مدى أهميتها، كما أنها المرة الثانية التي تعتقلني فيها، أحسنت جانيمار! سوف تذهب بعيدًا في هذا المجال.

رغم الضغينة التي يحملها كل السلك البوليسي للوبين؛ فإنهم حرصوا على معاملته بحذر ورسمية شديدة، كان غريبًا عليهم أن يلمسوا هذا الرجل

الخفي، هذا الزئبقي الذي لا يُلمَس، قال لوبين مُحدِّثًا نفسه بصوت مرتفع:

- أيها المسكين لوبين، ماذا سيقول جيرانك في تلك الضاحية النبيلة إذا رأوك مكبلًا بهذه الأصفاد؟!

استُنفِرت عروق لوبين وعضلاته وهو يحاول بجهد واضح أن يحرر يديه من الأصفاد، أخذ يحرك معصمه بعنف حتى كسر الأصفاد، وقال بهدوء:

- أحضروا غيرها أيها الرفاق.. هذه باتت بلا نفع.

قيَّده جانيمار بأصفاد غيرها، بينما أردف لوبين:

- في أفضل السيناريوهات لن تكونوا قادرين على اتخاذ كافة الاحتياطات.

ثم وجَّه حديثه للجمع سائلًا:

- كم عددكم؟ وعدد الآخرين في الخارج؟ خمسة وعشرون؟ ثلاثون؟ عدد كبير بالطبع.. ربما كنت قادرًا على المجابهة لو لم يزد عددكم عن خمسة عشر.

أرسين لوبين حقًّا يملك الموهبة، الألمعية الكافية ليؤدي دور الهادئ في أدق اللحظات وأصعبها، تابعه هولمز كما نتابع أفضل العروض المسرحية، أو أمتع فقرات السيرك، لم يستطع أن يحجب إعجابه به، في النهاية الإنجليزي رجل يقدر كل ما هو جميل، والغريب أن هولمز كان يصدق حقيقة أن كلا الطرفين متعادلين، في كفة ثلاثين رجلًا مسلحين وبين أيديهم مقاليد العدالة، والكفة الأخرى لص هارب مُقيَّد بالأصفاد، الكفتان عند هولمز سواء!

وجه لوبين الحديث لهولمز بنبرة تخلو من التعبير:

- حسنًا، هذا عملك أيها السيد! بفضلك سيتعفن أرسين لوبين في زنزانة عطنة، اعترِفْ أنك لست راضي الضمير، وأن الشك ينهش أفكارك.

هز الإنجليزي كتفه في عدم اكتراث واضح، وهو يود أن يقول «كان الأمر في يدك».

- مستحيل ألَّا يؤلمك ضميرك، ماذا كنت تريد؛ الماسة الزرقاء؟ حسنًا، لقد كلفتني الكثير بالفعل، ربما سأمنحك ما تريده، في زيارتي الأولى للندن الشهر المقبل ربما أقابلك وأمنحك الماسة، ولكن أستكون في لندن الشهر القادم؟ أم أنك تُفضِّل فيينا؟ أو سانت بطرسبرج؟!

فجأة صدر طنين من السقف، لم يكن جرس الإنذار، بل الهاتف الذي تسير أسلاكه في السقف حتى الجهاز في مكتب لوبين.

الهاتف! اللعنة! تحرك لوبين بغضب ربما سيقع أحدهم في فخ لا يُغتفَر إذا لم يُجِب، لكن جانيمار سبقه إلى السماعة، وأجاب:

- آلو.. آلو.. أجل هذا رقم ٦٤٨٧٣.

بسرعة اتجه هولمز الذي في يده السلطة العليا، نزع السماعة من يد جانيمار، وغيَّر من نبرة صوته، حانت منه نظرة إلى لوبين والنظرة التي تبادلها أكدت أن كلاهما يفكر في الأمر ذاته، الفكرة التي صعقتهما واحدة وكلاهما رأى تبعاتها: إن المتحدثة هي السيدة الشقراء، إنها تهاتف فيلكس ديفاي، أو ماكسيم بيرموند، ولكنها ستعترف لهولمز بكل شيء دون أن تعي، قال الإنجليزي بهدوء:

- آلو.. آلو..

صمت لبرهة، ثم أردف:

- أجل، هذا أنا ماكسيم.

أصبح المشهد دراميًّا يميل للتراجيديا، لوبين البارع في إخفاء كل ما يعتمل في صدره كان عاجزًا عن إخفاء تلك النظرة القلقة التي اعتلت وجهه، لقد بُهِت قلقًا، وران بسمعه لينصت للحديث، بينما هولمز يجيب الصوت الغامض:

- بلى، كل شيء انتهى، كنت على وشك الانضمام لكم، كما اتفقنا. أين؟ أين أنتِ؟ ألا تظنين أنه ما زال هناك...

تردد هولمز قليلًا، بحث عن كلمات يقولها، ثم توقف عاجزًا عن الحديث، كان من الواضح أنه يحاول استجواب الفتاة الشابة دون أن يبدو عليه جهله بمكانها، كما أزعجه وجود جانيمار.. فلتحدث معجزة الآن وتنقذه من هذا الحديث.

أخيرًا استطرد هولمز:

- آلو.. آلو.. ألا تسمعيني؟ أنا لا أسمعك. الاتصال سيئ للغاية. الآن تسمعين؟ حسنًا، أعتقد أنني ـبعد إعادة التفكيرـ أظن من الأفضل أن نلتقي هنا.. أي خطر؟ لا يوجد أي خطر.

استمر هولمز يجيب تساؤلات محدثته:

- ولكنه في إنجلترا! لقد وصلتني برقية من ساوثهامبتون تؤكد وصوله لإنجلترا.. اتفقنا، لا تضيعي الوقت عزيزتي، سأنضم إليكِ.

وضع هولمز السماعة ووجَّه حديثه لجانيمار:

- سيد جانيمار، سأحتاج لثلاثة من رجالك.

- للقبض على السيدة الشقراء، أليس كذلك؟

- بلى.

- أعرفت مَن هي؟ وأين هي؟

- بلى.

- يا للروعة! إنه حدث تاريخي بالفعل.. لوبين والسيدة الشقراء.. فولانفانت،

أحضِر اثنين من رجالك ورافقوا السيد هولمز.

غادر الإنجليزي رفقة الرجال الثلاثة، لقد انتهى كل شيء، سقطت السيدة الشقراء هي الأخرى في يد هولمز، يا له من عبقري! كل هذا بفضل عبقريته، وتضافُر الأحداث السعيدة، انتهت المحاضرة بانتصاره، وبهزيمة لوبين هزيمة كارثية، قال لوبين قبل أن يغادر هولمز المنزل:

- سيد هولمز..

التفت هولمز للفرنسي:

- نعم سيد لوبين.

بدا على لوبين التأثر الشديد بهذه الواقعة الأخيرة، وتلألأت قطرات العرق على جبينه تشي بتوتره الزائد على طبيعته الهادئة، مع ذلك عب لوبين ما يستوعبه صدره من هواء نقي، وقال بنبرة حاول أن يغلب عليها الهدوء والتفاؤل:

- دعنا نتفق أن الحظ يقف إلى جوارك، لقد منعني من الهرب من المدفأة ـطريقتي المعتادة للفرارـ وسلمني إلى يديك، والآن يهديك السيدة الشقراء عبر مكالمة هاتف في غير موعدها؛ لذا سأخضع لرغبات الحظ.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنني مستعد للتفاوض معك.

انفرد هولمز بالمفوض جانيمار للحظات، همس له بكلام لم يُسمَع، ولكن لوبين فهم أنه يستأذن في الانفراد بلوبين لبعض الوقت، ثم عاد الإنجليزي للوبين، وقال بنبرة هادئة أقرب لحفيف الرياح في جنبات جبل شاهق الارتفاع:

- ماذا تريد؟

- حرية الآنسة ديتان.

- أنت تعرف الثمن، أليس كذلك؟

- بلى.

- وتقبل به؟

- أقبل بكل شروطك.

- آه! ولكنك رفضت من قبل..

بنبرة غلبها الحب قال:

- عندما تعلق الأمر بحريتي سيد هولمز، لكنه الآن متعلق بحرية امرأة.. امرأة أحبها، كما تعرف نحن في فرنسا نملك تقديرًا كبيرًا للحب، ليس مثلكم، أنا أرسين لوبين، لكن هذا لا يعني أنني سأتخلى عن المرأة التي أحبها.

هز هولمز رأسه في تفهُّم، وقال:

- حسنًا، أين الماسة الزرقاء؟

- أحضِرْ عصاتي، اذهب إلى المدفأة ستجد فتحة صغيرة، أدخِل رأس العصا في هذه الفتحة، ولفها برفق عكس عقارب الساعة.

نفَّذ هولمز ما قاله لوبين، لتظهر وراء تلك الفتحة كرة من المعجون، داخلها كانت الماسة، فحصها هولمز بدقة، إنها بلا شك الماسة الزرقاء، عاد إلى لوبين، وقال بهدوء:

- الآنسة ديتان حرة سيد لوبين.

- حرة؟ الآن وفي المستقبل أليس كذلك؟ لن يقترب منها أحد؟

- لا يستطع مخلوق المساس بها.

- مهما حدث؟

- مهما حدث، أنا في نظرهم ما زلت لا أعرف عنوانها أو اسمها.

- شكرًا لك، وإلى اللقاء؛ لأننا سنلتقي مجددًا، أليس كذلك سيد هولمز؟

- ليس لديَّ شك في هذا.

ما زال على الإنجليزي أن يُقدِّم تفسيرًا للسيد جانيمار الذي استاء من رغبته في التراجع عن البحث عن السيدة الشقراء، قال هولمز بعدما تزايدت وتيرة الحديث بينهما:

- أعتذر لك سيد جانيمار، لا أتفق معك، وليس لديَّ الوقت لأقنعك بوجهة نظري، عليَّ أن أغادر نحو إنجلترا في غضون ساعة.

- ولكن، ماذا عن السيدة الشقراء؟

- لا أعرف هذه السيدة.

- كنت تعرفها من لحظة..

- لك مطلق الحرية لتقبل أو ترفض خطوتي، لقد أوصلتك بالفعل لأرسين لوبين. هاهي الماسة الزرقاء، سأتركها في حوزتك لتعيدها للكونتيسة، أعتقد أنك لا تملك الحق لمزيد من التذمر.

- ولكن السيدة الشقراء...

- فلتجدها بنفسك.

رفع الإنجليزي قبعته محييًا، وغادر مسرعًا؛ فمن عادته ألَّا يتسكع كثيرًا بعدما ينتهي عمله، قال لوبين ببهجة:

- رحلة سعيدة سيد هولمز، وتذكر جيدًا أنني لن أنسى تلك الروابط الوثيقة التي جمعتنا، تحياتي للسيد واطسون.

لم يعلق هولمز، واستطرد لوبين مازحًا:

- هذا ما يُسمَّى الهرب على الطريقة الإنجليزية، هذا الإنجليزي لا يملك اللباقة التي نتمتع بها نحن الفرنسيون، فكِّر قليلًا جانيمار، كيف ستكون طريقة رحيل رجل فرنسي في نفس تلك الظروف؟ كيف سيغلف انتصاره بأعتى دلالات الأدب والاحترام؟

صمت لوبين لبرهة، وأكمل:

- على أي حال أعتذر عن تأخيرك.. دعنا نفتش في أوراقي لنبحث عن أدلة تقود للسيدة الشقراء. آه، نسيت أن المنزل خاوٍ على عروشه، أوراقي كلها في أمانٍ.

- مَن هي؟! أجبني فورًا!

عزف لوبين عن الحديث، أحكم شرطيان قبضتهما على ذراعيه، وأحاطه عدد لا بأس به من المفوضين، كان لوبين هادئًا لا يبدو عليه تذمر من هذه الإجراءات، ولكن بعد مرور عشرين دقيقة من بحثهم عن أي قصاصة تفضي إلى دليل، قال لوبين بنفاد صبر واضح:

- أسرِع جانيمار، هكذا لن ننتهي أبدًا.

- هل أنت على عجلة من أمرك؟

- بالتأكيد، لديَّ موعد هام.

- أين؟

- في المدينة.

- رائع! في أي ساعة؟

- في الساعة الثانية ظهرًا.

- ولكن الساعة الآن تخطت الثالثة بالفعل.

- نعم؛ لذلك -كما ترى- أنا متأخر وأنا لا يزعجني أكثر من التأخر على مواعيدي.

- أيمكنك أن تتفضل وتمنحنا خمس دقائق أخرى!

- حسنًا خمس دقائق ليس أكثر.

- يا له من لطف! سأحاول أن أُسرِع.

- أرجوك لا تلتهِ في الحديث.. أما زلت لم تفتش هذه الخزانة؟ على أي حال إنها فارغة.

فتح جانيمار الخزانة، وقال:

- ولكن هناك هذه الرسائل.

- إنها فواتير قديمة.

- لا أعتقد، إن هذا الطرد ما زال حديثًا، لم يُفَك رباطه بعد.

- عليه وردة؟ جانيمار لا تفك الطرد، أستحلفك ألَّا تفكه.

- أهو من امرأة؟

- نعم.

- تبدو مهمة لك.

- أهم ما في العالم.

- ما اسمها؟

- السيدة جانيمار.

بلهجة مضطربة قال جانيمار:

- يا لك من لطيف!

في الآن ذاته أعلن الرجال الذين انتشروا في الغرف الأخرى عجزهم عن الوصول لأي دليل، قال لوبين ضاحكًا:

- يا لك من ساذج جانيمار! فيم كنت تأمل؟ أن تكتشف قائمة بأسماء شركائي؟ أو دليلًا على وجود علاقة تجمعني بالإمبراطور الألماني؟ ما يجب أن تبحث عنه جانيمار هو الأسرار الصغيرة التي لا تُلاحَظ في هذا المنزل.. مثلًا أنبوب المدفأة نستخدمه كوسيلة اتصال، هذه المدخنة تحتوي على سلم سري، هذا الجدار مجوف يؤدي إلى سرداب، تعالَ جانيمار، اضغط هذا الزر.

نفَّذ جانيمار ما أمر به لوبين:

- ألا يمكنك سماع أي شيء؟

- لا.

- ولا أنا، مع ذلك ضغطك على هذا الزر بعث رسالة إلى قائد قواتي الجوية، وسريعًا سيعكف على تجهيز المنطاد ليحملني إلى الهواء.

بهدوء مصطنع غشاه التوتر قال جانيمار:

- لنذهب لوبين، كفاك عبثًا، حديثك لا يمت للمنطق بصلة.

تحرك جانيمار متلكئًا، وتبعه بعض الرجال، بينما لوبين لم يفكر في التحرك قيد أنملة، والشرطيان ما زالا يحكمان قبضتيهما على مرفقيه، قال جانيمار:

- حسنًا، أترفض التحرك؟

- لا، على الإطلاق.

- لماذا لا تتحرك؟

- هذا يرتبط بأمور كثيرة.

- أي أمور؟

- على سبيل المثال: إلى أين سأذهب معكم؟

ببلاهة مَن لا يستوعب هذا القدر من المكر قال جانيمار:

- إلى قسم الشرطة!

- حسنًا، هذا يعني أنني لن أتحرك، ليس لديَّ ما أفعله في قسم الشرطة.

- هل أنت مجنون؟!

- ألم أكن صادقًا معك؟ لقد أخبرتك أن لديَّ موعدًا عاجلًا وتأخرت عليه بالفعل، عليَّ الذهاب إلى وسط المدينة.

لم يتمكن جانيمار من التحكم في أعصابه أكثر فصرخ محذرًا:

- لوبين!

- جانيمار العزيز، دعني أشرح لك، إن السيدة الشقراء تنتظر زيارتي، وأنت تقترح أن أتركها تحترق في نيران القلق على غيابي؟ هذه ليست شيم رجل نبيل يا صديقي.

أردف جانيمار الذي فقد صوابه كليًّا بعد ضغط لوبين:

- اسمعني لوبين، لقد التزمت أقصى درجات ضبط النفس حتى الآن في التعامل معك، ولكن لكل شيء نهاية، اتبعني على الفور.

- مستحيل؛ لديَّ موعد، وسأذهب إلى هذا الموعد.

- اتبعني حالًا، إنها المرة الأخيرة التي سأطلب فيها أن تتبعني برفق.

- مُســ.. تــــ.. حيل!

أشار جانيمار إلى الشرطيين، فحاولا إجبار لوبين على التحرك؛ إلَّا أن صرخة ندت عن كلاهما وتكورا على الأرض بعدما زج لوبين إبرتين طويلتين إلى ضلوعهما.

اندفع بقية الرجال نحوه وقد استشاطوا غضبًا، لقد وصل لوبين لمبتغاه أخيرًا وأطلق الكراهية داخلهم، سيمنعهم انفعالهم عن التفكير الصائب، وربما هكذا سيظفر لوبين بحريته، وجَّه أحد المفوضين ضربة إلى معدته فسقط من فرط

الألم، بينما قال جانيمار متشفيًا:

- في المرة القادمة عليك التعامل معي؛ فاحذر.

انحنى جانيمار ليحاول مساعدته، ولكن حين رأى أرسين يتنفس ولا تبدو على وجهه علامات الألم، أمر أن يحملوه إلى المركز على الفور:

- على رسلكم، كيف حالك لوبين؟

فتح لوبين عينيه في صعوبة وهمس:

- لست في كامل أناقتي جانيمار، لو بيدي الآن لمزقتك.

بادر جانيمار في أسف حقيقي:

- إنه خطؤك، عليك اللعنة! ولكني أعتذر، لست تعاني، أليس كذلك؟

لم يرد لوبين، ولكنه قال وهم على وشك الوصول إلى السلالم:

- جانيمار، أرجوك لنستخدم المصعد، سوف يكسرون عظامي لو حملوني إلى الشارع بهذه الطريقة..

- فكرة سديدة، بل ممتازة.. علاوة على ذلك فالسلم ضيق لن يتمكنوا من حملك.

دلف جانيمار إلى المصعد؛ حيث أجلسوا لوبين إلى الكرسي وأحاطوه متخذين كافة التدابير التي تؤكد عدم هربه، ووقف جانيمار إلى جواره مباشرة، ثم أخبر بقية الرجال:

- سنهبط في نفس الوقت، الحقوا بي على السلالم، كونوا أمام المدخل فور وصول المصعد، أتفهمون؟

حين وصل المصعد إلى الدور الأرضي حاول جانيمار فتح الباب، لكنه لم يفتح، هناك شيء على وشك أن يحدث.. في التو صعد المصعد إلى الدور الخامس بسرعة استثنائية.. انقطع التيار الكهربائي.. الظلام يغشى كل شيء.. الصمت والترقب يكسرهما ضحكة ساخرة.. اللعنة.. هكذا همس جانيمار وهو يبحث بجنون عن زر الهبوط.. محاولة عابثة لقد خرجت الأمور عن سيطرته.. صرخ بأعلى صوته عسى أن يسمعه رجاله:

- الخامس.. احرسوا جيدًا باب المصعد في الدور الخامس.

هرول الجمع المنتظر في بهو البناية إلى الدور الخامس لتصعقهم مفاجأة جديدة، كانت المفاجأة أن المصعد توقف في الدور الأرضي يمكنهم أن يروه من الدور الخامس، ولكن مستحيل أن يهبطوا إليه قبل أن يهرب لوبين، مرت لحظات من العجز.. عاد التيار الكهربائي.. لقد حدث كل شيء بسرعة لم يستطع إدراكها المحقق العجوز.. الذي ما زال يتردد في أذنيه كلمات لوبين الأخيرة قبل أن يختفي من فتحة سقف المصعد:

«لقد حذرتك يا جانيمار، أنت أطلقت خطة المنطاد بنفسك.. شكرًا لك! في وقت آخر تحلَّ بمزيد من الرحمة.. ولا تنسَ أبدًا أن أرسين لوبين لا يمكن أن يُعرِّض نفسه للضرب والإهانة دون أسباب جدية. وداعًا».

فُتِح الباب أخيرًا..

دون أن ينبسوا ببنت شفة صعدوا على عجل عبر درج الخدم إلى السطح.. ممر طويل يفضي إلى عدة غرف مرقمة، دفع جانيمار بابًا صغيرًا في نهاية الممر أفضى إلى سطح منزل آخر.. ممر طويل آخر يفضي إلى عدة غرف مرقمة، ثم سلم خدم هبطه جانيمار ليجد نفسه في شارع بيكو، لقد فهم الآن ما فهمه شرلوك هولمز؛ المنزلان متصلان، ولكن أحدهما يطل على شارعٍ مختلفٍ عن الآخر، يبعد منزل لوبين ٦٠ مترًا عن المنزل الآخر، كيف يمكن لعقلٍ بشري أن يشك في هذه الخطة العجيبة للهرب؟

دلف جانيمار إلى حجرة حارس العقار، وسأله في هدوء متوتر:

- مر أربعة رجال من هنا للتو؟

- أجل، السيد الذي يقطن الطابق الرابع، ورجل يسكن الطابق الخامس، وصديقان.

- مَن الذين يقطن الطابقين الرابع والخامس؟

- السيد فافول، وأبناء عمه، لقد غادروا البناية اليوم.. انتقلوا منها، لم يتبقَّ سوى رجلين على وشك الرحيل.

جلس جانيمار إلى إحدى الأرائك في مسكن الحارس المتواضع، وقال:

- يا له من أمر جلل لم نكتشفه! العصابة بأكملها كانت تقطن هذا العقار.

☆ ☆ ☆

وصل رجلان في سيارة سوداء إلى محطة قطار دي نورد بعد أربعين دقيقة من هرب أرسين لوبين من قبضة الشرطة، سار الرجلان متجهين إلى قطار كاليًّا السريع يتبعهما حمَّال المحطة يحمل دزينة من شنط السفر، أحد الرجلين يضمد ذراعه بضمادة طبية ووجهه الشاحب يؤكد أنه يعاني من ألم جامح يعتصر نفسه، أما الآخر كان على وجهه أعتى علامات الألم.

- أسرِعْ واطسون، لا ينقصنا الآن أن نُفوِّت موعد القطار! آه يا واطسون، لو تعلم كم سعدت بتلك الأيام التي قضيناها في فرنسا! لن أنسى تلك الأيام العشرة قط.

بوجه متذمر علَّق واطسون:

- وأنا أيضًا لن أنساها.

- كانت معارك حامية الوطيس!

- ومميزة.

- قليل من المتاعب هنا وهناك.. أشياء لا تُذكَر.

- فعلًا لا تُذكَر!

- ولكن في النهاية كان النصر حليفنا! قُبِض على لوبين! وأُعِيدت الماسة الزرقاء!

- وكُسِر ذراعي.

- عندما يتعلق الأمر بنجاح مُرْضٍ كهذا، ما الذي يزعج بشأن ذراعٍ مكسورة؟!

- خاصة إن كانت ذراعي!

- نعم، تذكَّرْ يا واطسون، لم أتمكن من حل اللغز إلا بفضل تلك الذراع! عندما كنت تعاني مثل البطل عند الصيدلي، بدأت أكتشف الخيط الذي قادني خارج الظلام.

- يا له من حظ سعيد!

بدأت أبواب القطار تُغلَق، ذكَّر هولمز عامل القطار أنهم أصحاب الكابينة، وألَّا يسمح لأحد بمشاركتهم، ثم قال لواطسون تعيس الحظ:

- ما أمرك يا واطسون! لم تلقَ مصرعك.. إنها مجرد ذراع مكسورة يا صديقي العجوز.

- لم أفقد ذراعي.

- ما خطبك إذن؟

- لا يمكن للمرء أن يحيا سعيدًا بذراعٍ مكسورة يا هولمز!

حافظ هولمز على نبرته المرحة قائلًا:

- أتفق، ولكن سيصبح الأمر من الماضي! أتظن أنك الوحيد الذي تعرَّض لكسر في ذراعه؟ ما رأيك في أصحاب الإعاقة؟ أقصد الإعاقات الدائمة! كفاك تأفف، كسرك سيُداوَى مع الزمان.

مد هولمز يده بورقة نقدية لعامل القطار الذي انتهى من ترتيب حقائبهم داخل المكان المخصص لها في العربة، وقال:

- شكرًا جزيلًا لك، أرجو أن تقبل تلك الإكرامية.

- شكرًا لك سيد هولمز.

لم يكن الصوت غريبًا على مسامعه.. والوجه أيضًا.. مألوف.. وجه عدو قديم.. وجه عدو ظن أنه انتصر عليه للتو: أرسين لوبين. تمتم هولمز مصعوقًا:

- أنت!

بينما واطسون تلعثم وأخذت يده السليمة تتحرك في الهواء تحاول أن تشي بما يعجز لسانه عن قوله، حتى لفظ كلماته بصعوبة:

- أنت! كيف؟! أنت مقبوض عليك! لقد أخبرني هولمز. كيف ومتى هربت؟ لقد حاصرك جانيمار وثلاثون من رجاله.

طوى لوبين ذراعيه، وقال بسخرية واضحة:

- هيا! لا تكونا بهذا السُّخف، أيظن أحدكما أنني سأترككما تغادران دون أن أقول وداعًا؟! بعد روابط الصداقة المتينة التي تشاركناها! سيكون هذا خطأً جسيمًا.. ما ظنكما بي؟

قطعت صافرة القطار الحديث معلنة عن تحركه الوشيك، ثم أكمل لوبين حديثه:

- على كل حال.. أغفر لكما ظنونكما.. أخبراني، أتملكان كل ما تحتاجون إليه في الرحلة؟ تبغ، ثقاب، وكل شيء؟ آه، ماذا عن جرائد هذه الليلة؟ ستجدون فيها التفاصيل الكاملة عن القبض عليَّ، عملكما الممتاز الأخير. والآن.. إلى اللقاء، تشرفت بالتعرف إليكما.. حقيقي كان شرفًا بالغًا! وسأكون سعيدًا إذا احتجتما إلى خدماتي.

قبل أن يسرع القطار وتغادر العربة الأخيرة الرصيف قفز لوبين وأغلق الباب وراءه، ثم وقف يرمق الإنجليزيين ملوحًا بمنديله، وقال:

- الوداع.. الوداع، سأكتب لكما.. وأنتما أيضًا راسلاني، أستفعلان؟ سيد واطسون اكتب لي عن حال ذراعك المكسورة، أتطلع لسماع أخباركما.. فلترسلا بطاقة بريدية من آنٍ لآخرٍ.. في خانة العنوان يكفي كتابة لوبين، باريس.. ولا داعي للطابع البريدي.. مع السلامة!

☆ ☆ ☆

الباب الثاني
الشمعدان اليهودي
الفصل الأول

جلس شرلوك هولمز إلى يسار المدخنة الكبيرة، بينما واطسون إلى اليمين، سيقانهما مسترخية أمامهما بارتياح، خبت نار غليون هولمز نادر الزخرفة فأخذ يفرغه من الرماد ويدس مزيدًا من التبغ فيه، أشعله ثم عاد إلى جلسته المريحة ينفس الدخان في حلقات صغيرة نحو العدم.

أخذ واطسون يرمقه، كان ينظر إليه كما ينظر القط النائم في مضجعه الوثير إلى صاحبه، بأعين مستديرة، خافتة، لا أمل فيهما سوى انتظار بادرة من سيدها، هل سيخرق السيد الصمت؟ هل سيكشف له سر صمته الطويل؟ هل سيعطف على حاله القلقة ويخبره كيف يدلف هولمز إلى عالم التأمل الخلاب هذا في أعتى اللحظات قلقًا؟ لكن صمت هولمز استمر؛ مما دفع واطسون ليبادر:

- أيام هادئة.. لا يوجد قضايا تضعنا بين فكَّيها!

لم يعلق هولمز، بدا لواطسون أن صمته يزداد خشوعًا ورهبة، بينما حلقات الدخان تزداد كثافة، ربما الآن يدرك واطسون أن صديقه يستمد الكثير من هدوئه من هذا الغليون، تلك الحلقات الصغيرة في الهواء تمنحه شيئًا يتشاغل بفعله، بينما عقله فارغ تمامًا من الفكر، فترت عزيمة واطسون في النهاية ليبدأ الحديث؛ فنهض واقترب من النافذة، بدا الشارع حزينًا يمتد بين العقارات تحت سماء كاحلة كسواد الأدهم، يتساقط مطر خفيف من بضع سحابات تعبر على استحياء، بينما سيارة أجرة تلو الأخرى تمر فارغة أثارت شك واطسون، فكتب أرقام اللوحات في مدونته، مَن يعرف؟! ربما هناك ما يدفع للقلق، ثم أخيرًا ظهر أحدهم، فقال واطسون بصوت مسموع:

- وأخيرًا! ساعي البريد.

هبط واطسون إلى الساعي الذي أخبره:

- هناك رسالتان يا سيدي، أتسمح بالتوقيع هنا؟

وقَّع واطسون باستلام الرسالتين، واصطحب الرجل إلى الخارج، ثم عاد للحجرة، سلهما لهولمز الذي بدأ في فك مظروف إحدى الرسالتين، مرت دقيقة وهولمز يقرأ الرسالة حتى لاحظ صديقه ملامح السعادة ترتسم على وجهه؛ فقال متعجبًا:

- ما سر تلك السعادة البادية على وجهك؟

- هذه الرسالة تطرح أمرًا يثير الانتباه.. أكنت تطلب قضية ننشغل فيها؟ إليك هذه.. اقرأها..

«سيدي،

أراسلك طالبًا خبرتك، لقد كنت فريسة سرقة كبيرة، والتحقيقات التي أُجرِيت حتى الآن لا تبدو مثمرة على الإطلاق، سأرسل لك عددًا من الصحف التي توضح المسألة كاملة، وإذا وافقت على تولي حل القضية؛ فأنا أضع فندقي كاملًا تحت أمرك، وأرجو منك أن تتفضل بوضع الرقم الذي تشاء على الشيك المُرفَق مع الرسالة والمُوقَّع من قِبَلي كمقدمة أتعاب عن تكاليف سفرك. أرجو أن ترسل لي تلغرافًا بردك، ولك فائق احترامي.

البارون فيكتور دي إيمبليفال، ١٨ شارع موريو».

انتهى واطسون من قراءة الرسالة، وأخذ هولمز يضحك ضحكات صادقة قائلًا:

- يا للعجب! إليك رحلة أخرى صغيرة إلى باريس.. هذا قدري؟ لِمَ لا! منذ نزالي الشهير مع أرسين لوبين لم أجد فرصة مواتية لأعود إلى مدينة النور، بالتأكيد لا أضيق ذرعًا بزيارة عاصمة العالم في ظروف أكثر هدوءًا من تلك الظروف أيام لوبين.

مزق هولمز الشيك وبينما واطسون، الذي لم تسترد ذراعه المكسورة عافيتها الكاملة بعد، أخذ يكيل السباب لباريس وما حدث له في باريس، فض هولمز المظروف الثاني، لحظة قراءة مرت قطَّب على إثرها جبهته، ثم اشتعل وجهه غضبًا، وقبض على الورقة، ثم ألقاها بعنف على الأرض، تساءل واطسون:

- ماذا؟! ماذا قرأت في هذه الرسالة؟!

لم يتلقَّ واطسون الرد، فحمل الورقة الملقاة وفضها من طيتها العشوائية، وأخذ يقرؤها:

«سيدي العزيز،

أنت تعرف جم الاحترام الذي أُكِنُّه لك، والاهتمام بسمعتك؛ لذلك، وأرجوك أن تصدقني، أنصحك ألَّا تقبل بالمسألة المعروضة عليك، تدخُّلك سيسبب لسمعتك ضررًا بالغًا، ستكون النتيجة مثيرة للشفقة وستضطر للاعتراف بفشلك علانيةً؛ لذلك أحاول، باسم صداقتنا، أن أتوسل إليك لكي تُجنِّب نفسك تلك المعاناة وتبقى هادئًا مستكينًا إلى جوار مدفأتك. تحياتي لواطسون، ولك سيدي العزيز، وإخلاصي الكامل لشخصكم الكريم.

أرسين لوبين».

تمتم واطسون:

- أرسين لوبين!

آخذ هولمز ينقر الطاولة في توتر، وأردف:

- إنه يستهزئ بي كطفل هذا الحقير.. اعتراف الناس بفشلي مجددًا؟! ألم أجبره على إعادة الماسة الزرقاء؟

- إنه خائف ليس أكثر.

- لا تتفوه بتلك الحماقات! أرسين لوبين لا يخشى شيئًا، والدليل أنه يسعى لاستفزازي.

- كيف وصل إلى علمه أن البارون فيكتور أرسل طالبًا مساعدتنا؟

- كيف سأعرف؟ عزيزي، إنك تطرح عليَّ أسئلة لا أتحمل حماقتها..

- أنا أفكر. أحاول أن أتخيل أنك...

- ماذا؟ إنني ساحر؟!

- لا، ولكني عهدتك قادرًا على التكهن.

- ليس هناك القادر على التكهن بشأن لوبين. لا أنا ولا غيري، أفكر وأتقصى وأستنتج وفي النهاية لا أصل لشيء، ربما الحمقى فقط قادرون على التكهن!

تراجع واطسون عن الحديث كالقط المهزوم، أجبر نفسه ألَّا تفكر أكثر لكي لا تقع في فخ الحماقة، لم يحاول أن يتكهن حركات هولمز التالية، إلى أن أمر هولمز الخدم الشروع في تجهيز الحقائب، إذن أصاب تكهنه؛ إن سيده حتمًا على وشك الشروع في رحلة جديدة، في النهاية أجبرته نفسه على السؤال بثقة رجل لا يخطئ:

- شرلوك، أنت سترحل إلى باريس؟

- ربما.

- وستذهب لأنك تشاء دحض ادعاءات لوبين بعدم قدرتك على حل قضية البارون فيكتور.

- ربما.

- اسمح لي أن أرافقك شرلوك.

توقف هولمز عن حركته الدءوبة في جمع حاجياته الضرورية، وقال:

- يا صديقي العجوز، انظر لذراعك اليمنى ألا تخشى ذات المصير لذراعك اليسرى؟

- ماذا سيحدث لي؟ أنا في رفقتك.

- في الأوقات الصعبة، أنت صديق حقيقي.. دعنا نلقن هذا الرجل درسًا؛ لكي يخشى أن يتحدانا مجددًا بمثل تلك الطريقة الفظة، أسرِع في تحضير حاجياتك

واطسون، وقابلني في المحطة.

- ألن ننتظر الجرائد التي سيرسلها البارون؟

- لا داعي!

- هل أرسل له تلغرافًا كما طلب؟

- لا فائدة.. هكذا سيعرف أرسين لوبين بوصولي، لا أريد ذلك هذه المرة واطسون، دعنا نلعب بطريقة أقل مخاطرة.

☆ ☆ ☆

وصل الرجلان إلى دوفر بعد الظهيرة ومنها إلى باريس، حظي هولمز بثلاث ساعات من النوم العميق، بينما بقي واطسون يقظًا ينظر بلا سبب إلى باب الكابينة، ويتأمل بأعين خاوية من التعبير؛ نهض هولمز يتمطى سعيدًا كرجل على وشك تحقيق ألطف أحلام اليقظة، ربما مواجهة جديدة مع أرسين ليست بهذا السوء، ربما هزيمة لوبين هي كل ما يشاء، قال واطسون بتململُ وهو يمد ساقيه مسترخيًا إلى ظهر المقعد:

- أخيرًا.. سأحظى بقليل من الراحة!

حين وصل القطار ترجَّل هولمز منه حرًّا يستنشق هواء باريس المنعش، وواطسون يتبعه حاملًا الحقيبتين، أظهرا بطاقتَي الهوية إلى مسئولي الحدود، ثم عبرا بوابة المحطة الضخمة، قال هولمز بانتعاش غير معهود:

- طقس رائع يا واطسون، أترى الشمس؟! باريس تتزين لاستقبالنا.

- يا له من زحام!

- دعها تزداد واطسون! لا نود المغامرة بكشف هويتنا، لن يتعرف إلينا أحد في هذا الخضم المتلاطم من البشر.

لم ينتهِ هولمز من كلماته حتى قاطعه صوت مناديًا:

- السيد هولمز، أليس كذلك؟

توقف هولمز لوهلة يتساءل مَن يمكنه أن يناديه باسمه؟! اقتربت سيدة منه، على الأدق شابة وشى ثوبها البسيط عن جسد مميز، ووجهها الجميل بدا عليه علامات القلق والألم، قالت مكررة:

- بلا شك أنت السيد هولمز، أليس كذلك؟

لم يعلق هولمز، هذا الصمت لم يكن بدافع عادته الإنجليزية الباردة، بل بدافع قلقه ورهبته من معرفتها به، كررت مرة ثالثة:

- هل أحظى بشرف التحدث إلى السيد شرلوك هولمز؟

قال ببرود يقيه شر المصائب:

- ماذا تشائين من شرلوك هولمز؟

أردفت السيدة بنبرة متضرعة:

- اسمعني سيدي، الأمر خطير، أعلم أنك ذاهب إلى شارع موريو.

- ماذا تقصدين؟

- لا تحاول أن تخفي أعرف أنك ذاهب إلى شارع موريو.. نمرة ١٨، أريد أن أخبرك ألَّا تفعل، أؤكد لك إذا ذهبت ستندم على فعلتك، لا تظن أنني أود تعطيلك لغرض ما في نفسي، إنني أخبرك ما يمليه عليَّ ضميري.

حاول هولمز تجاهلها والمُضِي قُدمًا، لكنها أصرت قائلة:

- أرجوك يا سيدي، لا تتجاهلني، يا ليتني أعرف كيف أقنعك! انظر إلى عيني، إنهم صادقون، إنني أقول الحقيقة.

تدخَّل واطسون بعدما نظر إلى عينيها الصافيتين التي تعكس صدق الحياة ذاتها، وقال:

- الآنسة صادقة لا محال.

- أقسم لك.. عليك أن تثق بي.

مجددًا تدخَّل واطسون:

- أثق بك آنستي.

بنبرة غلبها الغبطة، قالت:

- إنه لمن بالغ سروري! وكذلك صديقك يثق بي، أليس كذلك؟ أشعر بذلك.. أثق بذلك! كل شيء سيكون على ما يُرام. لديَّ فكرة سديدة، هناك قطار يغادر إلى كالاي في خلال عشرين دقيقة ومنه إلى باريس.. يمكنكما اللحاق به إذا غادرتما الآن، اتبعاني.. لا نملك المزيد من الوقت.

مدت يدها إلى ذراع هولمز مُحاولةً جذبه نحو خطتها، لكنه أعرض عن الحركة، وقال بصوت حاول أن يتحلى باللباقة الكافية للتعامل مع سيدة:

- اعذريني آنستي، لا يمكنني تلبية رغبتك، أنا لا أتراجع أبدًا عن قضية قُدِّمت لي.

- أتوسل إليك سيدي.. أتوسل إليك. يا ليتك تفهم غرضي من ردعك!

تجاهل هولمز حديثها وغادر مسرعًا، بينما واطسون تباطأ قليلًا، وقال:

- تفاءلي خيرًا آنستي، إنه مميز.. لم يفشل قط في أي مهمة.

ثم لحق هولمز دون أن ينبس ببنت شفة.

☆ ☆ ☆

شرلوك هولمز أم أرسين لوبين؟

كان هولمز ورفيقه يسيران حين صعقهما العنوان المتصدر الصحف التي يحملها المارة والجالسون إلى مقاعد الطريق، بينما رجل ضخم يحمل صندوقًا صغيرًا على ظهره ويوزع منشورات عن الخبر، كان الخط كبيرًا كفاية ليسمح لهما بقراءة أجزاء من المقالة:

«عودة الثنائي شرلوك هولمز وأرسين لوبين.

وصول بطل إنجلترا، المحقق الشهير يصل لحل قضية شارع موريو.

اقرأ التفاصيل في صحيفة إيكو دي فرانس».

هز واطسون رأسه قائلًا:

- أخبِرْني شرلوك، ما رأيك فيما يحدث بعدما قررنا أن نعمل متخفيين؟! لن أتعجب إذا وجدت الحرس الجمهوري يستقبلنا في شارع موريو استقبالًا رسميًّا بكاسات الشمبانيا.

باستهزاء واضح قال هولمز:

- منذ متى صرت تملك هذا الدهاء واطسون، نحتاج لاثنين منك!

اقترب هولمز من الرجل ونيته واضحة، سيقبض على تلابيبه ويهشم وجهه وذلك الصندوق الذي يحمله! لكن الزحام حال بينه وبين رغبته الدفينة، كل مَن مر يقرأ الخبر انفجر ضاحكًا، إنها مواجهة أخرى مسلية سينعم بها أهل باريس، قال هولمز للرجل وهو يكتم غيظه الواضح:

- متى تم توظيفك لهذه المهمة؟

- هذا الصباح.

- ومتى بدأت جولتك لتوزع تلك المنشورات؟

- منذ ساعة تقريبًا.

- ولكنها أُعِدت مسبقًا؟

- بلى يا سيدي، حين وصلنا إلى الوكالة هذا الصباح، كانت الصناديق جاهزة.

لقد تنبأ أرسين لوبين بقبول هولمز للتحدي قبل أن يعلن هولمز عن نفسه، رسالته لم تكن إلّا وسيلة ضغط لتدفع هولمز على قبول التحدي، إنه يشتهي تحديًا آخر مع غريمه، ولكن لماذا؟ ما دافعه ليبدأ في نزال جديد؟

انتابت هولمز لحظة شك، بلا شك أن لوبين واثق من فوزه في هذا النزال، أليس من الأفضل ألّا يهرع هولمز إلى الفخ بنفسه؟ بصوت غلبه الحماس قال:

- دعنا نذهب واطسون.. أيها السائق، إلى ١٨ شارع موريو.

قفز هولمز إلى السيارة بعضلات متشنجة وأنفاس متلاحقة؛ كأنه موشك على بداية نزال ملاكمة.

☆ ☆ ☆

شارع موريو تحده الفنادق الفاخرة تطل على حديقة مونكو، أحد أجمل تلك الفنادق كان الفندق رقم ١٨، فندق البارون فيكتور الذي يسكنه البارون رفقة زوجته وأطفاله، الفندق مؤثث بأرقى الأثاث الذي يليق بفنان ومليونير مثل البارون، الدور الأرضي يتكون من بهو شاسع تقليدي يتوسط الفندق، يحده غرف الاستقبال والموسيقى والمكتبة من اليسار واليمين، وفي الخلف حديقة الفندق التي تتشابك خمائلها مع حديقة مونكو.

استقبل الإنجليزيين أحد الخدم وقادهم عبر البهو الفسيح إلى غرفة الاستقبال على الجهة الأخرى، جلس الرجلان وأخذا يتفحصان الأغراض الثمينة التي أحاطت بهم من كل حدب وصوب في هذه الغرفة الصغيرة نسبيًّا، همس واطسون بنبرة مندهشة:

- انظر لتلك التحف يا هولمز، ربما أصحاب هذه التحف يتجاوز عمرهم عدة عقود.. خمسة عقود على الأرجح!

لم يعلق هولمز، وفُتِح الباب ليدخل البارون وتتبعه زوجته، على عكس توقعات واطسون كان البارون وزوجته شابين، يرتديان أحدث صيحات الموضة، ويتحدثان بطلاقة دون تحفُّظ، كما لم يتوقف كلاهما عن شكر هولمز وصديقه.

- إنه لطف بالغ من قِبَلكم سيدي! يجب أن نمتن لتلك الأحداث التعيسة التي نعاني منها؛ لأنها منحتنا شرف لقائكم.

لاحت من واطسون نظرة متفحصة للشابين، وفكر في رقة ولباقة أولئك الفرنسيين.. بينما أردف البارون:

- ولكن الوقت هو المال؛ خاصةً لو سنتحدث عن وقتك سيد هولمز؛ لذا لأطرق صلب الموضوع، ما رأيك في القضية؟ أتود أن تستمر في التحقيق؟

- لأستمر في التحقيق؛ يجب أن أعرف أولًا القضية.

- ألم تعرفها بعد؟!

- لا، وأرجوك أن تشرحها دون سهو، ما الأمر؟

- إنها قضية سرقة.

- وقعت في أي يوم؟

- السبت الماضي.. ليلة السبت الماضي تحديدًا.

- أي منذ ستة أيام؟ حسنًا، أكمِلْ حديثك.

- يجب أن أخبرك أولًا سيدي أنني وزوجتي ننعم بصورة من صور الحياة التي تُتيحها لنا منزلتنا الاجتماعية؛ لذلك لا نخرج كثيرًا، تعليم أبنائنا، حفلاتنا الصغيرة، كل شيء يحدث تقريبًا بين هذه الجدران، هذه هي حياتنا الصغيرة المنطوية، نقضي كافة سهراتنا في هذه الغرفة، في الأصل هي مخدع لزوجتي، ولكننا نحتفظ أيضًا بالكثير من الأغراض الفنية.

صمت البارون بُرهة يتأكد من إنصات هولمز، ثم أردف:

- السبت الماضي، قرابة الحادية عشرة ليلًا، أنهينا جلستنا وأُغلِقت الأضواء، وكالعادة عُدت أنا وزوجتي إلى غرفتنا.

- أين تقع غرفتكما؟

- إلى جوار هذه الغرفة، أترى هذا الباب؟ يفضي إلى غرفتنا، على كل حال، النهار التالي كان الأحد استيقظت في ساعة متأخرة، وكانت سوزان لا تزال تغط في نومٍ هادئ، على أطراف أصابعي نهضت كي لا أزعجها ودلفت إلى المخدع، أُصِبت بالدهشة حين رأيت هذه النافذة مفتوحة، رغم تأكُّدي أننا أغلقناها ليلة أمس!

- ربما أحد الخدم؟!

- لا يدلف أحد إلى تلك الغرفة في الصباح إلى أن ندق الجرس، ثم أنا دائمًا ما آخذ حذري وأغلق مزلاج الباب المطل على الردهة؛ لذا لقد فُتِحت النافذة من الخارج، لديَّ ما يثبت ذلك، الصليب المنقوش على المربع الثاني من النافذة.. لقد خُدِش.

- وإلى أين تقود هذه النافذة؟

- كما ترى، تطل هذه النافذة على شرفة صغيرة تحيطها شرفة حجرية أكبر حجمًا، هذا الطابق الأول ويمكنك أن ترى أن الحديقة تمتد حتى الباحة الخلفية للفندق، ويفصلها عن حديقة مونكو باب حديدي، لديَّ يقين أن السارق دلف من الحديقة، وكسر أو قفز فوق الباب الحديدي، ثم صعد إلى الشرفة الصغيرة.

- أتقول إن لديك يقينًا؟

- أجل، لقد وجدت بالقرب من الباب الحديدي آثارًا لسلم ما زالت ظاهرة في الأرضية الطينية، وهناك على سور الشرفة آثار لخدوش متوازية؛ ربما نتجت عن وضع السلم المتنقل على حافة السور.

- ألا تُغلق حديقة مونكو في المساء؟

- بلى، تغلق ولكن هناك فندق تحت الإنشاء رقم ١٤، يمكن بسهولة التسلل عبره لتدلف إلى الحديقة.

فكر هولمز عدة دقائق، ثم استطرد:

- لنأتي إلى السرقة نفسها، لقد سُرِق غرض ما من تلك الغرفة؟

- بلى، في هذه الغرفة، بين تمثال العذراء الذي يعود للقرن الثاني عشر وهذا التمثال الفضي كان هناك شمعدان يهودي صغير، لقد اختفى.

- هذا كل ما سُرِق!

- بلى.

- حسنًا، وماذا تقصد تحديدًا بشمعدان يهودي؟

- إنها المصابيح النحاسية التي كانت تُستخدَم في الماضي للإنارة، ولكن لها شكل سداسي؛ أي يخرج منها ستة أضلع، المميز في هذا الشمعدان أن له زرًّا خفيًّا في أسفله حين تضغط عليه يخرج جيب سري.

- فهمت، ولكن يبدو أن هذا الشمعدان ليس ذا قيمة كبيرة.

- أتفق معك، ولكننا اعتدنا أن نضع في هذا الجيب السري خاتمًا عتيقًا من الذهب مرصعًا بالزمرد والعقيق، سعر الخاتم خيالي.

- ولِمَ هذه العادة؟

- القدر سيدي، ليس لديَّ ما أقوله.. إنه القدر، ربما كنا نستمتع باستخدام هذا المكان الخفي.

- ألا يعرف أحد بهذه العادة؟

- لا أحد.

اعترض هولمز قائلًا:

- سوى، على ما يبدو، سارق الخاتم! وإلا لماذا سيختص هذا الشمعدان بالسرقة من بين التحف الأخرى.

- أنت محق على ما يبدو، ولكن كيف سيعرف الآلية التي يُفتَح بها الجيب؟ لم نعرفها سوى عن طريق الصدفة.

- ربما الصدفة ذاتها انكشفت لأحدهم، أحد الخدم مثلًا.. أو الأقارب المعتادين زيارة المنزل. ولكن لنكمل، هل أخبرت الشرطة؟

- بلا شك، لقد أشرف النائب العام على التحقيق بنفسه، كما اهتمت جميع الصحف الكبرى بالحديث عن الأمر، ولكن حتى الوقت الذي راسلتك فيه لم يبدُ لهذه القضية أي خيط يقود لحلها.

نهض هولمز وسار نحو النافذة، فحص إطارها الخارجي، والشرفة الصغيرة، والتراس الواسع، أخرج عدسته المكبرة ليرى بوضوح الآثار التي تركها السلم على الإطار الخارجي للتراس، ثم طلب من البارون أن يصطحبه إلى الحديقة.

جلس هولمز على أحد المقاعد الوثيرة في الحديقة ينظر بتأمل إلى السطح، ثم تحوَّل نظره فجأة نحو صندوقين خشبيين غطيا ثقوب في أرضية الشرفة الخارجية أحدثهم السلم، جثا هولمز على ركبتيه ونزع الصندوقين، ثم بدأ يأخذ مقاسات وأبعاد الثقوب، استغرقت العملية دقائق والبارون واقف ينتظر حتى انتهى الإنجليزي، واصطحبه عائدًا إلى المخدع؛ حيث البارونة في انتظارهما، التزم هولمز الصمت بضع دقائق أخرى، ثم قال:

- منذ بداية قصتك سيدي البارون، أدهشني الجانب البسيط جدًّا لتنفيذ هذه العملية، استخدام سلم متحرك للصعود إلى النافذة وقص الأسلاك، ثم اختيار قطعة بعينها والهرب، الأمر لا يسير بتلك السلاسة، الأمر واضح، واضح لدرجة مقلقة.

- لا أفهم ما تقصده؟

- ما أقصده أن سرقة الشمعدان تمت تحت إشراف أرسين لوبين.

ندت عن البارون صرخة جزع:

- أرسين لوبين؟!

- بلى، ربما لم يكن اليد المنفذة.. قام أحد مساعديه بتنفيذ العملية.. خادم زرعه في الفندق.. هبط من العلية إلى الشرفة؛ مستخدمًا المزراب.. لقد رأيته من الحديقة يصل من العلية إلى الشرفة مباشرة.

- ولكن ما دليلك؟

- أعرف أن أرسين لوبين لن يغادر المخدع فارغ الوفاض.

- فارغ الوفاض! والشمعدان؟!

- سرقة الشمعدان لا تمنعه من سرقة هذا الصندوق المُحلَّى بالعقيق، أو تلك القلادة المرصعة بحبات اللؤلؤ، معنى أنه لم يسرق تلك الأشياء أنه لم يرَها؛ لذلك أخبرك أن أحدهم كان نائبه في عملية السرقة.

- ماذا عن الآثار التي وجدناها في الحديقة؟

- تمويه! وُضِعت في مسرح الجريمة لتبعدنا عن الحقيقة!

- والخدوش على سور الشرفة؟

- ترهات! لقد حدثت بفعل فاعل، هناك مَن خدش السور الخشبي بقطعة من زجاج.. انظر، تلك نشارة الخشب التي وجدتها تحت الشرفة.

- والعلامات التي تركها السلم في أرض الحديقة؟

- مزيد من الترهات! انظر إلى الحفرتين التي تفترض أن السلم تركها في أرض الحديقة؛ يتطابقان مع الحفرتين عند البوابة الفاصلة بين حديقتك والحديقة

العامة.. قطرها ٢٨ سنتميترًا تمامًا.

- ماذا تستنتج من ذلك؟

- أستنتج ـبما أنها متطابقةـ أن قطعة الخشب التي خلَّفت هذه الحفرة، هي نفسها التي خلَّفت الأخرى.

- أعتقد أن الدليل القاطع على صدق كلامك سيكون الحصول على تلك القطعة الخشبية.

بثقة بالغة قال هولمز:

- إليك، لقد وجدتها في الحديقة تحت إحدى شجيرات الغار.

حانت من البارون إيماءة لهولمز، لم يمر على الإنجليزي سوى أربعين دقيقة في هذا المكان بدد خلالها كل ما اعتقد البارون في صدقه، بل أظهر شرلوك هولمز حقائق جديدة دعَّمها بأدلة منطقية لم يصل لها البارون من قبل.

تدخلت البارونة قائلة:

- الاتهام الذي توجهه لموظفينا خطير جدًّا سيدي هولمز، خدمنا هم خدم العائلة، لقد رافقوا أسلافنا من قبل، لا يمكن أن يُقدِموا على خيانتنا.

مد هولمز يده بالرسالة التي أرسلها له أرسين لوبين:

- إذا كان رأيك أنهم لن يقدموا على خيانتكم، فأرجو أن تفسري تلك الرسالة التي وصلتنا في اليوم ذاته مع رسالتكم، مَن أرسلها؟

صُعِقت البارونة من الرسالة، وقالت بنبرة مدهوشة:

- أرسين لوبين! كيف عرف بذلكَ؟

- أنتِ لم تخبري أحدًا عن رسالتك؟

رد البارون ردًّا قاطعًا:

- مستحيل، إن الفكرة راودتنا قبل ليلة من إرسال الرسالة.. ونحن على طاولة الغداء.

تساءل هولمز:

- أمام الخدم؟

- لا، لم يكن في المنزل سوى أطفالنا الاثنين.. وأعتقد أن صوفي وإنريت أيضًا لم يحضرا الغداء هذه الليلة، أليس كذلك يا سوزان؟

استغرقت البارونة لحظة تفكر، ثم أكدت:

- في الواقع كانا رفقة الآنسة.

هنا توقف هولمز، وتساءل في حسم:

- أي آنسة؟

- المعلمة، الآنسة أليس ديمون.

- لا تبقى الآنسة لتناول الطعام معكم؟

- لا، يُقدَّم الطعام لها بشكل منفصل في الغرفة.

هنا أنارت فكرة عقل واطسون المبدع؛ فقال:

- الرسالة المكتوبة أُرسِلت إلى صديقي شرلوك هولمز عبر البريد؛ لذلك أُرسِلت إلى مكتب البريد.

رد الجميع في صوتٍ واحدٍ:

- أمر طبيعي.

- مَن حملها إلى البريد؟

أجاب البارون:

- دومينيك.. هو مساعدي الأمين منذ عشرين عامًا، أي بحث في هذا الصدد سيكون مضيعة للوقت.

قال واطسون الذي شعر بإهانة شديدة:

- نحن لا نضيع وقتنا أبدًا حين نقرر البحث عن شيء.

هكذا انتهى التحقيق الأول مع البارون وزوجته، وطلب هولمز الإذن بالانصراف ليبدأ رحلته في البحث عن خيوط، لكنهما أصرا على بقائه على العشاء.

حين حلَّ موعد العشاء قابل هولمز صوفي وإنريت، فتاتين غاية في الجمال، في الثامنة والسادسة من أعمارهما، ثم دار حديث قصير تقبَّل فيه هولمز مجاملات البارون وزوجته ببرود إنجليزي دفعهما للصمت، حتى قُدِّمت القهوة الفرنسية لهولمز، فتجرع الكوب دفعة واحدة ونهض.

لم يمنع هولمز عن الرحيل سوى دخول أحد الخدم يحمل له رسالة هاتفية كتبها له:

«أُرسِل إليك إعجابي الشديد.. النتائج التي حققتها في مثل هذا الوقت القصير مذهلة.. أنا مذهول!

أرسين لوبين».

بدا على هولمز دلالات الضيق، وقدَّم الرسالة إلى البارون قائلًا:

- أعتقد أنك يجب أن تبدأ في التفكير يا سيدي، هل لجدرانك آذان وعيون؟

همس البارون في حماقة حقيقية:

- أنا لا أفهم ما يحدث على الإطلاق.

- ولا أنا، ولكن ما أفهمه أن أي حركة تحدث هنا، أي كلمة تُلفَظ، يعرف بها أرسين لوبين.

☆ ☆ ☆

في هذه الليلة بعدما صمم البارون أن يمكثا في الفندق، استلقى واطسون بضمير رجل أدى واجباته وسينعم بنومٍ هادئٍ؛ لذلك غط في النوم سريعًا وبدأت أحلام سعيدة تراوده عن إلقائه القبض على لوبين بمفرده، وكان قادرًا على هزيمته بيده المكسورة، كان الحلم خياليًّا لدرجة دفعت واطسون للسقوط عن مضجعه، فنهض مسرعًا هاتفًا:

- كان حلمًا مدهشًا.. أنا ولوبين.. قضيت عليه.

- يا لأفاعيل الشيطان! إنها أحلام يا صديقي العجوز.

- ماذا تقصد يا هولمز، ألست في حاجة إليَّ؟

- أنا في حاجة إلى مساعدتك بالطبع، هيا انهض.

اقترب واطسون من النافذة؛ حيث يقف هولمز الذي أشار نحو الجهة الأخرى من الطريق، وقال:

- انظر.. انظر إلى الجهة الأخرى من البوابة الحديدية.

- في الحديقة؟

- بلى، ألا ترى شيئًا؟

- لا.

- أمعِن البصر.. سترى شيئًا بلا شك!

- آه، في الواقع أرى ظلًّا.. ظلين على ما يبدو.

- أحسنت، أرجو منك أن تتابعهما، لا تفقدهما.

هبط الرجلان السلم إلى الطابق الأرضي، نظرا من أحد النوافذ، ما زال الظلان يقفان في المكان ذاته، قال هولمز:

- الأمر مثير للريبة.. أعتقد أنني أسمع بعض الجلبة في البناية.

- في البناية؟ مستحيل.. الجميع خلد للنوم!

- اسمع جيدًا.

صدرت صافرة واضحة في نفس اللحظة من جهة البوابة، ورأوا ضوءًا خافتًا يصدر

من داخل الفندق، همس هولمز:

- لا شك أن الزوجين أضاءا النور، الضوء يأتي من غرفتهما.

كالعادة ردد الصدى الأمين واطسون:

- أعتقد هذا.. ربما يراقبان البوابة مثلنا.

قال هولمز بتوتر:

- لا أظن.. لا أفهم ما يحدث.

فصدَّق واطسون على كلامه:

- أنا أيضًا لا أفهم.

أزال هولمز مزلاج النافذة، ثم دفعه بحرص شديد، انطلقت صافرة جديدة ـالصافرة الثالثة ربماـ أكثر وضوحًا وصخبًا، ولها نغمة مختلفة عن سابقيها، بينما الضجة القادمة من الطابق العلوي تتزايد فوق رءوسهم وتقترب، قال هولمز:

- أعتقد أن الضجة قادمة من تراس المخدع.

أخرج الإنجليزي رأسه يلقي نظرة، لكنه تراجع على الفور، لكن فضول واطسون دفعه ليلقي نظرة هو الآخر، كان سلم متحرك يستند إلى الحائط بالقرب من غرفتها، يصعد إلى شرفة المخدع، قال هولمز بحسم:

- هناك أحد في المخدع، هو مصدر الجلبة التي سمعناها، أسرِع؛ دعنا نخرج ونحرك السلم من موضعه.

لم يمهل الوقت الإنجليزيين، في اللحظة ذاتها انزلق الرجل على السلم في لمح البصر وحمله راكضًا إلى البوابة الحديدية حيث شركاؤه في انتظاره، ركض إلى الحديقة هولمز وواطسون لتقابلهما طلقتان ناريتان من جهة البوابة، صاح هولمز في صديقه:

- هل أُصِبت؟

- لا.

انقض واطسون على الرجل قبض عليه بذراعه السليمة، وكاد أن يحكم سيطرته عليه، لكن سرعان ما انقلب الوضع وثنى الرجل ذراع واطسون بيد، وباليد الأخرى سدد له طعنة سكين في صدره، على إثرها سقط الإنجليزي، صعقت الصدمة هولمز الذي شاهد صديقه يتهاوى على العشب، وصرخ راكضًا نحوه:

- إذا قُتِل واطسون؛ سأقتلك.. أتسمع؟!

أرخى جسد واطسون إلى العشب وحاول أن يصعد السلم ليلحق بهم، لكن الأوان قد فات، لقد هرب الرجل وشركاؤه، وذابوا وسط الزحام، عاد هولمز

لصديقه وأخذ يطمئنه قائلًا:

- واطسون، ابقَ معي، الإصابة ليست بالغة يا صديقي، جرح سطحي بسيط.

هرع البارون وزوجته من داخل الفندق يلحقهما بعض الخدم، اقترب البارون جزعًا، وقال:

- ماذا حدث؟ هل أصيب السيد واطسون؟

- لا على الإطلاق، خدش بسيط.. إنه يوهم نفسه.

حمل الخدم واطسون إلى إحدى الغرف، بينما دماؤه أخذت تتدفق بغزارة حتى وصل الطبيب بعد عشرين دقيقة، ليؤكد أن الطعنة استقرت على بُعد أربعة مليمترات من القلب.

قال هولمز بنبرة غلب عليها الغيرة:

- أربعة مليمترات؟ هذا واطسون محظوظ دائمًا.

أضاف الطبيب مؤكدًا:

- إنه الحظ بلا شك الذي أنقذ حياته.

- سيدي، متى يمكن أن يغادر السرير؟

- على الأقل لمدة ستة أسابيع.

- ألا يمكن تقليل هذه المدة؟

- لا، أي حركة تؤدي لمضاعفات غير محسوبة.

بعد الاطمئنان على استقرار حالة واطسون، انضم هولمز للبارون في المخدع ليفحصا ما فعله الزائر الغامض هذه المرة، لقد سرق الصندوق المُحلَّى بالعقيق، والقلادة المرصعة بحبات اللؤلؤ، وعدة تحف صغيرة تصلح للتخبئة في جيوب لص يكد في عمله.

كانت النافذة مفتوحة والغريب بنفس الطريقة السابقة.

ما توصل إليه هولمز من بعض التحقيقات هذا اليوم أن السلم قد تم إحضاره من موقع بناء الفندق الجديد رقم ١٤.

قال البارون بنبرة ساخرة:

- خلاصة الأمر أنه السيناريو المطابق لسيناريو سرقة الشمعدان اليهودي.

- بلى، إذا قبلنا بالسيناريو الأول الذي رسمته تحقيقات الشرطة.

- أما زلت لا تقبل به؟ إنها السرقة الثانية التي تدعم رأي الشرطة.

- بلى سيدي.

- هذا أمر لا يُصدَّق! تملك دليلًا لا يدحض أن الاعتداء الذي تم تلك الليلة نفذه شخص من خارج الفندق، وما زلت تصر أن سارق الشمعدان اليهودي شخص من محيطنا؟

- بلى، شخص يسكن هذا الفندق.

- حسنًا، أرجو أن تفسر لي الأمر أكثر.

- لن أفسر شيئًا يا سيدي.. أرى واقعتين لا تتشابهان إطلاقًا إلا في المظهر؛ لذلك يجب أن أحكم عليهما منفصلتين، وسأحاول البحث عن الرابط بينهما.

مجددًا بدت منطقية هولمز فوق كل شيء؛ لذلك انحنى البارون في احترامٍ لرأيه، وقال:

- حسنًا، دعنا نبلغ المفوض.

- هذا لن يحدث أبدًا.. لن أتصل بهؤلاء إلا حين أحتاج إليهم.

- ماذا عن الطلقات التي أصابت صديقك؟

- لا تهم.

- وصديقك؟!

- صديقي مصاب.. سنحضر له الطبيب ليُخرِسه، أنا سأتولى زمام الأمور لأبحث عن حل اللغز.

☆ ☆ ☆

مر يومان بعد تلك الواقعة المريرة دون جديد، كان هولمز يعمل بطريقته الصارمة المعتادة، ولكن غصة تعتريه كلما تذكَّر هذا الاعتداء الذي لم يُفلِح في صده؛ لذلك أخذ يبحث في أنحاء الفندق دون كلل، يستجوب الخدم، ويمكث لفترات طويلة في المطبخ والإسطبل، لم يجد أي شرارة تقوده لخيط، لكنه لم يفقد الأمل.

سيجده.. هكذا كان يفكر هولمز.. حتمًا سيجد، ولكن الدليل في هذا الفندق، تلك المرة الأمر لا يشبه قضية السيدة الشقراء؛ حيث كانت المغامرة فوق كل شيء، والبحث عن سراديب سرية تؤدي لأماكن لا يعرفها، هي الأدلة المطروحة أمامه، تلك المرة هو على أرض المعركة، يعرف الكثير عن لوبين؛ لذلك عدوه لم يعد هذا الخفي الغامض، هذه المرة لوبين يتحرك داخل أروقة هذا الفندق بلحمه ودمه؛ لذلك أصغر التفاصيل قد تقوده للوبين.

هذا الدليل الذي يثبت براعته كمحقق فذ لا مثيل له.. الذي سيقوده إلى سارق الشمعدان اليهودي.. ظهر بمحض الصدفة في بعد ظهيرة اليوم الثالث من وصوله لفرنسا.

دلف هولمز إلى إحدى الغرف التي تقع أعلى المخدع مخصصة لدروس

الطفلتين، حينها كانت إنريت الصغيرة تبحث عن مقص، قالت الصغيرة لهولمز:

- هل تعرف أنني أصنع ورقًا كالذي استلمته تلك الليلة.

- أي ليلة؟!

- تلك الليلة بعد انتهاء العشاء، لقد وصلك تلغراف.. لم تكن كلماته مكتوبة بخط اليد، بل أحرف مقصوصة وملصقة.

قالت الطفلة كلماتها وخرجت، ربما هي كلمات لا تعني أي شيءٍ للآخرين سوى خيالات طفلة صغيرة لم تتجاوز السادسة، حتى هولمز استمع إليها بعدم اهتمام واستمر في تحقيقه، ولكنه بعد لحظات هرع وراء الطفلة ولحق بها على السلالم قائلًا:

- أخبريني إذن أنتِ تلصقين الأحرف على الورق؟

قالت إنريت بفخر شديد:

- بلى، أقص الأحرف من الصحف وألصقها.

- ومَن علمك تلك اللعبة الصغيرة؟

- الآنسة.. معلمتي.. أراها دائمًا تلعب تلك اللعبة.. تحضر الكلمات من الجرائد.. تقصها وتلصقها.

- وماذا تفعل بتلك الأوراق؟

- ترسلها عبر التلغراف أو البريد.

عاد شرلوك هولمز إلى غرفة الدراسة، لا يشغل باله سوى تلك المعلومة الجديدة التي توصَّل إليه بمحض الصدفة، وتعاظمت في نفسه الثقة من تحليله.

في الغرفة وجد دزينة من الجرائد على المدفأة، أخذها هولمز وبدأ مهمة عسيرة في البحث عن الكلمات المفقودة من الجمل وإعادة تجميعها؛ ليُكوِّن جملًا منتظمة.

أكان من اليسير أن يقرأ الجملة ليفهم الكلمات المفقودة من السياق؟ بالطبع لا، لكن هولمز يملك عقلًا فذًّا.. لاحظ أيضًا أن الطريقة التي قُصَّت بها الكلمات ليست منتظمة؛ ربما إنريت هي التي عبثت بتلك الصحف.

من المرجح أن صحيفة واحدة على الأقل كانت ضحية الآنسة، كيف سيعرفها؟

بدأ هولمز يبحث بين الكتب التعليمية الموضوعة على الطاولة، ثم ذهب للبحث بين أرفف الخزانة المواجهة للمدفأة، ندت عنه صيحة بهجة حين وجد في قاع الخزانة تحت بعض الدفاتر القديمة، قاموسًا مصورًا للأطفال، في إحدى صفحاته قُصَّت عدة كلمات.

كانت الصفحة خاصة بأسماء أيام الأسبوع، هناك: الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء،... إلخ، لكن أين السبت؟ كلمة السبت مفقودة.. ألم تقع سرقة الشمعدان اليهودي ليلة السبت؟

شعر هولمز بهذا الصوت المستقر في قلبه الذي لطالما ما يخبره حين يقترب من الخيط الرئيس للحبكة.. بدأ شعور اليقين يتسلل إلى نفسه.. هذا الصوت لم يخفق أبدًا.

أخذ يُقلِّب صفحات القاموس في حماس حين قابلته مفاجأة جديدة، صفحة الأرقام والأحرف فُقِد منها تسعة أحرف وثلاثة أرقام.. كتب هولمز الأرقام والأحرف في مدونته دون الترتيب وجاءته النتيجة:

CDEHNOPRZ-237

من النظرة الأولى لتلك الأحرف يبدو أنها لا تعني أي شيء، هل يمكنه أن يُكوِّن كلمة أو أكثر من تلك الأحرف؟ حاول هولمز ما في وسعه ولكن سدى..

حل واحد بدأ يطوف في عقل هولمز؛ ربما لأنه الحل الوحيد الأقرب للمنطق، ربما لأنه لا يملك حلًّا آخر، ربما لأنه الحل الملائم لتلك الظروف الصعبة..

تلك الصفحة تحتوي على الترتيب الأبجدي؛ لذا الأحرف غير مكررة.. ربما الكلمات تحتاج لتكرار أكثر من حرف، في تلك الحالة ستلجأ الآنسة للبحث عن الحروف المفقودة في صفحات أخرى.. إذا صدق تفكير هولمز فربما تكون الجملة.

أجـ- CH 237

الآن الكلمة الأولى أصبحت واضحة: أجب، ولكن حرف الباء كُرِّر في موضع آخر..

أما الكلمة الثانية فهي مرتبطة باسم بلا شك.. اسم السارق على الأرجح.. ربما الرقم ٢٣٧ هو عنوانه؟

أخذ هولمز يُقلِّب الصفحات مجددًا؛ بحثًا عن أحرف مقصوصة دون جدوى.. الآن عليه الالتزام بافتراضياته حتى ظهور أدلة جديدة.

- الأمر مسلٍّ، أليس كذلك؟

كانت إنريت دلفت دون أن يشعر هولمز، فأجابها بعدما استعاد تركيزه:

- للغاية.. ألا تملكين أوراقًا أخرى؟ أو كلمات مقصوصة بالفعل يمكنني لصقها؟

- أوراق؟ لا للأسف.. على أي حال لن تكون الآنسة سعيدة.

- لا أفهم.. لماذا؟

- لقد وبختني بالفعل.

- لماذا؟

- لأنني أخبرتك بعض الأشياء.. وأخبرتني ألا أخبر أحدًا أسرار الآخرين.

- معك كامل الحق.

بدت إنريت سعيدة برفقة هولمز، فأخرجت من حقيبتها القماشية عدة أغراض بحثًا عن ورقة، حين وصلت لها سلمتها إلى هولمز قائلة:

- تفضل، سأعطيك تلك على أي حال، إنه رقم سيارة أجرة.. ٨٢٧٩

- ولكن أين وجدتِ هذا الرقم؟

- لقد سقطت من حافظة نقودها.

- متى؟

- يوم الأحد.. كانت تُخرِج عدة أوراق نقدية وسقطت تلك الورقة.

- عظيم، الآن دعيني أخبرك وسيلة تقيكِ عقاب الآنسة.. لا تخبريها ما أخبرتني إياه.

ترك هولمز الصغيرة وذهب مباشرة إلى والدها البارون يخبره أنه يود التحقيق مع المعلمة، قال البارون بنبرة عجب:

- آليس ديمون؟ أتظن أنها متورطة؟ هذا مستحيل!

- منذ متى بدأت هذه السيدة في تعليم الأطفال؟

- منذ عام تقريبًا، ولكني لم أتعرف إلى شخص أكثر هدوءًا واحترامًا منها.. أثق بها تمامًا.

- لماذا لم أقابلها أبدًا في الفندق منذ وصولي؟

- إنها غائبة منذ يومين..

- واليوم؟

- عادت، ولكن فور علمها بحالة صديقك، طلبت أن ترعاه، إنها تملك مهارات التمريض.. بدا السيد واطسون سعيدًا أيضًا بهذه العناية.

أومأ هولمز في تأنٍّ غير راغب في سماع المزيد عن صديقه العجوز، فكر قليلًا ثم قال:

- هل غادرت صباح الأحد؟

- اليوم التالي للسرقة؟

- بلى.

نادى البارون زوجته وسألها؛ فقالت:

- غادرت الآنسة ـكعادتهاـ للتسوق في حدود الحادية عشرة رفقة الصغيرتين.

- وقبل الحادية عشرة؟

- قبل الحادية عشرة! لا، لم تغادر.. أو.. لا أعرف! كنت مشغولة بهذه السرقة، ولكني أتذكر أنها طلبت الإذن ليلة السبت في الخروج باكرًا يوم الأحد؛ لتقابل قريبًا يقضي عدة أيام في باريس.. هل لديك شكوك حولها؟

- بالطبع لا، ولكني أود لقاءها.

صعد هولمز لغرفة صديقه، كانت الآنسة ترتدي ملابس الممرضات، رداءً رماديًّا طويلًا، وتساعد المريض ليشرب، حين قابلت هولمز كانت مفاجأة جديدة.. إنها ذات الفتاة التي رآها أمام محطة قطار دي نورد فور وصوله، ولكن لم يبدُ عليها أي ارتباك، على العكس؛ ابتسمت آليس ديمون بسمة ساحرة دون أي توتُّر، حاول الإنجليزي التحدث، لكنه عجز عن إيجاد الكلمات.

استأنفت الفتاة عملها بنفس الهدوء الذي أثار حيرة هولمز ودهشته معًا، لا مزيد من العمل هنا.. هكذا قرر هولمز الذي هبط السلم إلى الباحة حيث عربة البارون، أخذها وذهب إلى مركز السيارات الأجرة، ليبحث عن سائق السيارة ٨ في أثناء صبيحة يوم الأحد، لم يأتِ بعد.. انتظر هولمز ساعة أخرى حتى وصل السائق الذي أخبره أن سيدة ترتدي الأسود استقلت السيارة مع صبيحة الأحد بالقرب من حديقة مونكو، كان وجه السيدة الشابة حذرًا وقلقًا.. قال هولمز:

- أكانت تحمل حقيبة؟

- بلى، حقيبة كبيرة نوعًا.

- وإلى أين اصطحبتها؟

- جادة ديه تيرن.. على ناصية ميدان سانت فرديناند.. اختفت هناك في أحد المنازل عشر دقائق تقريبًا، ثم عادت لأعود بها إلى حديقة مونكو.

- أتعرف أي منزل قصدت في جادة ديه تيرن؟

- بالطبع، أتود أن أصطبحك إلى هناك؟

- على الفور، ولكن لنذهب أولًا إلى مركز الشرطة في ٣٦ شارع أورفيفر.

تجدد اللقاء بين هولمز وجانيمار في مركز الشرطة، لم يكن هناك المزيد من الوقت للترحيب، على الفور قال هولمز:

- سيد جانيمار، هل يسمح وقتك لمرافقتي؟

- إن كان الأمر يتعلق بأرسين لوبين.. لا.

- بلى، يتعلق بلوبين.

- إذن لن أتحرك قيد أنملة.

- كيف؟! هل تستسلم؟!

- بالطبع، الجميع يستسلم أمام المستحيل! أنا في نزال غير متكافئ الأطراف، نحن متأكدون أننا في الكفة الأضعف، هذا هراء.. ومضيعة للوقت.. ما تريده مني أن أقبِل على أمر سيثير سخرية الناس.. لوبين أقوى منا؛ لذا كل ما في وسعنا الانحناء لعبقريته.

- لن أنحني له.

- سيجبرك على هذا في لحظة ما؛ كما فعل الجميع.

- على كل حال لن يفشل العرض في تسليتك.

قال جانيمار ببلاهة:

- هذا حقيقي، ربما سأجرب خوض العراك مجددًا.. دعنا نذهب.

صعد الرجلان إلى السيارة الأجرة، وتوقف بهما السائق كما أمرا على مقربة من المنزل في جادة ديه تيرن.

في شرفة أحد المقاهي الصغيرة القريبة من المنزل جلس الرجلان، بينما الشمس تميل ناحية الغروب.. نادى هولمز النادل وهو يكتب على إحدى الأوراق:

- اذهب بهذه الورقة إلى حارس العقار المقابل، هذا الرجل الذي يرتدي قبعة ويدخن التبغ بالقرب من الباب.

لحظات وجاء حارس العقار إلى طاولة هولمز، تحاشى جانيمار تقديم نفسه بصفته كبير المفتشين، أما هولمز فسأل الحارس عن سيدة شابة ترتدي ثوبًا أسود جاءت صبيحة الأحد.

- ثوب أسود؟ بلى، في تمام التاسعة.. صعدت إلى الدور الثاني.

- هل تراها عادةً تأتي إلى العقار؟

- لا، ولكن خلال الأسبوعين الماضيين كانت تأتي تقريبًا كل يوم.

- ومنذ يوم الأحد؟

- جاءت مرة واحدة.. اليوم.

- كيف؟! جاءت إلى هنا؟!

- إنها هنا بالفعل!

- أنت واثق مما تقول؟

- بالطبع، وصلت قبل عشر دقائق، السيارة تنتظرها أمام ميدان سانت فرديناند كعادتها، لقد فتحت لها الباب بنفسي.

- ومَن قاطن الدور الثاني؟

- رجل وسيدة.. شقة يسكنها الآنسة لانجي، وسيد أجَّر الشقة المفروشة لمدة شهر يدَّعِي أن اسمه السيد بيرسون.

- لماذا قلت «يدَّعِي»؟

- أعتقد أنه اسم مستعار؛ زوجتي المعنية بتنظيف منزله، كل قمصانه تحمل حروفًا مختلفة..

- لا أفهم.

- أي أن كل قميص نُقِش عليه حروف اسم مختلفة عن الأخرى.

- أخبِرْني أكثر عن حياته.

- غالبًا ما يحيا خارج المنزل، لم يعد إلى المنزل منذ ثلاثة أيام.

- هل عاد ليلة السبت؟

- دعني أتذكر. أعتقد أنه لم يغادر المنزل ليلة السبت.. لقد مكث طوال الأمسية.

- ما رأيك في تصرفاته؟

- في الحقيقة لا يمكنني الحكم.. هو متقلب بصورة غريبة! حتى مظهره يتغير، أشقر.. خمري.. طويل. قصير.. حتى هذه اللحظة أنا أعجز عن التعرف إليه بيسر.

نظر جانيمار لهولمز نظرة ذات معنى، وهمس:

- إنه هو.. حتمًا هذا هو.

ساد القلق الملحوظ على الرجلين، أخذ المحقق العجوز يحرك رأسه يمنة ويسرة، بينما الإنجليزي بالكاد استطاع الحفاظ على مظهره الهادئ؛ حتى قطع الحارس الصمت، وقال:

- انتبها! هاهي الشابة تخرج.

رمق الرجلان السيدة وهي تغادر المبنى وتعبر الطريق نحو جهة القصر، ثم تابع الحارس حديثه:

- وهاهو السيد بيرسون.

- أين هو؟

- هناك.. يضع حقيبة أسفل إبطه.

- لكنه لم يرافق الفتاة الشابة! لقد صعدت بمفردها إلى السيارة.

- بالفعل، أنا لم أرَهم معًا أبدًا.

نهض الرجلان مسرعين نحو الشارع بعدما ميَّزا هيئة أرسين لوبين، يعبر الجهة الأخرى نحو القصر، سأل جانيمار:

- مَن تفضل أن تتبع؟

- هو.. هو رأس الحية.

- حسنًا، دعني إذن ألحق بالآنسة.

قال الإنجليزي بحسم:

- لا، دع أمر الآنسة الآن.. أعرف أين أجدها.. ابقَ معي.

بدأ الرجلان رحلة ملاحقة لوبين متخفيين في الزحام تارة، وخلف أكشاك الجرائد تارة أخرى، كانت الملاحقة سهلة؛ لأن لوبين لم يلتفت وتحرك بسرعة، رغم عرجة بسيطة بدت على قدمه اليمنى، عرجة كان من العسير على العين المجردة ملاحظتها، قال جانيمار:

- إنه يتصنع العرجة.. ربما يمكننا طلب المساعدة من رجال الشرطة والانقضاض عليه، نحن نخاطر الآن بفقدانه..

الظاهرة العجيبة كانت اختفاء رجال الشرطة المنوط بهم حراسة ميدان سانت فرديناند، الآن لا يمكنهما توقُّع أدنى مساعدة من أحد، قال هولمز:

- دعنا ننفصل.. الطريق خالٍ.

كانا قد وصلا بالفعل إلى طريق فيكتور هوجو، ذهب أحدهما إلى الرصيف المقابل وبدأ سيره تحت الأشجار، بينما الآخر ما زال في أعقاب لوبين، مرت تقريبًا عشرون دقيقة من السير حتى استدار لوبين إلى اليسار بمحاذاة نهر السين، وهبط الدرجات التي تفضي لضفة النهر، وقف لوبين في مكان تعسر عليهم رؤيته، ثم عاد صاعدًا وعبر أمامهما وهما يتواريان خلف إحدى الأشجار، تلك المرة دون الحقيبة التي خرج بها من المنزل.

تابعا لوبين وهو يتحرك مبتعدًا، ثم ظهر رجل آخر من إحدى البنايات، وأخذ يتحرك متواريًا بأشجار الجهة الأخرى، قال هولمز بصوت مرتفع:

- هذا الرجل هناك يلاحق لوبين هو الآخر.

- أجل، أعتقد أنني رأيته من قبل.

استمرت المطاردة، ولكن حضور هذا الرجل الغريب جعلها أكثر تعقيدًا، عاد لوبين من نفس الطريق، نحو شارع فيكتور هوجو، ثم إلى منزله في ميدان سانت فرديناند، ألقى التحية على الحارس الذي بدوره أغلق الباب خلفه، ثم اقترب جانيمار سائلًا:

- رأيته، أليس كذلك؟

- بلى، لقد صعد إلى المنزل.

- هل هناك مَن يرافقه في المنزل؟

- لا، ولا خادم.. إنه لا يحتاج إلى الخدم؛ لأنه لا يتناول طعامه في المنزل أبدًا.

- هل هناك سلم خدم في هذه البناية؟

- لا.

قال جانيمار لهولمز:

- اسمع، سوف أصعد لأمكث أمام باب منزله، بينما تذهب للبحث عن الشرطي المفوض في شارع ديمور، وانتظر كلمة مني.

اعترض هولمز قائلًا:

- وإذا هرب في هذه المدة؟

- حتى وأنا أراقبه..

- لا تنسَ.. مواجهة لوبين غير متكافئة.

- معك حق، ولكني لا أملك الحق لأقتحم منزله..

هز هولمز كتفيه في عدم اكتراث، وأردف:

- حين تلقي القبض على أرسين لوبين.. لن يسألك أحد عن ملابسات القبض عليه.. على كل حال، دعنا نجرب دق الجرس، ونرى ما سيحدث.

صعد الرجلان إلى الطابق الثاني، دق جانيمار الجرس.. لا إجابة.. دقه مجددًا.. لم يجد غير الصمت مجيبًا.. همس هولمز مشجعًا:

- دعنا نكسر الباب.

- حسنًا، هيا..

لم يتحركا؛ ربما الخوف من لوبين كان أقوى من كل شيء.. كلاهما لا يشاء التورط في موقف ساخر آخر بسبب هذا اللص الظريف، ربما أيضًا استبعدا أن أرسين لوبين على هذه المقربة منهما، خلف باب خشبي ضعيف، ركلة واحدة تطيح به وتكشف لوبين.. يعرفانه جيدًا، لا يمكن أن يُلقَى القبض عليه بتلك السهولة، سوف يهرب.. للمرة الألف.. سوف يأتي منطاد لينقذه، أو يهرب عبر سراديب تصل المنازل ببعضها، غرف سرية.. ربما سلم خلفي، لكنه لن يُلقَى القبض عليه.

أرهفا السمع.. هناك حركة خلف الباب.. لقد شعر بهما.. لقد سمع صوت أفكارهما.. هذا الباب الرقيق لن يقيهم شر لوبين.. لقد سمعهما وكشف

أمرهما..

ماذا يفعلان! الوضع أصبح تراجيديًّا.. لم يتخيل الرجلان الشهيران ـبقدرتهما على حل القضيةـ أن يدق قلباهما كالأطفال خوفًا..

بطرف عينه حانت نظرة من جانيمار إلى هولمز بحثًا عن الطمأنينة، ثم قرع جانيمار الباب.. صوت أقدام تتحرك بعيدًا عن الباب..

ضربة كتف من الرجلين.. سقط الباب.. هرولا يشهران سلاحيمها.. ولكن صوت عيار ناري من الغرفة المجاورة صعقهما لوهلة.. ثم استفاقا حين تلى الصوت، صوت جثة تسقط إلى الأرض..

أسرعا نحو الغرفة، هناك رجل مُلقًى على الأرض في مواجهة المدفأة، ومسدسه قريب من يده.. انحنى جانيمار ليفحص وجه الجثة الذي غطته الدماء، ولكنه تمكن من تمييز جرحين على الخد والجبهة، خرج الرجلان، وقال جانيمار هامسًا:

- أصبح لا يمكن تمييزه.

- لا تكن سخيفًا، هذا ليس لوبين.

- وكيف تعرف؟ لم تفحص الجثة!

- فكر جيدًا، هل أرسين لوبين رجل قابل للقتل؟!

- ولكننا تعرفنا إليه في الخارج..

- لقد تعرفنا إليه؛ لأننا وددنا أن نصدق أن هذا أرسين لوبين.. لقد فقدنا صوابنا بسبب هذا الرجل.

- أتظن أنه أحد شركاء أرسين لوبين؟

- شركاء لوبين لا يمكن قتلهم أيضًا.

- حسنًا، مَن هذا؟!

شرع الرجلان يفتشان الجثة، وجد شرلوك هولمز في أحد الجيوب محفظة فارغة، بينما وجد جانيمار في الجيب الآخر خيط قماش، طفقا يبحثان عن أدلة في أنحاء الغرفة.. لا شيء.. فقط حزمة جرائد تتحدث جميعها عن سرقة الشمعدان اليهودي.

استسلم هولمز وجانيمار بعد ساعة من البحث المضني دون اقتفاء أثر تلك الجثة، ربما اقتحامهما للمنزل دفع هذا الرجل للانتحار!

مَن كان؟ لِمَ قُتِل؟ ما صلته بحادثة سرقة الشمعدان اليهودي؟ مَن كان يتبعه في أثناء عودته من نهر السين؟ المزيد من الأسئلة المعقدة، المزيد من الألغاز دون حل!

وصل هولمز إلى مضجعه تلك الليلة سيئ المزاج، يفكر في هذا النهار المؤسف حتى غلبه النعاس.

استيقظ النهار التالي على نص رسالة وصلته للتو:

«يتشرف أرسين لوبين بإبلاغكم بوفاة السيد بيرسون، ويدعوكم لحضور الجنازة في يوم الخميس ٢٥ يونيو».

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

قال هولمز لصديقه واطسون، بينما يمزق رسالة أرسين لوبين:

- أترى يا صديقي العجوز؟ ما يثيرني في هذه المغامرة هو استمرار الإثارة التي يُقدِّمها هذا المحترم اللعين.. لا يُخطئ أبدًا في تخمين أكثر أفكاري سرية، أحرص في خطاي جيدًا، ولكنه يسبقني، ليعلمني أنه قادر على التنبؤ بخطواتي.. أتفهم يا واطسون؟

ربما كان أيسر على واطسون أن يفهم ما يلمح له هولمز إذا كان في حالة طبيعية تسمح له بالفهم، لكنه يقضي لياليه يعاني من ارتفاع الحرارة الشديد بين الأربعين درجة والحادية والأربعين، على أي حال لم يكن هولمز يسأل منتظرًا إجابة من صديقه، بل أردف قائلًا:

- يجب أن أحشد كافة وسائلي، وأستجمع قواي لكي لا أفقد شجاعتي أمامه أبدًا، من حسن الحظ أن تلك الخدع الصغيرة تحفزني أكثر ولا تفتر من عزيمتي، دائمًا ما تدفعني انتصاراته الصغيرة للتفكير: «حسنًا، أحسنت أيها الرجل الصغير آتٍ بمزيد مما تملك، في لحظة ما ستخونك براعتك». على أي حال لم يكن لوبين الذي منحني تلك التفاصيل عن مراسلاته مع آليس ديمون، كانت براعتي أنا في البحث عن الحقيقة.

أخذ هولمز يتحرك جيئةً وذهابًا في أنحاء الغرفة، ويتحدث لنفسه بعدما غفا صديقه من شدة التعب:

- على كل حال، الأمر ليس في غاية السوء، إذا كان الطريق وعرًا؛ فأنا اعتدته، في البداية سأبدأ أنا وجانيمار في تقفي أثر السيد بيرسون، سنلتقي اليوم على ضفة السين في نفس المكان الذي تخلص فيه بيرسون من الحقيبة، وهكذا سنعرف ما فعله بالضبط، أما عن البقية هناك لعبة ستدور بيني وبين آليس ديمون، عدو صغير، أليس كذلك واطسون؟!

لم تأتِه إجابة؛ فأكمل:

- لا تظن أنني سأُلهَى عن اكتشاف ما تبقى من الكلمة الأخرى.. سأبحث عن بقية الأحرف المقصوصة لأُكوِّن الكلمة المفقودة، ماذا تعني C وH في رأيك يا واطسون؟

دلفت أليس، وقالت لهولمز الذي رمقه بنظرة فاحصة:

- سيد هولمز، سأضطر لمعاقبتك إذا أيقظت مريضنا، ليس من صالحه أن يستيقظ، لقد أكد الطبيب ضرورة الراحة الكاملة.

لم يعلق هولمز، مندهشًا كعادته من هدوئها غير المفهوم، قالت أليس:

- لِمَ ترمقني هكذا سيد هولمز؟ بلا سبب! لا أظن.. دائمًا ما ترمقني بنظرة لها

معنى.. ما هو سيدي؟ أرجوك أن تخبرني.

تسأله بوجه بريء، وأعين صافية، لا يبدو عليها أبدًا القلق أو الخوف، أو أنها تخبئ مصيبة كبيرة وراء هذا القناع الهادئ، هذا الهدوء المبالغ فيه أثار حنق الإنجليزي الذي اقترب منها، وقال همسًا:

- لقد قُتِل بيرسون ليلة أمس.

قالت وقد بدا عليها أنها لم تفهم:

- قُتِل بيرسون ليلة أمس؟

كان من الجلي أنها لا تفهم ما يُقال، من الصعب تقصي أي علامة من علامات الكذب على محياها؛ لذلك قال هولمز بحنق:

- تعرفين مسبقًا.. وإلا لكان بدت عليكِ أدنى علامات الصدمة.. يا لكِ من قوية! ولكن لِم هذا الجهد لتخفي ما تعرفينه؟

أحضر هولمز القاموس المصور الذي اكتشفه في غرفة الدراسة، وفتحه على الصفحة المقصوصة:

- هل يمكنك أن تخبريني ترتيب الأحرف الضائعة هنا، ساعديني لأعرف فحوى الرسالة التي أرسلتيها للسيد بيرسون قبل سرقة الشمعدان اليهودي بأربعة أيام.

كررت الكلمات ببلاهة:

- ترتيب الأحرف؟ السيد بيرسون؟ سرقة الشمعدان اليهودي؟

- أجل، إليكِ الأحرف التي نُزِعت من تلك الصفحة.. ماذا أرسلتِ تخبرين السيد بيرسون؟

مجددًا لم يتمكن هولمز من دفعها للكلام، ثم ندت عنها ضحكة عالية، وقالت:

- الآن فهمت! أنت تظنني مشتركة في السرقة! هناك رجل يُدعَى بيرسون سرق الشمعدان وقُتِل، وأنت تدَّعي أنني صديقة هذا الرجل، يا لك من مُسلٍّ!

- حسنًا، سايريني.. مَن قابلتِ ليلة أمس في الطابق الثاني في منزل يقع في جادة ديه تيرن؟

- مَن؟ السيدة لاينجي صانعة القبعات، هل تظن أن صديقتي والسيد بيرسون شخصًا واحدًا؟

رغم كل الإجابات الواضحة التي تقدمها أليس؛ فإن الشك ما زال يساور هولمز، قال:

- كلمة أخيرة: لماذا أتيتِ إليَّ عند محطة القطار؟ لماذا رجوتيني ألَّا أتدخل في حل تلك القضية وأعود إلى إنجلترا؟

قالت ضاحكة وهي تهم بالخروج:

- أنت فضولي يا سيد هولمز، عقابًا لك لن أخبرك، وسأتركك إلى جوار صديقك ترعاه حتى أعود من الصيدلية.. هناك دواء نفد وعليَّ أن أبتاعه.

حدَّث هولمز نفسه:

- لقد أخفقت كليًّا، لم أكتشف أمرها، والأسوأ أنني كشفت نفسي لها.

أخذ يتذكر قضية الماسة الزرقاء، وتحقيقه مع الآنسة كلوتيلد ديتان، ألم يكن الأمر مشابهًا، كانت كلوتيلد تتسم بنفس الثبات، محصنة بهالة أرسين لوبين؛ لهذا حافظت على أشد درجات الهدوء في أقصى لحظات التوتر.. بصوت خفيض مذبذب ناداه واطسون فاقترب يسأله:

- ما الأمر يا صديقي، هناك شيء يؤلمك؟

بصعوبة شديدة وبعد عدة محاولات للحديث قال واطسون:

- لا، هولمز، ليست هي.. من المستحيل أن تكون هي.

- ماذا تقول؟! أنا أخبرك أنها هي! من المستحيل ألا تكون، أنا لا أفقد هدوئي وعقلي إلا أمام مخلوق يرعاه ويعضده أرسين لوبين. هذا ما فعلته تمامًا، هي تعرف الآن كل شيء عن القاموس المصور، أراهنك أنها ستحذر لوبين قبل مرور ساعة.. ساعة! لا.. ستحذره الآن.. الصيدلي والروشتة والأدوية ما هي إلا ترهات!

غادر هولمز مسرعًا، ولحق بأليس التي دلفت إلى الصيدلية، وخرجت بعد عشر دقائق تحمل قنينة الدواء المغلفة، في أثناء عودتها لحق بها أحدهم، يمد يده لها طالبًا صدقة، توقفت لوهلة مدت يدها بشيء لم يرَه الإنجليزي من موضعه، ورحلت، لكن هولمز شعر أنها تحدثت إليه.

ربما كان تكهنه خاطئًا، ولكنه دفعه لتغيير خطته؛ فترك مراقبة الفتاة واتجه لمراقبة هذا الشحاذ المزيف، حتى وصلا إلى ميدان سانت فيردناند؛ حيث بدأ الشحاذ يدور لمدة طويلة حول منزل بيرسون، يرفع عينه بعض المرات إلى نوافذ الطابق الثاني، ويراقب المارة حول البناية.

ثم بعد ساعة من مراقبة البناية، صعد الرجل إلى الترام المتجه نحو نيلي حيث لحقه هولمز، وجلس على مقربة دون أن يلحظه الرجل مختبئًا وراء صحيفة ادعى قراءته فيها، بعد عدة دقائق جلس أحدهم إلى جوار هولمز، وهمس:

- إنه رجلنا..

نظر هولمز نحو مصدر الصوت ليجد جانيمار الذي أكمل حديثه:

- هذا الرجل الذي تبع بيرسون ليلة أمس، هو ذاته الذي طاف الميدان خلال الساعة الماضية.

سأل هولمز:

- لا أخبار جديدة عن بيرسون؟

- بلى، وصلت رسالة صباح اليوم من عنوان منزله.

- هذا الصباح؟ هذا يعني أنها وصلت إلى مكتب البريد أمس، قبل أن يكتشف الراسل وفاة بيرسون.

- بالضبط، الرسالة الآن في حوزة قاضي التحقيق، ولكنني أتذكر الكلمات التي قرأتها: «إنه لن يقبل بأي تحويلات، هو يريد كل شيء، وإلا سيتحرك». الرسالة لم تكن مُوقَّعة؛ لذلك تلك الكلمات القليلة لن تفيدنا في شيء.

- لست أتفق معك على الإطلاق سيد جانيمار، تلك الكلمات القليلة تثير الكثير من التساؤلات.

- لماذا؟

قال هولمز بغموض حبَّذ أن يُبقِي عليه في علاقته مع جانيمار:

- لأسباب شخصية.

توقف الترام في شارع شاتو عند نقطة التقاطع، فهبط الرجل ولحق به هولمز دون حيطة؛ مما أثار قلق جانيمار الذي قال:

- إذا أدار وجهه سيرانا.

- لن يستدير الآن.

- كيف تعرف؟

- إنه أحد رجال أرسين لوبين، وما يفعله رجال لوبين هو السير بهدوء وأيديهم في جيوبهم، ليخبر ملاحقيه أنه يعلم بوجودهم وليس خائفًا.

- مع ذلك نحن نسير على مقربة منه!

- ليس بالقرب الكافي ربما يمكنه أن يهرب من بين أيدينا في لحظات.. إنه واثق من نفسه.

- هيا يا رجل! إنك تثير حنقي! هناك شرطيان أمام هذا المقهى هناك إذا طلبت منهم المساعدة لن يتوانا عن مساعدة كبير المفتشين! كيف سيهرب من بين أيدينا؟

- الرجل لا يبدو عليه القلق.. انظر.. إنه يدنو متحدثًا إليهما.

- اللعنة.. هذا الرجل صعب المراس!

اقترب الرجل من الشرطيين الذين كانا على وشك الصعود إلى دراجتيهما، أخبرهما شيئًا وفي طرفة عين صعد إلى دراجة أخرى ملقاة أمام المقهى،

وتحرك بسرعة معهما، ضحك الإنجليزي، وقال:

- هل رأيت تنبؤي؟ واحد.. اثنان.. ثلاثة.. اختفى! وكيف؟ بمساعدة اثنين من زملائك، سيد جانيمار. أرسين لوبين لا يمكن اللحاق برجاله! أخبرتك أن هذا الرجل هادئ أكثر من اللازم.

شعر جانيمار بالإهانة فقال:

- حسنًا، ماذا بعد؟! ماذا علينا أن نفعل، ليس الوقت ملائمًا للضحك.. ضحكات إهانة لي.

- هيا، لا تفقد صوابك الآن.. سوف ننتقم منه، أما الآن نحتاج للدعم.

- أعتقد أن فولانفانت ينتظرني في نهاية جادة نيلي..

- حسنًا، اذهب وأحضِرْه والحق بي.

ذهب هولمز إلى ضفة السين عند البقعة التي ترك عندها بيرسون الحقيبة، كانت مياه النهر في حالة انحسار؛ لذا من السهل على هولمز رؤية الحقيبة إذا كانت قابعة في قاع النهر، لكن ربما الرجال الثلاثة قد سبقوه إلى هنا.. همس هولمز لنفسه:

- لا، مستحيل.. لم يملكوا الوقت ليصلوا ويُخرِجوا الحقيبة، لم يمر سوى ثلث ساعة..

لمزيد من التأكد اتجه هولمز إلى صياد يجلس في أحد القوارب بمحاذاة النهار، وسأله:

- ألم ترَ ثلاثة رجال على دراجات جاءوا لهنا؟

أومأ الصياد أن لا، فسأل الإنجليزي:

- ولكن.. إذا حضر الرجال إلى هُنا.. حتمًا ستراهم.. بالطبع وقفوا على مقربة منك.

وضع الصياد السنارة في غمدها، أخرج من جيبه مدونة وكتب على إحدى الأوراق ثم مزقها وسلمها لهولمز، تناول هولمز الورقة ليصيبه صدمة كبيرة، على الورقة كانت الحروف والأرقام ذاتها الممزقة من القاموس المصور: CDEHNOPRZEO-237

ألقت الشمس بأشعتها الدافئة على ضفة النهر، وعاد الصياد يتابع هوايته، مستمتعًا بما يفعله، بينما هولمز قد أصابته لحظة صمت طويلة وأخذ يفكر.. أهذا هو؟ يا له من قلق لا يُطاق هذا الذي يحفه!

ثم صعقته الفكرة كالبرق ينير جنبات عقله.. إنه هو.. لا أحد غيره قادر على المكوث هكذا بهدوء دون قلق.. دون أن يعتريه شائبة خوف.. إنه هو.. وإلا كيف له أن يعلم بتلك الحروف الممزقة من القاموس! لقد حذرته أليس بالطبع.

تحركت يد الإنجليزي دون وعي إلى مسدسه، وصوب بصره إلى ظهر الصياد، بالقرب من عنقه، لو تحرك قيد أنملة ستنتهي حياة المغامر الكبير بصورة مأساوية.. لكن الصياد لم يتحرك.

سحب هولمز مسدسه في ضيق، والرغبة تجتاح ليطلق النار على الرجل وينهي هذا الخوف غير المبرر، ولكنه تصرُّف لن يتسق مع طبيعته الهادئة، إذا أطلق النار سيموت الرجل.. غير أكيد أنه لوبين.. ولكن الأكيد أنه سينهي حياته..

ما زال الصياد لا يتحرك.. ربما عليه التحرك الآن.. الدفاع عن نفسه.. هدوءه هذا يدفع هولمز لمزيد من الجنون.. سيطلق النار حتمًا إذا استمر الوضع هكذا. التفت هولمز إلى صوت أقدام تتحرك نحوه كان جانيمار ورجاله وصلوا بالفعل.

تتغير الخطة.. يقفز هولمز إلى القارب.. يقبض عليه بكلتا يديه.. الآن أكيد أنه لوبين.. صرخ الفرنسي قائلًا:

- وماذا بعد؟ ماذا ستثبت بفعلتك تلك؟ حين يُلحِق أحدنا الأذى بالآخر.. أسيظفر بنوط الشرف؟! أنا لا أعرف كيف أهزمك تمامًا.. وكذلك أنت.. سنمكث هكذا كالحمقى..

استمرا في كيل الضربات لأحدهما الآخر حتى سقطا من القارب.. الصراع في الماء كان أكثر صعوبة على هولمز العجوز.. أظهر لوبين تفوقًا كبيرًا؛ حتى تمكن من الإفلات من قبضته وقفز إلى القارب:

- يا له من خبر سيدي! لقد فقدت قدرتك على التمييز. تفعل تلك الأفاعيل التافهة في عمرك! رجل كبير يرتكب الحماقات.. يا لها من قصة حزينة!

مد هولمز يده إلى المسدس.. متأخرًا.. لقد سرقه لوبين.

حاول هولمز الإمساك بأحد المجاديف ليصعد هو الآخر على متن القارب، ولكنه عجز عن اللحاق به، بينما تابع لوبين التجديف وهو يقول:

- القدر يقرر دائمًا.. كما ترى القدر دائمًا في صالحي.. النصر يُفضِّلني.

أخذ القارب يبتعد حتى أطلق أحدهم النار نحو لوبين، أخطأت الرصاصة الهدف.. ولوبين لا يتوقف عن الحديث:

- إنه صديقك جانيمار.. لقد أصابه نفس الجنون، فأطلق النار على مواطن دون سبب رسمي.. ألهذه الدرجة نسيت واجباتك سيدي كبير المفتشين؟ هيا، أطلِقْ مرة أخرى!

لم يطلق جانيمار فاستمر لوبين في استفزازه:

- هيا، أنا أبتعد.. صوِّبْ هنا جانيمار.. نحو قلبي.. يا لك من جبان! طلقة واحدة.. إنك ترتعد جانيمار أليس كذلك؟ هيا، طلقة واحدة بدم بارد.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أطلِقْ! اللعنة، هل تمنحكم الحكومة مسدسات لعبة؟!

أخرج لوبين مسدسًا وصوب نحو جانيمار، فأصابت الطلقة قبعته:

- ما رأيك أيها المفتش؟ صناعة جيدة أليس كذلك؟! إنه مسدس صديقي السيد شرلوك هولمز.

ألقى لوبين المسدس نحو الرصيف ليقع أمام قدمَي جانيمار، لم يملك هولمز سوى الابتسام والإعجاب بما يفعله لوبين.. يا له من شاب عفوي مفعم بالحياة! بدت عليه أعتى علامات المرح..

التفت لوبين إلى هولمز، بينما القارب يسبح بعيدًا ويلاحقه جانيمار ورجاله:

- اعترفْ سيدي، إنك لن تبيع هذه اللحظة بأثمن الجواهر والعقيق.. إنك تجلس في المقاعد الأولى لتشاهد هذا العرض المدهش.. الآن دعنا ننتهي من تلك المقدمة الطويلة، ونقفز إلى الفصل الذي يهرب فيه أرسين لوبين؛ لذا اسمح لي سيدي العزيز أن أسألك سؤالًا.. أرجو أن تجيب إما بنعم أو لا؛ دون غموض: هل تتنازل عن التحقيق؟ ما زال لديك الوقت.. يمكنني إصلاح ما أفسدته حتى الآن.. فيما بعد لن أستطيع.. أتوافق؟

- لا.

تبدل مظهر لوبين.. من الواضح أن هذا العناد أغضبه، فقال:

- أنا أصر.. من أجلك أكثر مني.. ستكون أول مَن يندم إذا استمررت ستندم.. لمرة أخيرة.. نعم أم لا؟

- لا.

- أعتقد سيدي أننا جئنا إلى ضفة هذا النهر بنفس الهدف؛ لنحضر ما تخلص منه بيرسون.. كنت على وشك البدء في التنقيب عن هذا الغرض في أعماق النهر حين أخبرني أصدقاء بقدومك.. لم أكن متفاجئًا؛ لأنني كنت على علم بكافة تحركاتك على مدار الساعة منذ وصلت إلى باريس.. هذا أمر ضروري في ظل تلك الظروف.

أحاطت قوارب الشرطة بقارب لوبين، الذي أكمل حديثه:

- هناك تسريب في هذا القارب القديم.. لا أعرف كيف ثُقِب.. ألست خائفًا سيدي؟

هز هولمز كتفيه أن لا، فأردف لوبين:

- ربما عليَّ أن أشرع في هذا القتال الذي حاولت تجنُّبه، ولكنك مصر على التمادي فيه، خاصة وأنا أملك بين يدَي كافة مفاتيح اللعب.. ربما عليَّ الآن أن أهزمك شر هزيمة تحت أنظار العالم، هكذا لن تسعى كونتيسة أخرى، أو بارون آخر في طلب خدماتك..

توقف لوبين عن الحديث لحظات، وأخذ ينظر بتمعن إلى المياه المتدفقة إلى

القارب، ثم استطرد قائلًا:

- اللعنة؛ المياه ترتفع.. سيد هولمز، إليك نصيحتي.. فلتقفز لتكبلني وتلقي القبض عليَّ وتسلمني لشرطة بلادي، هذا السيناريو الأفضل، وإلّا سننتظر حتى يتحطم القارب، ويمكننا خلال تلك الفترة كتابة وصيتنا.

تلاقت أعينهما للحظات.. لقد فهم هولمز خطة لوبين.. لم يخرق القارب أحد غيره.. هاهي المياه ترتفع.. ماذا عليه أن يفعل؟ تغطي أقدامهم.. ترتفع نحو الساق.. لم يتحركا.. ولكن ما الحل؟ أخرج الإنجليزي ورق تبغ، دس فيه التبغ ولفه ثم أشعل سيجارته، بينما لوبين الذي بدأ في فقدان أعصابه قال:

- في الحقيقة سيدي العزيز.. الاعتراف الوحيد لك بالهزيمة هو أن أنحني أمامك.. أعترف أن هولمز هو العدو الوحيد الذي أخشاه، وأبدأ في حساب خطواتي حين ألقاه.. عليَّ أن أخبرك تلك المشاعر في هذه اللحظات الحاسمة.. ما أندم عليه هو أن تلك الكلمات تخرج مني متأخرة..

لم يعلق هولمز، واستمر ينفث دخان سيجارته، لا شيء في العالم يمكنه تعكير صفو هذا الرجل.. كيف نصف الموقف؟ رجلان على وشك الغرق في النهر، أحدهما يثرثر والآخر يتأمل السماء، كلاهما يختبئ خلف قناع اللامبالاة، بينما الخوف يتسلل إلى أعماقهما.. مرت دقيقة أخرى.. المياه ترتفع.. القارب يغرق، استمر لوبين في الثرثرة:

- بيت القصيد.. أننا سنغرق.. قبل أو بعد وصول رجال العدالة، لا فارق.. نحن لسنا بصدد أي احتمالية.. نغرق أو لا نغرق؟ لا.. سنغرق.. أتعرف فيم أفكر.. ربما أترك للمواطن الإنجليزي شرلوك هولمز ثروتي كلها، لكن هاهم.. أبطال العدالة.. يلوحون في الأفق.. يا لهم من بارعين! أهذا الرجل هناك هو فولانفان!

ربما لم يهذِ لوبين من قبل مثل تلك اللحظات، ثرثرته لم تتوقف:

- أحسنت، فكرة السفينة الحربية ممتازة! أتريد ميدالية عليها؟! لك ذلك.. ورفيقك ديزي! ربما هو على الضفة الأخرى محاط بالمواطنين.. إذا هربت من الحطام إلى أين أذهب؟ لا مفر من ديزي ورجاله من جهة، وجانيمار ورجاله من الجهة الأخرى.

انقلب القارب.. واجه الرجلان النهاية المحتومة.. حاول هولمز التشبث بالمجداف، بينما قال لوبين:

- سيدي، من الأفضل أن تخلع معطفك؛ سيمنحك المزيد من الحرية لتسبح.. لا، ترفض؟ سأرتدي معطفي أنا الآخر.

وضع لوبين معطفه، ثم ـوأخيرًاـ نطق هولمز:

- سيد لوبين، لقد ثرثرت بما يكفي.. في كثير من الأحيان بلا معنى.

- هذا توبيخ قاسٍ.

- على أي حال لقد منحتني المعلومة التي أحتاج إليها.

- كيف؟ أنت تبحث عن معلومة ولم تخبرني؟!

- لا أحتاج لمساعدة أحد يا سيدي، على أي حال في خلال ثلاث ساعات سأمنح البارون وزوجته حل اللغز..

لم ينهِ هولمز جملته.. لقد غاص القارب إلى قاع النهر.. لم يعد هناك ما يمكن التشبث به.. ارتفعت صرخات تشق الهواء من ضفتَي النهر حين اختفا الرجلان، ثم ساد صمت حذر.. لحظات وبرز رأس من الماء، إنه شرلوك هولمز.. كان الإنجليزي سباحًا ماهرًا، تمكّن من السباحة نحو سفينة فولانفان الذي صاح:

- استمِر في السباحة سيد هولمز.. لا تستسلم.. سوف نهتم بأمر لوبين لاحقًا.. التقِط الحبل سيد هولمز..

التقط هولمز الحبل، وبينما كان يصعد إلى متن السفينة ناداه لوبين الذي ظهر في الماء:

- حل اللغز يا سيدي، ستعرفه.. أنا متعجب أنك لم تعرفه حتى الآن، ولكن على أي حال ما نفعك به؟ ستعرفه حين تخسر المعركة..

واصل أرسين لوبين حديثه كأنه يحاول أن يقنع غريمه بالاستسلام:

- افهم هذا يا سيدي العزيز، لا تملك ما يمكنك فعله.. لا شيء على الإطلاق.. أنت في وضع مؤسف بالنسبة لرجل محترم.

تدخَّل فولانفان:

- إلى اللقاء سيد لوبين..

- من الوقاحة أن تقاطعني في منتصف الحديث أيها العقيد فولانفان.

- إلى اللقاء سيد لوبين.

- اللعنة أيها العقيد! أنت لا تستسلم إلا حين تشعر بالخطر! كأنك لا تعترف أنني الآخر أواجه أي خطر.

- للمرة الأخيرة سيد لوبين، أودعك.

- سيد فولانفان، لا أعتقد أن لديك النية لتقتلني.. ربما أنت خائف من هربي، ولكنك لن تُقدِم على إيذائي..

أطلق فولانفان النار، ولكن لوبين غاص في الماء واختفى.

☆ ☆ ☆

وقعت هذه الأحداث في تمام الثالثة بعد الظهيرة، في تمام السادسة ارتدى شرلوك هولمز ملابس سائح استعارها من أحد المحال في نيلي، وعاد إلى فندق البارون في شارع موريو.. استغرب البارون وزوجته هذا البنطال القصير،

والقميص الضيق، والقبعة الغريبة التي ارتداها هولمز، بدا لهم في حالة مزرية، وبالكاد تمكنا من كبح زمام ضحكاتهما عند رؤيته، أخذ هولمز يسير بين الغرف كالرجل الآلي، يعبر الأروقة وينظر عبر النوافذ، بخطوات معدودة؛ باحثًا عن شيء لا يعرفه أحد غيره.

توقف لوهلة عند قطعة حُلِي فحصها بتمعُّن، ثم استمر في حركته، حتى سأل في النهاية:

- هل الآنسة هنا؟

- نعم، في الحديقة رفقة الأطفال.

- سيدي البارون..

- بما أن الاجتماع المقبلين عليه، على الأغلب سيكون الاجتماع النهائي؛ أود أن تحضر الآنسة.

- أنت متأكد أنه اجتماعنا الأخير؟

- فلتتحلَّ بقليل من الصبر سيدي.. ستظهر الحقيقة جلية؛ من الأدلة التي سأقدمها لك، وسأسعى لتوضيحها قدر ما أستطيع.

- كما تشاء.. سوزان، أيمكنك إحضارها؟

نهضت البارونة وعادت بعد لحظات في صحبة الآنسة ديمون، التي بدا عليها شحوب غير طبيعي، استندت إلى أحد المقاعد دون أن تجلس أو تسأل ما سبب إحضارها إلى هنا، تجاهل هولمز حضورها، والتفت إلى السيد فيكتور ليبدأ حديثه بصوت لا يسمح بالمقاطعة:

- بعد عدة أيام من البحث؛ بالرغم من تغيُّر العديد... ما زلت سأخبرك ما أخبرتك إياه منذ اليوم الأول: لم يسرق الشمعدان اليهودي سوى شخص يسكن هذا الفندق.

- ما اسم المذنب؟

- أعرفه.

- والأدلة؟

- الأدلة التي أملكها ستضغط عليه.

- لا يكفينا أن نضغط عليه.. يجب أن نعيد المسروقات.

- الشمعدان اليهودي؟ إنه في حوزتي.

- والعقد، والصندوق؟

- وكذلك العقد والصندوق، وكل ما سُرِق في المرة الثانية في حوزتي.

أحب هولمز تلك الطريقة المسرحية الهادئة في عرض انتصاراته، لقد أدهش البارون وزوجه، ورمقاه بفضول صامت.

بدأ هولمز يسرد على مسامعهم ما أنجزه خلال تلك الأيام الأخيرة.. اكتشافه للقاموس المصور.. والكتابة على الورق بالأحرف المقصوصة.. السيد بيرسون.. والحقيبة التي ألقاها في نهر السين.. وانتحاره.. وأخيرًا القتال بينه وبين لوبين.. ثم غرق القارب واختفاء أرسين لوبين، حين انتهى هولمز من قص حكايته، قال البارون بصوت خفيض:

- لم يتبقَّ سوى أن تفصح عن اسم المذنب.. مَن تتهم؟

- أتهم الشخص الذي قص الحروف لكتابة الرسائل للتواصل مع أرسين لوبين.

- من أين لك أن تعرف أن هذا الشخص كان يتواصل مع لوبين؟

- من لوبين نفسه.

أخرج هولمز من جيبه ورقة صغيرة.. كانت الورقة التي كتب عليها لوبين نفس الأحرف وقدَّمها لهولمز عند النهر، وأردف هولمز برضا:

- لاحِظْ سيدي البارون، أن لوبين لم يكن مجبرًا ليعطيني هذه الورقة.. لقد كانت هفوة صغيرة من جانبه.

- ما زلت لا أفهم هذه المعلومة إلى ماذا تقود؟!

بدأ هولمز يكتب بالقلـم الرصالص الأحـــرف والأرقـــام: CDEHNOPRZEO-237.

قال البارون:

- حسنًا، إنها الأحرف التي عرضتها علينا بنفسك من قبل.

- لا، إذا دققت النظر كما فعلت أنا ستدرك أن الأحرف مختلفة عمَّا عرضت عليك.

- ما الاختلاف؟

- هناك حرفان زائدان.

- معك حق.. لم ألحظهما.

- حينما أضفت الأحرف الجديدة إلى الكلمة الناقصة لم أجد سوى تشكيلة واحدة ملائمة، وهي: إيكو.

- وإلام تشير إيكو؟

- تشير إلى إيكو دي فرانس.. صحيفة أرسين لوبين.. إنها وسيلة اتصاله الرسمية.. وداعمه الرسمي؛ لذلك كان حل هذا اللغز بسيط: أجب عن الرسالة

رقم ٢٣٧ في قسم المراسلة من صحيفة إيكو دي فرانس، وقد منحني لوبين بنفسه حل اللغز؛ لذلك ذهبت إلى مكتب إيكو دي فرانس.

- وماذا وجدت؟

- وجدت التاريخ المفصل الذي يجمع أرسين لوبين بشريكته..

أخرج لوبين سبعة جرائد وفتحها على الصفحة الرابعة، وحدد تلك الرسالة المشفرة:

١ـ آرس. لوب. السيدة إيمبل. حماية. ٥٤٠

٢ـ ٥٤٠. منتظر التفسير. آ. ل.

٣ـ آ. ل. سيطرة العدو.

٤ـ ٥٤٠. اكتب العنوان. أجرِ تحقيقًا.

٥ـ آ. ل. موريو.

٦ـ ٥٤٠. الحديقة. ثلاث ساعات. بنفسجي.

٧ـ ٢٣٧. انتظر. السبت. سيصبح الأحد. صباحًا. الحديقة.

قال البارون بضجر:

- هل تعُد هذا تاريخًا مفصلًا؟

- بالطبع! ولكنك لا تعيرني انتباهك كاملًا، إذا فعلت ستتفق معي.. في البداية هناك سيدة تطلب حماية أرسين لوبين، يجيب لوبين بعد ذلك ويطالبها بمزيد من التفسير، تراسله السيدة بعد ذلك أنها تحت سيطرة العدو؛ تقصد بيرسون على ما أعتقد، وأنها ستعاني إن لم يساندها، لوبين لا يمكنه أن يواجه المجهول، يطلب منها اللقاء ليجري مزيدًا من التحقيق.

صمت هولمز لبرهة ليتأكد من انتباه البارون، ثم أردف:

- ترددت السيدة لمدة أربعة أيام.. انظر إلى تواريخ الجرائد، ثم دفعتها الأحداث وتهديدات بيرسون، تمنحه موعدًا للقاء في حديقة مونكو في تمام الثالثة، وتطلب منه أن يرتدي اللون البنفسجي؛ لتتمكن من التعرف إليه، بعد ذلك انقطع التواصل لمدة ثمانية أيام، لم يحتَج أرسين لوبين والسيدة التواصل عن طريقة الجريدة؛ لأنهما كانا يلتقيان بالفعل، أو يتراسلان عن طريق البريد، الاتفاق كان أن تسرق السيدة الشمعدان وتمنحه لبيرسون.. يوم السبت ـليلة السرقةـ مذكور في المراسلات، وكذلك يوم الأحد؛ حيث يلتقي لوبين والسيدة.

قال البارون:

- في الحقيقة لا يمكنني أن أنكر أنك تُقدِّم أدلة مكتملة.

أردف هولمز:

- وقعت السرقة، وغادرت السيدة صبيحة الأحد قابلت لوبين لتخبره بإنجاز المهمة، ثم ذهبت إلى بيرسون لتمنحه الشمعدان اليهودي، لقد تم التحايل على العدالة بتلك الأدلة الواهية التي تركوها في الحديقة وعلى سور الشرفة؛ ليُهيَّأ للمحققين أن المنزل تم اقتحامه، بينما السيدة حافظت على هدوئها.

- حسنًا سيد هولمز، أعترف أن تفسيرك منطقي للغاية، ولكن ماذا عن السرقة الثانية؟

- كانت السرقة الثانية محاولة لتقليد السرقة الأولى.. حين كتبت الصحف عن طريقة التنفيذ التي رسمها المحققون.. فكر بعض اللصوص في إعادة السرقة بنفس الطريقة.

- كان لوبين وراء الأمر بالطبع؟

- لم يكن لوبين على الإطلاق؛ لوبين ليس بهذا الغباء..

- مَن كان؟

- بيرسون.. دون شك، وهو الذي سدد الطعنة لواطسون.

- أنت واثق مما تقول؟

- بلا شك، لقد أرسل أحد شركاء بيرسون رسالة له بالأمس، قبل أن يعرف بخبر انتحاره، رسالة تؤكد أن المفاوضات كانت تتم بين هذا الشريك ولوبين ليعيد بيرسون المسروقات إلى الفندق، الشمعدان اليهودي والمسروقات في المرة الثانية.. كما أن أحد رجال لوبين كان يراقب بيرسون حين ذهب إلى ضفة السين.

- ماذا فعل بيرسون على ضفة السين؟

- كان يتخلص من الحقيبة.

- أي حقيبة؟

- الحقيبة التي تحوي الشمعدان اليهودي والمسروقات الأخرى.

- المسروقات ليست في حوزتك إذن كما سبق وقُلت؟

- لم أكذب أيها البارون.. لقد انتهزت فرصة اختفاء لوبين وغصت إلى الماء بحثًا عن الحقيبة حتى وجدتها.. هاهي على الطاولة.

هرع البارون إلى الشمعدان، ضغط على الزر السري، ليظهر الجيب الخفي، جذبه ليطمئن أن الخاتم ما زال في موضعه.

الآن هذا المشهد يبدو متكاملًا.. واضحًا.. لا يخلو من المأساة حين أعلن هولمز

اتهامه المباشر للآنسة أليس ديمون.. اتهامًا مباشرًا لا يمكن دحضه، قابله صمت تام من الآنسة.

خلال هذه اللحظات الطويلة التي قضاها هولمز يسرد أدلته، لم تتحرك الآنسة، أو يبدو عليها أي أمارات للقلق أو الخوف، ولكن الآن.. ماذا ستقول؟ كيف ستدافع عن نفسها أمام اتهامات هولمز التي تقود إلى سجنها؟

وجَّه البارون حديثه للشابة، وقال:

- ما رأيك في هذه الاتهامات؟!

لم تعلق:

- سأصدق أي ما تقولينه..

لكنها لم تنبس ببنت شفة، تحرك البارون جيئةً وذهابًا في حيرة، ثم عاد لهولمز، وقال:

- اسمح لي سيدي، لن أعترف بما تقوله! إنها خطة مستحيلة! ادعاؤك على هذه الشابة يخالف كل ما أعرفه عنها منذ سنة.

وضع البارون يده على كتف الإنجليزي، وأكمل:

- ولكن ألا تظن يا سيدي أنك تعثرت في فهم أي شيء؟

تردد هولمز بعدما رفض البارون تصديق تحليله المتميز، كيف سيصدق أي شيء؟!

- لا، فكِّر يا سيدي، وحدها تلك الشابة التي أتهمها تعرف ـبطبيعة منزلتها المتميزة عندكـ أن الشمعدان داخله خاتم ثمين.

- لا أظن ذلك يا سيدي.

- اسألها.

عرض لوبين حلًّا لا يمكن رفضه، اقترب البارون من أليس، التقت أعينهما، وقال:

- أنتِ الفاعلة آنستي؟ أنتِ مَن سرق الخاتم؟ أنتِ التي تراسلين أرسين لوبين لتُعِدا للسرقة؟

أجابت الآنسة بثبات:

- أجل يا سيدي.

- مستحيل! ما كنت لأتهمك أبدًا! أنتِ آخر المُشتبَه فيهم بالنسبة لنا! كيف تُقدِمين على تلك الفعلة؟!

- لقد فعلت كل ما قاله السيد هولمز.. هبطت إلى المخدع ليلة السبت سرقت الشمعدان، ثم في النهار التالي ذهبت به إلى هذا الرجل.

اعترض البارون قائلًا:

- ما تدَّعِينه لا يُصدَّق.

- لا يُصدَّق؟ لماذا؟!

- لأن باب المخدع كان مغلقًا حين هبطت إليه صباح الأحد.

تخضبت وجنتا أليس، وفقدت تركيزها ثم نظرت إلى هولمز كأنها ترجو مساعدته، الذي أدهشه توتر أليس، أليس لديها حقًّا تفسير لما يقوله البارون؟ أكانت تحاول مجاراة تحليل هولمز حول سرقة الشمعدان لتخفي شيئًا آخر وتعثرت عند التفسير الأول! قال البارون:

- كان هذا الباب مغلقًا.. صباح الأحد كان الباب مغلقًا.. إذا كان ادعاؤك أنكِ دلفتِ إلى الغرفة من الباب؛ فحتمًا هناك مَن فتحه لكِ من الداخل؛ أي من غرفتنا أو من المخدع نفسه، ولكن لم يكن هناك داخل هذا الجناح سواي أنا وزوجتي.

انحنى هولمز قليلًا، وأسند رأسه إلى كلتا يديه يختبئ من تلك الفكرة التي بدأت تراوده، صعقة برق أنارت عقله وأصابته بحيرة غير مريحة، لقد بدأت الحقيقة ـالحقـ تتكشف إليه كما الشمس تسطع بعد ليلة طويلة.

أليس ديمون بريئة.

أليس ديمون بريئة.. الحقيقة لم تكن إدانة أليس ديمون.. هناك دليل، ولكن أليس ليست المذنبة.. ما لا يمكن دحضه الآن أن هولمز أخطأ في توجيه تركيزه نحو الآنسة منذ اليوم الأول، وعليه استدراك الخطأ.. رفع هولمز رأسه بعد ثوانٍ مرت وهو يفكر، ثم وبهدوء شديد أدار وجهه نحو السيدة إيمبليفال.

بدت شاحبة.. شحوبًا يغزو المرء حين تكون حياته على المحك.. كما بدت عليها ارتعاشة طفيفة، وقف هولمز بين البارون وزوجه، خشي أن يتحول الأمر للمأساة فورما يفصح عما يفكر فيه، حين نظر إلى البارون اهتزت أوصاله، كانت نظرات البارون تؤكد أن الفكرة ذاتها أصابته.. الفكرة ذاتها تدور في خلده كما تدور في خلد هولمز، قالت أليس ديمون في محاولة بائسة لحجب شمس الحقيقة:

- أنت محق يا سيدي، لقد اخطأت في اعترافي، لم أدلف من الباب.. لقد دلفت من النافذة عبر الحديقة؛ بمساعدة السلم المتحرك.

بدت الكلمات كاذبة رغم ما بذلته أليس من مجهود لتحافظ على ولائها، صوتها لم يكن واثقًا، ونظراتها الثابتة البريئة اهتزت وشابتها شائبة الكذب، أشاحت بوجهها بعيدًا لتتفادى مزيدًا من النظرات المتفحصة، وأحاطهم جميعًا الصمت القاتل، انتظرت البارونة في رعب واضح، بينما البارون بدا على ملامحه المعركة التي تدور في خلده، لم يكن يود أبدًا أن يصدق أفكاره وإلا ستتهاوى سعادته الأبدية، في النهاية لفظ كلماته بصعوبة:

- تحدثي.. فسِّرِي لي ما يحدث.

أشاحت البارونة بوجهها لتخفي علامات الألم وهي تقول:

- لا أملك ما أفسره لك.. يا حبيبي.

- إذن فلتخبريني أنتِ يا آنسة.

- لقد أنقذتني الآنسة؛ بدافع الولاء والإخلاص، واتهمت نفسها.

- أنقذتك من ماذا؟ ومِن مَن؟

- من هذا الرجل.

- بيرسون؟

- نعم، أنا مَن تلقى تهديداته.. لقد تعرفنا عند صديقة.. كنت حمقاء.. لم أفعل ما لا يمكنك مسامحتي عليه.. لقد تراسلنا فقط.. ارحمني أرجوك.. لقد بكيت كثيرًا ندمًا على فعلتي.

- أنتِ؟! أنتِ يا سوزان؟!

هم فيكتور ليضربها، لكن هوت يده المرتفعة إلى العدم، وردد في ألم:

- أنتِ؟! لا أصدق مستحيل!

في جمل مقتضبة سردت البارونة الفاجعة التي تعرضت لها.. خوفها من الرجل.. ندمها.. فزعها.. مساعدة أليس المثيرة للإعجاب.. الكتابة للوبين ليتدخل.. وتنظيم قصة السرقة لإنقاذها من مخالب بيرسون، أما البارون؛ ففاضت على وجهه علامات الجزع، وردد عبارات الصدمة مرارًا وتكرارًا.

☆ ☆ ☆

في الليلة ذاتها الباخرة العائدة إلى لندن شقت طريقها بهدوء من مرفأ كالي نحو بحر المانش، ليلة هادئة انتثرت في سمائها السحابات الصغيرة تحيط السفينة، بينما القمر في الأفق تتلألأ حوله النجوم.

عاد أغلب الركاب إلى حجرهم في تلك الساعة المتأخرة، أما البعض فمكث ساهرًا فوق متن السفينة، أو مستلقيًا على الكراسي الوثيرة يتدثر بالأغطية الثقيلة ويغط في نومٍ عميقٍ، عدة رجال يدخنون، وهمسات قليلة لا يمكنها أن تعلو لتكسر جلال الصمت المخيم على المكان، أحد الركاب أخذ يذرع المتن جيئةً وذهابًا، ثم توقف بالقرب من إحداهن، وقال:

- أعتقد أنكِ في حاجة للنوم آنسة أليس.

- لا، ليس على الإطلاق سيد هولمز.. أنا أفكر.

- فيم تفكرين؟ إذا سمحت لي أن أسأل.

- أفكر في البارونة.. إنها تعيسة الآن.. لقد ضاعت حياتها سُدى.

قال هولمز بصدق:

- لا أعتقد، خطؤها ليس من تلك الأخطاء التي لا تُغتفَر.. أعتقد أن البارون سينسى ما فعلته، كان ينظر إليها بالفعل قُبَيل مغادرتنا بحدة أقل.

- ربما، لكن عملية النسيان تلك ستستغرق الكثير من الوقت، وستعاني خلالها.

- تكنين لها الكثير من الحب؟

- بالفعل، إنها السر وراء قوتي.. هي التي تدفعني للضحك في وقت أود فيه لو أهرب من العالم.

- أنتِ تعيسة لأنكِ تفارقينها؟

- غاية في التعاسة.. أنا يتيمة.. ولا أصدقاء لي.. لم أملك سواها.

قال الإنجليزي الذي شعر بمعاناة أليس:

- سيكون لديك أصدقاء، أعدك بذلك.. أملك الكثير من العلاقات.. والنفوذ.. أؤكد لكِ أنتِ لن تندمي قط على السفر إلى إنجلترا.

- ربما، ولكن البارونة ليست في إنجلترا.

لم يتبادلا المزيد من الكلمات، أخذ شرلوك هولمز يدور في جنبات السفينة، ثم عاد ليستقر إلى جوار مرافقته، بدأت السماء تتخلص من سحب الساحل تلك، تمتد كستار أسود مرصع بحبات الماس النادرة، أخرج هولمز غليونه، حاول إشعاله، ولكن الطقس جعل إشعال التبغ عسيرًا بعود الثقاب، لم يملك ولاعة؛ لذا نهض وطلب من أحد الرجال ولاعة.

أخرج الرجل ولاعته وأشعلها..

النار جاءت بمفاجأة جديدة.. إنه أرسين لوبين ولا أحد سواه.

قال هولمز الذي اعتاد الظهور المتكرر لأرسين لوبين في أكثر اللحظات غير المُتوقَّعة لظهوره:

- تبدو في صحة جيدة سيد لوبين.

- أحسنت سيد هولمز!

- أحسنت؟ لماذا؟

- أتمزح؟! تراني الآن على متن سفينة، كشبح، بعدما اختفيت تمامًا في قاع السين، ولا تصبك أدنى دهشة؟! لا يرتعد جسدك! إنك فخر كل البريطانيين بلا شك! أكرر: أحسنت، أنت مدهش!

- الأمر لا يثير الاعجاب.. كنت أعرف أنك تعمدت السقوط عن القارب، وتعمدت إغراقه.

- لماذا غادرت السين قبل أن تعرف ما حل بي؟

- ما حل بك؟! لم أكن في حاجة لذلك، كان هناك خمسمائة رجل على ضفتَي النهر في انتظارك، لو هربت من الموت كانوا ليمسكوا بك.

- مع ذلك هأنا ذا على متن القارب الراحل إلى لندن.

- سيد لوبين، هناك رجلان في هذا العالم لا تدهشني أفعالهم، أنا أولًا، وأنتَ ثانيًا.

لقد حل السلام بينهما.

ربما لوبين هو عدو هولمز الذي لا يُقهَر، ظل منيعًا في المواجهتين، وكان له اليد العليا، ولكن هولمز على الجهة الأخرى كان عدو لوبين العتيد الذي أعاد الماسة الزرقاء والشمعدان إلى أصحابهما، ربما كان نجاحه في قضية الشمعدان اليهودي أقل بهاءً من قضية الماسة؛ نظرًا للظروف الاجتماعية التي أحاطت القضية، ولكن بين هولمز ولوبين، بين اللص والشرطي، عرف الرجلان أن أحدهما لم يفز.. وأحدهما لم يُهزَم.. كلاهما حقق نجاحًا معتدلًا.

لذا بدأ الرجلان حديثًا هادئًا بين عدوين أسقطا الأسلحة لتوهما وينعمان بالراحة، أخذ لوبين بناءً على طلب هولمز يشرح كيفية هربه:

- لم يمكن أن نسميه هربًا، لقد كان أسهل ما يكون! كان أصدقاء يراقبون الوضع منذ اتفقنا على موعد استرجاع الشمعدان من بيرسون؛ لذا كانوا حاضرين حين سنحت لي الفرصة وغفل فولانفان ورجاله عن الحطام، فعدت إلى السطح وسرعان ما صعدت إلى قاربهم، وغادرنا تحت أنظار الرجال دون أن يشعر بنا أحد.

- كيف مكثت ساعة ونصف تحت الماء؟

- أُفضِّل أن أحتفظ بهذا السر لنفسي!

- عظيم، دائمًا ما تنجح، ألديك ما تفعله في إنجلترا؟

- نعم، بعض الأمور لأنجزها، ولكن قبل أن أنسى.. ماذا حل بالبارون؟

- لقد عرف كل شيء عن زوجته.

- آه! ماذا أقول؟! لا يمكن مقاومة إغواء الشياطين.. ألم يكن من الأفضل أن تترك المسألة كما نصحتك؟ لو انتظرت يومًا أو يومين على أقصى تقدير لكنت استعدت الشمعدان المسروق من بيرسون ولقنته درسًا، وأرسلته لمنزل البارون.. وقتها كانت ستستمر الحياة السعيدة بين الزوجين.. ولكن بدلًا من ذلك...

قاطعه هولمز متهكمًا:

- بدلًا من ذلك دمرت حياة أسرة كنت تحميها!

- يا إلهي، بالطبع كنت أحميها! هل مهمتي الوحيدة دائمًا هي السرقة، والأعمال السيئة؟

- تحسن الفعل أحيانًا؟

- حين يسمح لي الوقت.. هذا أمر مُسلٍّ.. أمر مضحك أن تلك المغامرة كنت فيها الطرف الجيد العبقري الذي يحاول إنقاذ الناس، بينما أنت الشرير العبقري أيضًا الذي يدمر خططي الجيدة!

- الشرير؟!

- بلا شك، لقد انهارت حياة البارون وزوجه، والآنسة أليس ديمون ـكما ترىـ تعاني حزنًا جمًّا.

- لم يكن في مقدورها أن تمكث في باريس.. كان جانيمار ليكشفها ويلقيها بكل التهم.

- أتفق معك في هذا الصدد.. ولكن كان هذا خطأ من...

مر رجلان أمامهما، قال هولمز للوبين بصوت بدا متوترًا:

- أتعرف من هذان الرجلان؟

- أعتقد أنني تعرفت إلى قبطان السفينة.

- والثاني؟

- لا أعرفه.

- إنه السيد أوستن جيل، والسيد أوستن يشغل في إنجلترا المنصب الذي يشغله السيد ديدو في فرنسا، إنه مدير الأمن.

- يا لها من صدفة سعيدة! سيكون لطفًا بالغًا منك لو عرفتني إليه.. السيد ديدو صديقي العزيز، وأود لو أكسب صداقة السيد أوستن أيضًا.

ظهر الرجلان من جديد، ونهض هولمز قائلًا:

- ماذا لو قبلت بطلبك يا سيد لوبين؟!

قبض هولمز على رسغ لوبين قبضة حديدية آلمت الفرنسي الذي اعترض:

- لماذا تقبض على يدي هكذا يا سيد هولمز؟! أنا مستعد لأسير معك دون عنف.

بالفعل سار لوبين دون أدنى مقاومة وهولمز مسرع الخطى يُحكِم قبضته على

ذراع لوبين.

- هيا.. هيا..

كان يهمس كالمحموم بالرغبة لتسوية كل شيء في أسرع وقت ممكن، ولكنه توقف حين تبعتهما أليس ديمون:

- ماذا تفعلين يا آنسة؟! لا تتبعينا رجاءً.

قال لوبين:

- أود إخبارك سيدي، أن الآنسة لا تتبعنا بمحض إرادتها، أنا أيضًا أقبض على رسغها بنفس القسوة، ربما أكثر مما تفعل معي.

- كيف؟

- الدور الذي لعبته هذه الفتاة في القضية ليس بريئًا تمامًا بالنسبة للعدالة.. كانت شريكة لبيرسون، ثم شريكة لأرسين لوبين؛ لذلك سيكون عليها الاعتراف بخطيئة البارونة، وهكذا سيدي ستفضح أمر موكليك.

أطلق هولمز سراح الفرنسي.. تبادلا النظرات للحظات، ثم انسحب هولمز إلى مقعده، وجلست الفتاة تبعها لوبين، غشي الصمت الليلة الثقيلة، ثم قال لوبين:

- كما ترى سيدي، مهما فعلنا؛ لن نكون أبدًا أصدقاء.. أنت في طريق مختلف عن طريقي في الحياة.. يمكننا أن نلقي على بعض التحية.. نتبادل السلام.. نتحدث لبضع دقائق، ولكن الحاجز لا يزال بيننا.

صمت لوبين للحظات، وأردف:

- ستظل دائمًا شرلوك هولمز.. المحقق، وسأظل دائمًا أرسين لوبين.. اللص، دائمًا سيتبع شرلوك هولمز غريزته في ملاحقة اللصوص والقبض عليهم، أما أرسين لوبين فسيبقى اللص المخلص لمهنته الذي سيحاول إحراج المحقق بقدر ما يستطيع.. هكذا تسير الأمور.

ضحك لوبين ضحكة ساخرة وقاسية، كرهها هولمز، ثم انحنى نحو الفتاة قائلًا:

- أرجو أن تصدقيني يا آنستي، لم أكن لأشي بك مهما حدث.. أرسين لوبين لا يخون؛ خاصة أولئك الذين يحظون بحبه وتقديره.. اسمح لي أن أخبرك بتقديري ومحبتي لكِ.

أخرج كارتًا شخصيًّا من محفظته، ومنحه للآنسة قائلًا:

- إذا فشل السيد هولمز في مساعدتك سيدتي؛ اذهبي إلى الليدي سترونجبور ـسيكون من اليسير الوصول لمحل إقامتهـ وامنحيها هذا الكارت، ستحسن الليدي معاملتك.

- شكرًا، سأذهب إليها غدًا.

- والآن سيدي، أتمنى لك ليلة سعيدة بعدما أنجزت مهامي هنا.. ما زال لدينا ساعة أخرى لنقضيها على متن السفينة سأحاول استغلالها.

استلقى لوبين إلى المقعد.. كانت السماء تزداد صفاءً.. النجمات تتلألأ بالقرب من القمر البديع لتلك الليلة.. لم يعكر شيء صفو هذا الليل البهيم، بينما السفينة تشق الماء الهادئ نحو الساحل الإنجليزي الذي بدأت تشق أنواره الأفق المعتم..

انشغل هولمز بالسيد أوستين وشرطيين رافقاه..

أما لوبين فغط في نوم عميق.

(تمت بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــــاة

-

فهرس المحتويات..

الملاحظات

[1→]

(1) ماري والوسكا: (1786ـ1817): كونتيسة وسيدة مجتمع بولندية، وإحدى عشيقات الإمبراطور نابليون الأول. في سنوات حياتها الأخيرة تزوجت من أحد أهم رجال جيش نابليون فيليب أنطوان.

[←2]

(2) سي أوغست دوبين: شخصية محقق خيالية من تأليف الأمريكي إدجار آلان بو، ظهر لأول مرة في «جرائم شارع مورج».

السيد لوكوك: محقق فرنسي عاش في وجدان الكاتب إيميلي جابورياو، وقد ألهمت هذه الشخصية التي رسمها جابورياو في أواخر القرن 19 آرثر دويل لكتابة شرلوك هولمز.